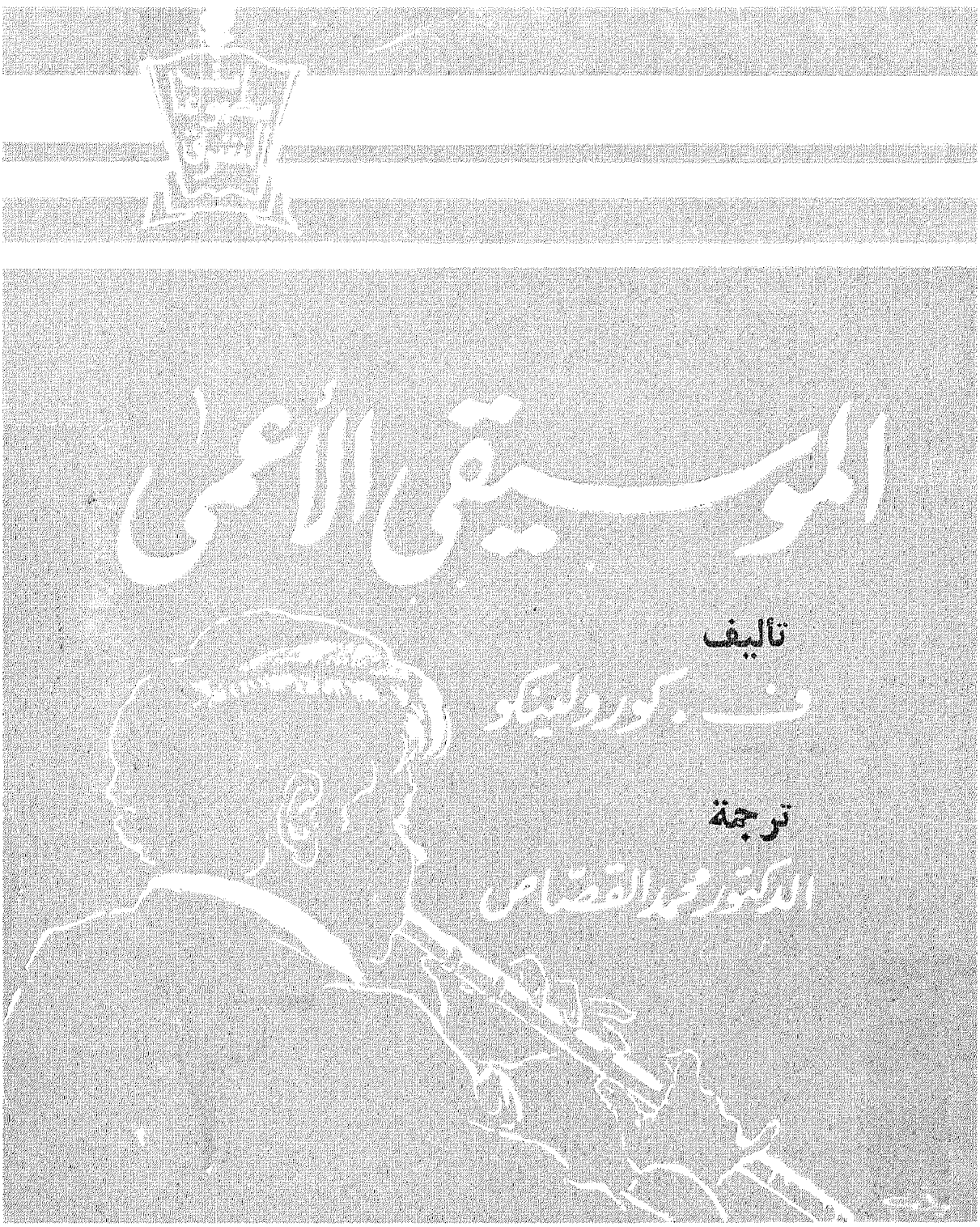

# الموسيقى الأعلى

تأليف

ف. كورولينكو

ترجمة

الدكتور محمد القصاص

# الموسيقى الأعمى

تأليف

ف. كورولينكو

ترجمة

الدكتور محمد القصاص

طبع بمطابع
دار الهنا
١٢ شارع سامى بشارع الصحافة
بولاق ـ القاهرة ت : ٤١١٢٧

## مقدمة المؤلف
### للطبعة السادسة

● اعتقد أن تنقيح هذه القصة التى طبعت بحالتها الاولى عدة مرات ، والاصلاحات التى ادخلتها عليها لابد ان تثير دهشة النقاد ، ومن ثم تتطلب بعض التوضيحات فالمحور السيكلوجى الجوهرى الذى تقوم عليه هـــذه الدراسة ينحصر فى التوثب الغريزى العضوى نحو النور ، وهذا هو مبعث الازمة النفسية لبطل القصة والحل الذى انتهت اليه .

وكان اهم ماوجه الى فى الملاحظات النقدية التى بعث الى بها الاصدقاء او نشرتها الصحف ينحصر فى هذا الاعتراض الخطير وهو ان هذه الغريزة لاتوجد لدى الكمه الذين لم يروا النور قط ومن ثم لايمكنهم الشعور بالحرمان من شىء لايعرفونه ، ولكن يبدو لى ان هذا الاعتراض لا اساس له من الحقيقة ، فنحن لم نطر كالطيور مطلقا ، ومع ذلك فكلنا نعرف ان احساس الطيران يراود احلام الاطفال والمراهقين منذ سنين طويلة ، غير انه لابد لى من الاعتراف بان هذا التفسير انما دخل قصتى كمجرد فرض أوحى الى به الخيال .

وانقضى على ذلك عدة سنين نشرت هذه الدراسة خلالها عدة طبعات منفصلة ثم تهيأت لى مصادفة موفقة خلال رحلة من رحلاتى ، فمكنتنى من اجراء ملاحظات مباشرة ، فكل مايجده

---

(١) تناولنا هذه الطبعة بشىء كثير من التعديل

القارىء فى الفصل السادس عن ضـــاربى الناقوس الاعميين ( اللذين ولد احدهما اعمى ) وعن اختلاف حالتيهما النفسيتين والمشهد الذى وقع لهما مع الاطفال وما ذكره يبجور عن الاحلام كل ذلك قد التقطته من واقع الحياة وسجلته فى مذكرتى ، وانا فى برج ديرساروفسكى بابراشية تمبوف،ولعل هذين الكفيفين لايزالان هناك حتى اليوم يقودان الزائرين فى صعودهم البرج ومنذ ذلك الحين لم تصدر طبعة من هذا الكتاب حتى شعرت بشىء من وخز الضمير لاهمال هذه الحادثة الفرعية ، التى تعتبر فى رأيى حاسمة فى الجواب على الســؤال الذى نحن بصدده .

ولم يكن يمنعنى من ادخالها فى القصة الا شبح الصعوبة التى يلاقيها الكاتب فى تعديل موضوع سبق له ان درسه وهى اليوم تكون اهم جزء فى التغيرات التى ادخلتها على هـــذه الطبعة ، فليست التصحيحات الاخرى الا نتيجة لها ، لانى بعد ان قررت تناول الموضوع من جديد لم يكن فى وسعى ان اقتصر على اقحام تلك الحادثة فيه بطريقة آلية ، وهكذا لم يكد عمل خيالى يعود الى السير فى مجراه القديم ، حتى انعكس على كل اجزاء القصة .

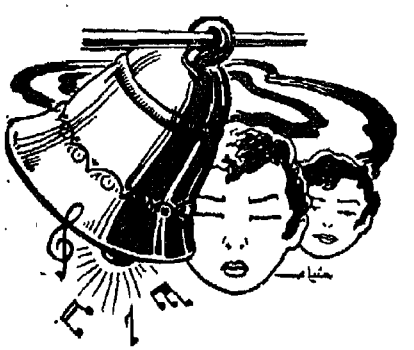

# الفصل الأول

فى ساعة متأخرة من الليل ولد الطفل فى اسرة غنية من اسر الجنوب الغربى ، كانت الوالدة الشابة مستلقيةشبه نائمة،ولكن لم تكد الصرخة الاولى للمولود الجديد ترن فى ارجاء الغرفة — وهى صرخة عذبة شاكية — حتى بدأت المرأة الشابة تتحرك فى فراشها ، وهى مغمضة العينين ، واخذت شفتاها تهمسان بشىء ما ، وانقبض وجهها الشاحب بملامحه العذبة التى تشبه ملامح الاطفال انقباضا ينم عن الم جارف ، كذلك الالم الذى يبدو على وجه الطفل المدلل حين يعانى حزنا غير مألوف .

وأدنت القابلة أذنها من شفتى الام المنفرجتين ، فسألتها العليلة بصوت خافت متقطع لايكاد يسمع : ماذا به ؟ ..... لماذا ... ؟

ولم تفهم القابلة سؤالها ... وعاد الطفل الى صياحه .. فسرى فى وجه النفساء صدى لألم شديد ، وانسابت عن عينيها المغلقتين دمعة ضخمة . ثم انفرجت شفتاها عن همسة رقيقة كالسابقة ، وراحت تتساءل :

لماذا ؟ لماذا ؟

وفى هذه المرة فهمت القابلة سؤالها ، فأجابت بهدوء :

تسألينني لماذا يبكى الطفل ؟ ولكن هذه هى الحال دائما ، فاطمئنى .

ولكن المرأة الشابة لم تستطع ان تثوب الى هـــدوئها ، فكانت تنتفض لكل صرخة جديدة تسمعها من الطفل ، ولم تكف عن التساؤل بصوت كله جزع واضطراب .

لماذا يبكى بهذه الصورة .. هـــذه الصورة التى تمزق القلب ؟ ...

ولكن القابلة لم تجد شيئا غير مألوف فى صياح الطفـــل ، ورات الوالدة تتكلم وكأنها فى حلم ، أو بكل بساطة فى حالة هذيان ، فلم تعد تعيرها اهتماما ، وقصرت كل عنايتها عـــلى المولود .

وسكتت الشابة . ولكن كانت تنتابها من حين لحين نوبة الم شديد لاتستطيع التعبير عنها بالحركات او الكلمات ، فتسيل من عينيها دموعا غلاظا تنفلت من بين اهدابها السوداء الكثة وتنحدر ببطء على وجنتيها الشاحبتين شحوب الرخام .

واغلب الظن ان قلب الام كان يشعر بانه قد ولد مع هـــذا الطفل مصير مشحون بشقاء غامض لامفر منه ، فخيم على مهده ليلازم هذه الحياة الجديدة حتى القبر .

الا يمكن ان يكون هذا الاحســـاس مجرد نتيجة لحالة هذيان . مهما يكن من شيء فان الطفل قد ولد أعمى .

لم يفطن احد الى ذلك فى بادىء الامر ، فقد كانت نظرة الطفل زائغة غير محددة ،كما هى الحال بالنسبة لجميع المواليد الجدد حتى سن معينة ثم تتابعت الايام ، وقطع الطفل بضعة أسابيع من عمره ، وصفت عيناه وزالت عنهما الغشاوة البيضاء

التى كانت تغطيهما وتحدد شكل انسانهما . ولكن الطفل لم يكن يدير رأسه حينما ينفذ الى الفرفة شعاع زاه وهاج مصحوب بزقزقة العصافير البهيجة وحفيف اشجار الزان الخضراء التى تتمايل فى الحديقة الملتفة على مقربة من النوافذ ، وكانت الام التى استعادت صحتها مع الايام اول من أعتراه القلق امام التعبير الغريب لهذا الوجه الصغير الذى لايزايله الجمود ويبدو عليه نوع من الجد لا يتفق مع سن صاحبه .

وراحت المراة الشابة تحملق ، كالحمامة المذعورة ، فيمن حولها من الناس وتتساءل :

ـ قولوا لى : لماذا هو كذلك ؟

ويجيبها الغرباء غير مكترثين :

ماذا تعنين ؟ لاشىء يميزه عن غيره من الاطفال الذين فى سنه .

ـ ولكن انظروا الى هذه السيماء الغريبة ، كأنه يبحث عن شىء بيديه ..

ويرد الطبيب :

ـ ان الطفل لايعرف بعد كيف ينسق بين حركات يديه واحاسيسه البصرية

وتعترض المراة الشابة قائلة :

ولماذا اذن ينظر دائما فى اتجاه واحد بعينه ؟ ثم تصيح الام متلهفة : هل هو .. هل هو أعمى ؟ ذلك ان الريب القاتل قد نفذ الى قلبها فجأة كالسهم فلم يستطع احد ان يهدىء من روعها .

أخذ الطبيب الطفل بين ذراعيه ، واداره نحو الضوء بشىء من العنف ، وراح ينظر فى عينيه فبدت عليه هزات اضطراب خفيفة ، ونطق ببضع كلمات لامعنى لها ، ثم انطلق الى الخارج واعدا بالعودة بعد يومين أو ثلاثة أيام .

وأخذت الأم تبكى وتتلوى كالطائر المجروح ، وتضم الطفل

الى قلبها ، على حين تنظر عينا الصغير النظرة الجامدة الحزينة نفسها .

وعاد الطبيب بعد ايام ، كما وعد ، ومعـــه منظار العين ، فأضاء شمعة وجعل يدنيها من عينى الطفل تارة ، ويبعدها عنهما تارة أخرى ، وفى هذه الاثناء كان ينظر فى قاع الحدقة ، وأخيرا قال فى ارتباك شديد :

سيدتى ... من سوء الحظ انك لم تخطئى ، فالحقيقة أن الطفل أعمى دون أى أمل ..

سمعت الأم تشـــخيص الطبيب فى حزن هادىء ، وقالت باطمئنان : كنت اعرف ذلك منذ زمن طويل ..

ولم تكن الاسرة التى ولد فيها هذا الطفل كثيرة العدد ، فكانت تضم الى جانب الاشخاص الذين سبق ذكرهم ، الأب و « العم مكسيم » كما كان يدعوه أهـــل المنزل جميعا دون استثناء ، بل الغرباء أيضا . وكان الأب يشبه الآلاف غيره من ملاك الارض فى المنطقة الجنوبية الغربية : رجل دمث الخلق ، بل طيب القلب يحسن الرقابة على عماله ويولع بتشييد الطواحين واعادة تشييدها ، وكانت هذه المشاغل تكاد تستغرق كل وقته ولذلك لم يكن يسمع صوته فى البيت الا فى ساعات الفداء والعشاء المحددة ، أو فى المناسبات التى من هذا القبيل ، وفى هـــذه الحال كان ينطق دائما بجملة واحدة لاتتغير ، وهى : هل أنت بخير ياحبيبتى ؟ .. وبعدها يجلس على المائدة ، ثم لايكاد ينطق بكلمة ومن حين لحين — ولكن فى النادر القليل — كان يحكى بعض

القصص حول جذوع البلوط وثمار الصنوبر ، ومن الواضح أن مثل هذا الرجل الوديع البسيط لم يكن ليؤثر أثرا يذكر فى حالة نجله النفسية .

اما العم مكسيم ، فكان رجلا مختلفا كل الاختلاف ، فقبل هذه الاحداث التى نعرض لذكرها بحوالى عشر سنين ، كان يعرف العم مكسيم بأنه أخطر مشاغب ليس فقط فى الاقليم الذى فيه ضيعته بل أيضا فى « كييف » أيام « العقود(١) » ولم يتأت لأحد أن يفهم كيف يكون هذا المواطن الصالح أخا لمدام « بوبلسكا » ، او الانسة بتشنكو كما كانت تسمى قبل زواجها ، والتى تنتمى الى اسرة معروفة بالفضل والصلاح فلم يكن فى مقدور انسان ان يعرف أى سلوك يجب ان يسلكه معه ولا كيف يرضيه ، فكان يقابل حفاوة النبلاء به بوقاحة جارحة ، ويعفو للفلاحين عن ضروب من الوقاحة الشنيعة التى لو وجهت لاشد النبلاء سماحة وحلما لم يكن جزاؤها أقل من الصفع .

وأخيرا حدث حادث اهتز له جميع ذوى التفكير الرشيد من فرط الطرب ، وذلك أن العم مكسيم أخذته فجأة موجة بغض نحو النمساويين ، لايدرى احد لماذا ، فانطلق الى ايطاليا وهناك انضم الى رجل مشاغب ملحد مثله ، الى غاريبلدى الذى يحكى عنه ملاك الاراضى الزراعية أنه حالف الشيطان وتحدى البابا ، وبطبيعة الحال ادت هذه الفعلة بمكسيم الى ضياع روحه الى الابد ، ذلك الروح الانشقاقى المشاغب ، وعلى العكس ، مع ذلك قلت الفضائح فى سوق « النقود » وانقشع القلق عن اسر النبلاء ، فاطمأنت الامهات على مصير ابنائهن . .

ومن البديهى ان النمساويين من جهتهم كانوا يتميزون من الغيظ ضد مكسيم وكانت صحيفة «البريد » تلك الصحيفة

---

(١) هذا هو الاسم الذى كان يطلق فيما مضى على سوق كييف الشهيرة .

المفضلة لدى ملاك المنطقة ، تذكر اسمه فى بعض الاحيان بين انصار غاريبلدى المتطرفين ، وفى صباح يوم طاب صحوه اعلنت صحيفة البريد تلك الى العالم اجمع ان مكسيم كبا به جواده فى المعركة ، ولما كان النمساويون يحنقون منذ زمن طويل على هذا المسعور الذى لولاه ما استطاع غاريبلدى الثبات ( على الاقل فى راى مواطنى العم مكسيم ! ) فقد فروا جسمه كما تفرى الكرنبة بكل بساطة .

وراح جيرانه من الملاك يقولون فى أنفسهم : مهما يكن من شىء ، فان صاحبنا مكسيم قد انتهى نهاية سيئة ، وأرجعوا هذه النتيجة الى تدخل القديس بطرس لمصلحة وارثه ، واعتقدوا جميعا ان مكسيم قد مات .

ولكن الحقيقة ان أسياف النمساويين لم تنجح فى طرد روح مكسيم العنيدة التى بقيت فى جسمه بالرغم من أن هذا الجسم اضحى فى حال يرثى لها ، فقد نجح ثوار غاريبلدى فى سحب زميلهم الهمام من المعمعة وحملوه الى المستشفى وبعد ذلك بسنين عاد مكسيم ، على غير انتظار من أحد ، الى بيت أخته حيث استقر نهائيا .

ومنذ ذلك الحين لم يعد يفكر فى القتال ، وكانت ساقه اليمنى قد اجتثت من جذورها ، مما اضطره الى استخدام عكازته من اجل المسير ، ومن جهة اخرى كانت ذراعه اليسرى قد اصابها العطب الى حد جعلها لاتصلح الا للاعتماد على العصا الى حد ما ، وعلى وجه العموم أصبح مكسيم أكثر جدية من ذى قبل وركن الى الهدوء ، غير ان لسانه اللاذع كان يبرهن من حين لحين على أنه لايقل مضاء عما كان عليه سيفه فيما مضى وقد كف عن الذهاب الى « العقود » ولم يعد يظهر فى المجتمعات الا نادرا ، وأصبح يقضى معظم وقته فى « مكتبته » بين كتب

لايعرف الناس عنها شيئا ولكنهم يفترضون انها نجسة بل كان يكتب بعض الاشياء ، ولكن لما لم تكن كتاباته تظهر فى « البريد» لم يعرها احد كبير التفات .

وحوالى الفترة التى ولد فيها كائن جديد فى المنزل الريفى الصغير ، وبدأ ينمو كانت بعض الخيوط الفضية قد اخذت تلمع فى مواضع متفرقة من شعر العم مكسيم القصير،وتكورت كتفاه الى أعلى لطول ارتكازهما على العكازتين ، وبدا جسمه كله وكانه قد اصبح مربعا ، وكان منظره الغريب الكئيب وحاجباه العابسان وضوضاء عكازتيه وسحائب الدخان التى تحيط به دون انقطاع ـ اذ انه كان لايكف عن تدخين الفليون ـ كان كل ذلك يخيف منه الغرباء ، ولم يكن فى استطاعة غير أولئك الذين يعيشون معه ان يعرفوا ان قلبا نبيلا متقدا يخفق فى هـذا الجسم المشوه ، وأن عقلا لايكل يعمل فى هذا الرأس الضخم المربع المغطى بشعر كث اشعث .

ولكن اقرباءه انفسهم لم يكونوا على علم بالمشكلة التى تستولى على فكره فى ذلك الحين ، فكانوا يرونه فقط ملتفا بدخان ازرق ، يجلس الساعات الطوال دون حراك عابس الوجه ، زائغ النظرات مقطب الحاجبين ، وكان المحارب المشوه يفكر فى أن الحياة صراع دائم بلا هدنة ولا رحمة ، وليس فيها مكان للعجزة كان يجول بخاطره انه طرد الى الابد من صفوف المكافحين ، وانه من العبث ان يستمر يزاحم العالم ، وهو ذلك الفارس الذى اقتلعته الحياة من سرج جواده والقت به بين

الرغام ، فهل مما يستحق العناء ان يستمر يرتجف كالدودةالتى سحقتها قدم فوق الارض ؟ هل مما يليق بكرامته ان يتشبث بمهماز الحياة التى تتابع سيرها المنتصر ويطلب اليها ان تتفضل عليه بلحظات أخيرة ؟

وبينما يتأمل العم مكسيم هذه المشكلة المحرقة بشجاعة هادئة مركزة ويوازن بين الدوافع والمثبطات بطريقة منهجية ، يرى كائنا اخر ، عاجزا منذ اليوم الذى دخل فيه هذا العالم ، فيبدأ يشغل ذهنه ، ولم يكن فى بداية الامر قد أعار الطفل الاعمى التفاتا يذكر ، ثم اهتم بالتشابه الغريب الذى بين مصيره ومصير الطفل .

وفى ذات يوم رأى نفسه ينظر الى الطفل من طرف خفى ، وفى سيماه التأمل العميق ، ويقول فى نفسه : هيه .. هيه .. أن هذا الصغير المسكين عاجز هو الآخر ، ولو أمكن «لحمنا» معا فقد يستطاع أن يستخلص منا نحن الاثنين رجل يصلح لاداء شىء ..

ومنذ ذلك الحين اخذ يكثر من القاء نظراته على الطفل الاعمى .

ولد الطفل أعمى فعلى من تقع هذه التبعة ؟ لا على أحد ، فليس هناك اى « سوء قصد » وانما يكمن سبب الكارثة نفسه فى مكان ما من تلك الاعماقالبعيدة « لعمليات الحياة » الغامضة المعقدة ، وكان قلب الام ينقبض على هم اليم كلما نظرت الى الصغير الاعمى ، ولاشك أنها كانت تعانى ما تعانيه كل أم لعاهة وليدها ولشعورها المحزن بالمستقبل التعس الذى يتربص للكائن الصغير ، ولكن اذا تركنا هذه العواطف جانبا فان المرأة الشابة كانت تأسى فى اعمق حبات قلبها حين تفكر فى ان سبب البلاء قد يكون مستكنا فى الوالدين اللذين وهبوا للطفل الحياة وكان هذا كافيا لكى يصبح الكائن الصغيرذو العينين الساحرتين

ـ وان كانتا عمياوين ـ محور الاسرة ، ولكى يسارع البيت كله الى اشباع أقل نزوة من هذا الطاغية الصغير على غير شعور منه .

ماذا كان يصبح هذا الطفل الذى كانت تدفعه عاهته نحو سخط لا موضوع له ، ويتفانى كل من حوله فى تنحية عواطف الانانية لديه ، لو أن القدر الغريب وسيوف النمساويين لم يرغما العم مكسيم على الالتجاء الى بيت أخته فى الريف ؟

عمل وجود الطفل الاعمى فى البيت شيئا فشيئا ، وبطريقة لاتكاد تلمس ، على توجيه تفكير الجندى المشوه وجهة جديدة ، دون أن يغير من نشاط هذا التفكير وحيويته . فكان يظل الساعات الطويلة فى مكانه لا يتحرك ، مستغرقا فى التدخين كما كان من قبل ، ولكن عينيه لم تعودا تعبران عن ذلك الالم الصامت العميق ، بل عن نوع من استجماع شخص يهتم بمراقبة شىء ما ، وكان العم مكسيم كلما أطال الملاحظة ، زاد نهمه فى تدخين غليونه . وأخيرا جاء اليوم الذى رأى فيه أن يغامر بالتدخل ، فقال لاخته ، وهو يرسل سحائب الدخان من غليونه واحدة بعد أخرى :

ـ سيكون هذا الصغير أتعس منى جدا ، وكان من الخير الا يجىء الى العالم أبدا ، فأطرقت المرأة الشابة بوجهها الى الارض وتساقطت من عينيها دمعة على الشغل الذى فى يدها ، وقالت بصوت كسير : ما أقسى هذا القول منك ياماكس ! ما جدوى ذلك الآن ؟

ـ ولكنى أقول الحقيقة ، ولا شىء غير الحقيقة ! فأنا ينقصنى ذراع وساق ، ولكن لى عينين ، أما الطفل فليس له عينان ، واذن فلن يكون له ساقان ولا ذراعان ولا ارادة .

ـ ولماذا ؟

واجاب مكسيم فى نغمة أكثر حنانا : حاولى أن تفهمينى ،

يا أنا ! فلم يكن يخطر ببالى قط أن أقول لك كلاما قاسيا لمجرد الرغبة فى القول أن هذا الطفل قد وهب له جهاز عصبى فى غاية الرقة ، ولا يزال أمامه كل الوقت وجميع الفرص لتنمية مواهبه بطريقة تعوضه بعض الشىء عن فقدان بصره ، ولكن لابد له من أن يروض نفسه على ذلك . غير أن هذا الاسراف فى العناية الفاسدة التى تحول بينه وبين المجهود تسد أمامه كل الطرق نحو حياة أكمل .

وعرفت الام الذكية كيف تقهر فى نفسها ذلك الاندفاع التلقائى الذى يدفعها نحو الطفل فى نوع من الجنون كلما سمعت صوته الباكى ، ولم ينقض على هذا الحديث بضعة شهور، حتى كان الطفل يحبو بحرية وانطلاق فى أرجاء المنزل ويرهف اذنه لكل صوت ويتحسس كل ما تقع يده عليه بحيوية لا يعرفها غيره من الاطفال .

وسرعان ما تعلم كيف يتعرف أمه من مشيتها وحفيف ثوبها وبعض علامات أخرى لا يستطيع الغريب أن يدركها فكان دائما يتجه الى الناحية التى فيها أمه دون أن يخطىء قط مهما كان عدد الاشخاص الذين فى الغرفة ومهما تنقلوا فى أرجائها ، وكانت اذا أخذته فجأة بين ذراعيها ، عرفها من فوره . ولكنه كان اذا حمله آخرون غيرها ، مر بيده فى سرعة البرق على الوجه الذى يتقدم منه ، وبذلك استطاع التعرف بسرعة على خالته وأبيه والعم مكسيم ، اما اذا حمله بعض الغرباء ، فانه كان يتمهل فى فحصه ، فيمر براحتيه الصغيرتين على الوجه

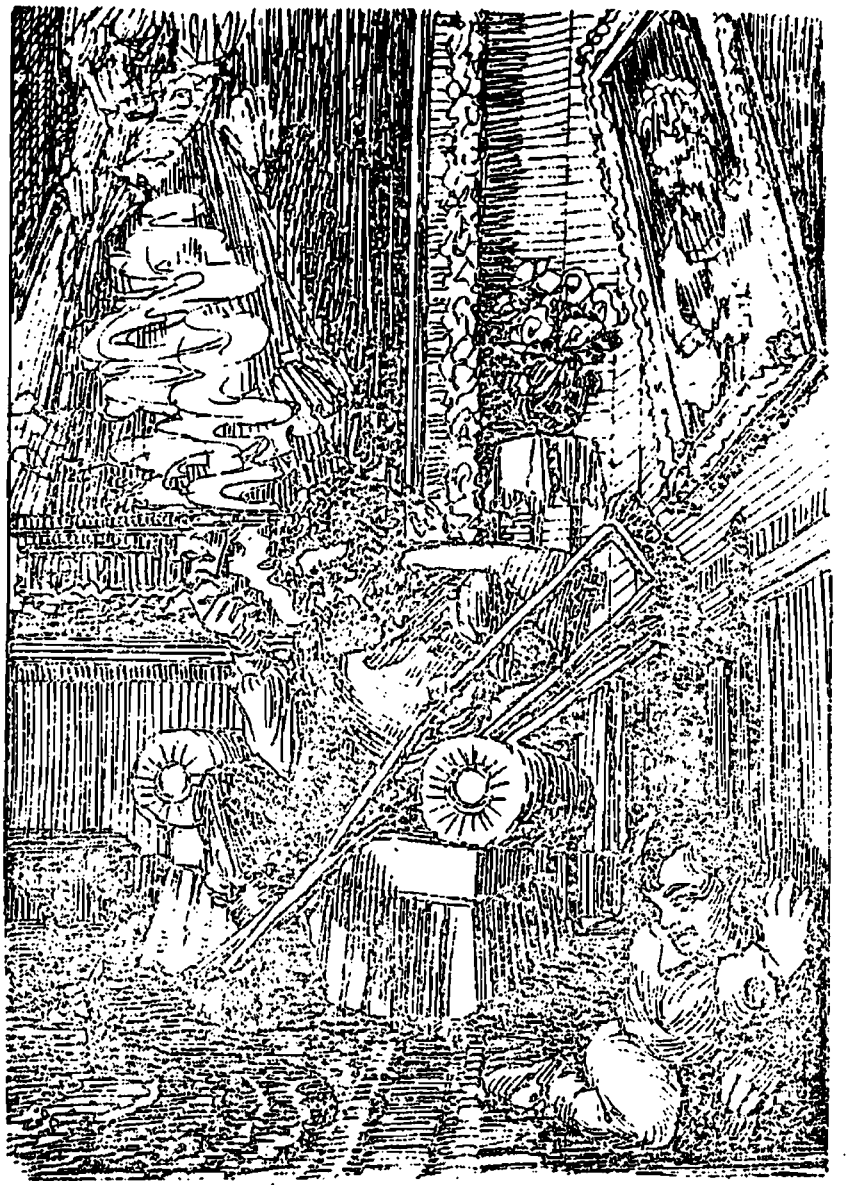

وكان الطفل يحبو بحرية وانطلاق

المجهول فى حذر ويقظة ، وحينئذ كانت تعبر تقاسيم وجهه عن توتر داخلى ، كما لو كان « ينظر » باطراف اصابعه .

وكان ذا طبيعة « يقظة » لاتكف عن الحركة ، ولكن الشهور أخذت تتلو الشهور ، وراح الاحساس بالعمى يزداد شيئا فشيئا فى مزاج الغلام الصغير الذى بدأت شخصيته فى التميز فقلت حدة حركاته بالتدريج ، وصار ينزوى فى الاركان القصية حيث يقضى الساعات الكاملة دون حركة ، وتبدو ملامحه جامدة كما لو كان ينصت الى شىء ما ، وكان اذا خلت الغرفة من الاشخاص وكفت الضوضاء المتتابعة عن شغل التفاته ، استغرق فى تأملاته ، على مايبدو وارتسمت فى الوقت نفسه علامات الدهشة والحيرة على محياه الجميل المفرط فى الجدية بالنسبة لسنه .

لم يخطىء العم مكسيم فى حدسه ، فقد كانت الغلبة لجهاز الطفل العصبى البالغ اقصى حدود الرقة والثراء ، وكان يبدو كما لو كان يجتهد فى استعادة احاسيسه الكاملة الى حد ما عن طريق الحساسية الشديدة التى يتميز بها سمعه ولمسه ، وكان العجب يعم الجميع أمام رقة ملمسه بوجه خاص ، بل كان يخيل لمن يلاحظه انه يدرك الالوان فى بعض الاحيان ، فكان اذا مس بيديه قطعا من النسيج ذى الالوان الفاقعة ، توقفت عليه اصابعه الرقيقة وقتا طويلا وانعكس على وجهه الاهتمام الشديد ، ومع ذلك فقد تبين بمرور الزمن ان حساسيته تنمو وتتطور فى المجال السمعى بوجه خاص .

ولم يلبث ان عرف غرف البيت جميعها تمام المعرفة تبعا للضوضاء الخاصة بكل منها ، واصبح يميز مشية والديه ومشية الخدم وصرير الكرسى الذى يجلس عليه الخال العاجز والصليل الجاف المطرد الذى ينبعث من الخيط فى يد امه ورنة الساعة الرتيبة ، وفى بعض الاحيان كان يشنف سمعه ، وهو يحبو

بحذاء الحائط ، وينصت الى حركة خفيفة لايدركها الاخرون ، ثم تمتد يده الصغيرة فى الهواء نحو ذبابة تسير على الجدار ، وحينما تتطـاير الحشرة مذعورة يترجم وجهه عن الحـيرة والقلق اللذين يبدوان عليه فى مثل هذه الاحوال ، فلم يكن فى مقدوره ان يفسر هذا الاختفاء الفامض للذبابة ، وبعد ذلك كان وجهه يحتفظ فى مثل هذه الاحوال بطابع الاهتمام الشعورى ، فكان يدير وجهه نحو الجهة التى طارت فيها الذبابة ، ذلك ان سمعه البالغ أقصى حدود الرقة كان يدرك طنين أجنحة الذبابة فى الهواء .

كان الكون الوامض المتحرك الهادر من حوله ينفـذ الى رأسه الصغير فى صورة اصوات الى اكبر حد ، وفى هذه الصورة على وجه التحديد كانت تتشكل تصوراته ، وكان التفاته الى الاصوات بوجه خاص هو الذى يتحكم فى تشكيل سحنـة وجهه ، فكان فكه الاسفل يتدلى قليلا على عنقه النحيل الطويل ويبدو حاجباه فى حالة من الحركة العجيبة ، وتطبع عينـاه الجميلتان العمياوان كل سماته بطابع صارم مؤثر فى آن واحد .

أخذ الشتاء الثالث من حياته فى الاحتضـار ، وبدأ الثاج يذوب فى الفناء وجداول الربيع تبعث صوت خريرها ، وكانت صحة الطفل منحرفة بعض الشىء فلم يغادر غرفته طـوال الشتاء كله تقريبا ، أما الان فقد تحسنت حالته كثيرا .

ورفعت ابواب النوافذ الاضافية ، واقتحم الربيع الغرفـة فى عنفوان صاخب ، وراحت الشمس الشابة تنظر ضاحكـة

الى الواح الزجاج التى غمرها النور ، واخذت اغصان الزان تتمايل ، وان كانت لاتزال عارية ، وظهرت الحقـــول فى الافق البعيد سوداء اللون تتخللها هنا وهناك بقع بيضاء من آثار الثلج الآخذ فى الذوبان ، وكان يلمح فى مواضع متفرقة منهـا بعض العشب النابت الذى لايكاد يدركه البصر ، كان كل مافى الوجود يتنفس على راحته ، وكل كائن يحس بتيار من القوى الجديدة يجرى فى كيانه .

أما الطفل الاعمى ، فانه لم يشعر بالربيع الا عن طـــريق الضوضاء والحركات المتدافعة من حوله ، فكان يسمع ميـاه الربيع تسيل وتتواثب فوق الحصى ، ثم تنتهى بالاختفاء فى بطن الارض الدافئة المنداة ، وأغصان الزان تتناجى وتتعانق خلف النوافذ ، ثم تقبل على الواح الزجاج فتقرعها برفق وحنان ، وتأخذ قطع الجليد التى فاجأها برد الصباح فتعلقت بســقف المنزل ، تأخذ تذوب تحت أشعة الشمس ، وتتســاقط فى الفرفة آلاف وآلاف من قطرات الماء ، فيسمع لسقوطها رنين متتابع خفيف كرنين الحصى الدقيق المتساقط من سافيـات الريح ، ومن حين لحين يسمع من خلال هــذا العجيج نداءات الكركى تنبعث من أعنة السماء وتتلاشى ببطء شديد كأنها تذوب فى الهواء .

وكانت الطبيعة تبدو على وجه الطفل فى صورة توتر اليم ، فكان يقرب ما بين حاجبيه فى مجهود ظاهر ، ويمد عنقه ، ويرهف اذنيه ، ويشعر بنوع من القلق لهذا الضجيج الذى لايفهم له معنى ، فيمد ذراعيه الصغيرتين باحثا عن أمه ثم يرتمى نحوها ويلتصق بصدرها .

وكانت الام تتساءل وتسأل من حولها : ولكن ما باله ؟

ويركز العم مكسيم كل انتباهه لفحص وجه الغلام الصغير ولكنه لايستطيع ان يعلل هذا الذعر غير المتوقع .

وتقرأ الام على وجه وليدها عبارات الدهشة والقلق التى لاتتغير ، فتحدس فى نفسها : أنه .. أنه لايستطيع أن يفهم .

والواقع ان الطفل كان قلقا : كان تارة يميز بعض الاصوات الجديدة . وتارة اخرى يدهش لعدم سماع الاصوات الجديدة التى كان قد بدأ يألفها ، ثم صمتت فجأة واختفت فى مكان ما .

واخيرا صمت عجيج الربيع ، وسار فعل الطبيعة فى مجراه المعتاد تحت أشعة الشمس اللاعجة ، وازداد انتشار الحياة شيئا فشيئا ، وتلاحقت خطا سيرها يوما بعد يوم كالقطار الذى يضاعف سرعته ، وشرعت أعواد العشب النابت تخضر فى المروج والهواء يمتلىء بالعبير المتصاعد من براعم السندر .

انعقد العزم على اخراج الطفل الى الحقول وشواطىء النهر المجاور .

أخذت الام بيد الغلام ، وسار بجانبها العم مكسيم يحجل على عكازتيه ، وانطلقت المجموعة الصغيرة فى شعب تل مجاور جففته الشمس والهواء الى الحد الذى يجعله صالحا للسير ، وكان التل المغطى ببساط من العشب الفض الغزير يقدم للناظر مشهدا رائعا يشرف على فضاء لاينتهى .

وكان وهج النهار يغشى أبصار الام والعم مكسيم ، وكانت اشعة الشمس تسفع وجهيهما ، ولكن ريح الربيع كانت تطرد الحرارة بجناحيها الخفيفين وتستبدل بها نوعا من النضارة اللذيذة ، وكان يسرى فى الهواء شىء ما تثمل منه النفوس الى حد الرخاوة والفتور .

أحست الام بيد الطفل الصغير تضغط على يدها، ولكن نشوة انفاس الربيع الهتها بعض الشيء عن هذه العلامة التى يعبر بها الصغار عن قلقهم ، فكانت تعب الهواء عبا فى رئتيها وتمشى فى طريقها قدما دون التفات ، ومع ذلك لو انها ادارت رأسها لرأت على وجه ابنها نوعا من التعبيرات غير المألوفة ، فكان يحملق فى الشمس بعينيه الواسعتين الفاغرتين وقد ملأتهما دهشة صامتة وانفرجت شفتاه ، وراح ينشق الهواء بجرعات متلاحقة كالسمكة لدى خروجها من الماء . وكان وجهه الحائر يعبر فى بعض الاحيان عن ذهول أليم يضيء ملامحه لحظة ثم يخلى مكانه لدهشة تشبه الرعب والحيرة من قريب ، ولم تكن غير عينيه اللتين تحتفظان بنظرتهما الجامدة الخاوية .

وما ان وصلوا الى التل حتى جلسوا ثلاثتهم . وحينما رفعت الام طفلها من فوق الارض لتهيىء له جلسة مريحة ، اندفع يتعلق بثوبها ، كما لو كان يحس بان الارض تميد من تحته ويخشى السقوط . ولم تلمح الام فى هذه المرة ايضا حركة القلق لدى الاعمى ، لانها كانت حينئذ مستغرقة بكليتها فى اللوحة الرائعة التى يقدمها لهم الربيع .

كانت ساعة الظهيرة ، والشمس تسبح بلطف فى السماء الزرقاء . وكانوا ينظرون من حيث يجلسون فوق التل ، فيرون النهر الجائش يمتد تحت بصرهم ، فقد تخلص من كتل الجليد التى كان يحملها ، ولم يبق منها الا قطع صغيرة ترى من حين لحين كالبقع البيضاء تتابع تيار الماء وتذوب فيه . كما كانت هناك سحب صغيرة تنعكس على صفحته وتنعكس معها فيه السماء فى وضع مقلوب ، وتبدو كما لو كانت تسبح متمهلة فى أعماقه ، ثم تختفى شيئا فشيئا وكأنها قد ذابت كما تذوب قطع الجليد . وفى بعض الاحيان كانت تمر ريح خفيفة على الماء المتوهج تحت أشعة الشمس فتطبع وجهه بشبكة من الغضون . وفى الضفة الاخرى من النهر وعلى مقربة من شاطئه

كانت تترامى الحقول السوداء ، تلك الحقول التى يتصاعد منها دخان ينشر غلالة رقيقة متحركة على الاكواخ البعيدة المغطاة بالقش وعلى خط الغابات الطويل الضارب الى الزرقة ، وهكذا بدأت الارض كأنها تتنفس وترسل الى السماء دوامات من البخور .

كانت الطبيعة تمتد فى كل الارجاء كأنها معبد فى يوم وقفة العيد . ولكنها لم تكن بالنسبة للاعمى الا ليلا شاسعا يضطرب بصورة غير معتادة ويتحرك دون انقطاع ويزمجر ويصلصل ويقترب منه . وكانت الخواطر الغريبة المجهولة تنهال عليه من كل جانب ، فيخفق قلبه الصغير تحت تيارها خفقانا أليما .

وما ان وقعت الاشعة الرقيقة على وجهه وبعثت الحرارة فى بشرته الرقيقة حتى ادار عينيه للشمس بصورة غريزية اذ احس انها المركز الذى يتجه نحوه كل مايحيط به ، فلم يكن هناك بالنسبة للطفل ارجاء بعيدة يتصاعد منها البخار ولا قبة زرقاء ولا آفاق شاسعة ، وانما كان يشعر فقط بأن شيئا ماديا حارا كلثمة التدليل ، يمس وجهه مسا رقيقا ، ثم يحس أن شيئا آخر نديا خفيفا ، ولكنه مع ذلك أقل خفة من شعاع الشمس ، يشيع فى ذلك الشىء المادى تيارا من النضارة الرصينة .

وكان الطفل متعودا فى البيت على الانتقال بكل حرية والشعور بالفراغ من حوله ، اما هنا فقد وجد نفسه تحت تأثير موجات متغيرة غريبة الاطوار تبدو أحيانا عذبة لطيفة وتارة أخرى تبدو مثيرة ، وسرعان ما تبددت لثمات الشمس الحارة امام النسيم العابر ، وشعر الطفل بتيار من الهواء يصفر فى أذنيه ويلف وجهه وصدغيه ورأسه حتى العنق ، ويدور حوله كأنه يحاول انتزاعه وحمله الى مكان ما من الفضاء الذى لايراه ، وهو فى هذه الاثناء لايكف عن هدهدته واغراقه فى عالم النسيان

الوحش ، وحينئذ اخذت يد الغلام تشد بقوة على يد امه ، وخار قلبه كما لو كان على وشك التوقف عن الخفقان .

ولما أجلس على الارض بدا عليه شيء من الهدوء ، وبالرغم من هذا الاحساس الغريب الذى هز كيانه كله ، بدأ الان يميز بين الاصوات . واستمرت الموجات العذبة الدافئة فى دورانها العنيف ، وكان يخيل للطفل انها تنفذ الى داخل جسمه ، لان ضربات دمه الثائر كانت تبطىء او تسرع تبعا لحركة هـــذه الامواج ولكنها الان تحمل اليه تفريدة متميزة لقبرة ، أو حفيفا مكتوما لشجرة مخضرة شابة من أشجار السندر أو خرير النهر الخافت الذى لايكاد يسمع ، ومن حين لآخر يمر طائر السنونو بالقرب منه فيسمع حفيف جناحيه وهو يحوم فى الهواء يرسم الدوائر وأشباه الدوائر ويختلط هذا الحفيف بطنين البعوض المتطاير فى الهواء ، وفى بعض الاحيان يسمع من خلال هذه الضوضاء كلها صيحة مسترسلة حزينة يرسلها أحـــد الفلاحين الذين يعملون فى السهل ليستحث بها ثيرانه .

لم يكن فى استطاعة الطفل ان يفهم كل هذه الاصـــداء وكل هذه الاصوات ، لم يكن فى استطاعته أن يجمعها وينسق بينها . وكأنها كانت تنفذ الى رأسه الصغير القائم فتهوى فى القاع الواحدة بعد الاخرى ، وتكون تارة عذبة مبهمة وتارة اخرى رنانة صاخبة وفى بعض الاحيان كانت تتراكم كلها فى ان واحد معا ، وتختلط لتكون نشازا كريها غير قابل للفهم ، وكانت الريح التى تهب من السهل لاتكف عن الصفير فى أذنى الطفل ، وكان يخيل له ان الموجات تجرى باسرع من ذى قبل وان ضوضاءها تطفى الان على كل ماعداها من ضروب الضوضاء التى اصبحت تبـــدو حينئذ كانها تأتى من عالم اخر او كانها ذكريات الامس . وكان الاعمى يشعر باحساس من الفتور المثير يخترق صدره كلما زادت الاصوات صخبا ، وكانت تبدو على وجهـــه نوبات من الجذب تتكرر بصورة منتظمة ، فتارة تغلق عيناه ، وتارة تفتحان ويتحرك حاجباه حركات تنم عن القلق ، وتعبر كل ملامحه عن

تساؤل صامت ومجهود فكرى وخيال أليم . ذلك ان وجدانه الذى لازال ضعيفا بدأ ينهار تحت وطأة الاحاسيس الجديدة التى يفيض بها . فكان يحاول الصراع ضد الخواطر التى تغير عليه من كل جانب ويريد ان يقاومها وينسقها لكى يتغلب عليها ويقهرها . ولكن هذا العمل كان اثقل مما يتحمله مخ الطفل ، ذلك المخ الموحش الذى تنقصه التصورات البصرية لهذه العملية .

كانت الاصوات تنهال عليه متلاحقة مفرطة فى التنوع ، مسرفة فى الصخب ، وكانت حدة الموجات التى تزحف على الطفل فى تزايد مستمر ، لانها كانت تصدر عن غواهب قاصفة لتختفى فى ليل دامس مثلها ،لكى تخلى مكانها لموجات جديدة ، أعنى لاصوات جديدة . وكانت هذه الامواج تؤرجحه ذات اليمين وذات اليسار وتحمله الى أعلى بسرعة متزايدة وفى كل مرة الى مستوى أعلى مما فى المرة السابقة ، وتدفعه فى كل ذلك دفعا يسبب له أشد الالم . وبعد ذلك انطلقت صرخة بشرية اخرى طويلة حزينة ومرقت كالسهم فوق هذه الكتلة المختلطة من الاصوات الآخذة فى التلاشى ، ثم سكت كل شىء فجأة .

أن الطفل أنة خافتة ثم انبطح فوق العشب فالتفتت الام نحوه واطلقت صرخة مذعورة ، كان الفلام شاحب الوجه ممددا فوق العشب فى حالة اغماء شديد .

ارتاع العم مكسيم لهذا الطارىء اشد ارتياع . وكان منذ زمن ما قد عمل على جمع الكتب التى تبحث فى وظائف الاعضاء

وعلم النفس والتربية ، وانكب بمجهوده المعهود على دراسة كل ما يزودنا به العلم عن تدرج نفس الطفل ونموها الغامض العجيب .

وكانت هذه الدراسة تستغرق اهتمامه شيئا فشيئا ، وهذا هو السبب فى ان الافكار السوداء المتصلة بعاهته ، والعجز عن الكفاح من أجل الوجود ، والخواطر المرة حول « الدودة التى تزحف فى التراب » هذا هو السبب فى أن هذه الافكار وما أشبهها بخرت من الرأس المربع الذى تحمله هامة المحارب العجوز ، وحلت محلها افكار اخرى كانت ثمرة تفكير طويل ، بل كانت من حين لحين توقظ بعض الاحلام الضاحكة فى قلبه الفانى . وقد اقتنع العم مكسيم أن الطبيعة التى حرمت الطفل النظر لم تبخسه حقه من الحواس الاخرى . اذ انه كان يجيب على جميع الانطباعات الخارجية التى تدخل فى نطاق مواهبه بقوة وكمال يسترعيان النظر ، فبدأ العم مكسيم يعتقد أنه قدر له أن ينمى المواهب الطبيعية للطفل ، وان يسخر مجهوده وعقله وتأثيره للتعويض عما جاءت به المقادير وأن يستعيض عن نفسه فى الكفاح من أجل أنبل الغايات بهذا المجند الجديد الذى لم يكن ليعول عليه أحد لولا تدخله هو ، ذلك المشوه المسكين .

كان الجندى الفاريبلدى العجوز يقول فى نفسه « من يدرى! فقد يستطيع المرء ان يكافح بغير الحراب والسيوف » ومن الممكن لهذا الكائن الذى اثخنته الحياة ظلما بجراحها أن يقوم يوما بشهر سلاح فى متناول يده ليدافع عن اولئك المساكين الذين جرحتهم الحياة كما جرحته ، وحينئذ يحق لى ، انا الجندى المشوه العجوز الا اعتبر نفسى كلا على هذا العالم .. »

لم يكن ذوو التفكير الحر فى ذلك العصر ، وحتى اكثرهم تقدما يخلون من تلك الخرافة ، وهى ان الكون تحكمه « مقاصد الطبيعة الخفية » ولذلك كان العم مكسيم الذى راح يتابع نمو

الطفل عن كثب فيراه يكشف كل يوم عن مواهب غير معتادة ، قد اقتنع نهائيا بان عمى الطفل هو احد هذه « المقاصد الخفية » .

« محروم من اجل جميع التعساء » كان هذا هو الوصف الذى اطلقه العم مكسيم منذ اللحظة الاولى على تلميذه .

ظل الطفل بضعة أيام فى حالة ذهول بعد أول نزهة له فى الربيع ، فكان أحيانا يرى مضطجعا فى فراشه صامتا دون حراك واحيانا يرى مضطربا يتمتم بكلمات غير مفهومة ويرهف سمعه لكل صوت . وكان مظهر الدهشة لاينفك عن وجهه ، حتى كانت الام الشابة تقول فى نفسها :

لعمرى : انه يبدو كما لو كان يسعى الى فهم شىء ما ، ولكنه لايستطيع الوصول الى مايريد .

وكان العم مكسيم مشغول البال يهز رأسه .. فقد ادرك ان افعاء الطفل وانفعاله الغريب يرجعان الى غزارة الخواطر ولذا قرر ألا يسمح لهذه الخواطر بالوصول الى الطفل الناقه الا بالتدريج والا يفتح لها الطريق الا فرادى . واغلقت نوافذ الغرفة التى يضطجع فيها المريض . وبعد ذلك كانت تفتح بالتدريج لفترة ما كلماتقدم به الشفاء ، كما كان يسمح له بالمسير فى الغرفة والخروج الى سلم الشرفة والى الفناء والحديقة . وكان كلما بدت على وجهه علامات القلق سارعت امه فشرحت له طبيعة الاصوات التى ادهشته .. فتقول أمه :

هذا بوق الراعى الذى يطوف بغنمه هنالك خلف الغابة وهذا صوت الكروان بين صياح العصافير ... اما هذا فهو اللقلق يصيح فوق عجلته (١) لقد آب منذ أيام من أقطار بعيدة وهاهو ذا الان يستقر فى مأواه القديم .

---

(١) اعتاد الاهالى فى أوكرانيا وبولونيا أن يغرسوا للقالق اعمدةعاليةويثبتوا على قمتها عجلات قديمة حيث يأتى اللقلق ويبنى عشه عليها .

أم الموسيقى حزينة يواسيها أخيها مكسيم

وكان الطفل يدير نحو امه وجها مشرقا من فرط العرفان بالجميل ويتناول يدها ويحرك رأسه ، وهو مستمر فى ارهاف سمعه بصورة يبدو فيها التروى والفهم .

بدأ الطفل يستعلم عن كل مايسترعى انتباهه ، وكانت أمه، أو خاله مكسيم فى معظم الاحيان ، يسميان له الاشياء والكائنات التى تعلن عن نفسها بهذا الصوت او ذاك . وكانت ايضاحات الام اكثر حيوية وتصويرا . فكانت اشد اثرا فى نفس الطفل وفى بعض الاحيان كان هذا الاثر شديد الالم . فكانت الام ترى وعيناها مفعمتان بالهم والشكوى التى لاراد لها ، وتحاول بكل جهدها أن تعطى صغيرها فكرة عن الاشكال والالوان . وكان الطفل يركز كل انتباهه ويقطب حاجبيه بل كان جبينه الصافى يمتلىء بالغضون .

واغلب الظن ان رأسه الحدث الصغير كان يضطلع بعمل مفرط بالنسبة اليه فكان خياله المعتم يتخبط ويجتهد فى ان يخلق لنفسه تصورا جديدا من معطيات غير مباشرة ، ولكنه لم يكن يوفق فى مسعاه . وفى هذه الحال كان العم مكسيم — هذا الجندى العجوز — اذا ما رأى عينى الام مغرورقتين بالدموع ووجه الطفل شاحبا تحت وطأة المجهود ، تدخل فى الحديث ، ونحى أخته وبدأ شروحا لايستخدم فيها غير المعانى الخاصة بالمكان أو الصوت بقدر الامكان . وحينئذ كان يزول التوتر عن وجه الاعمى .

وكان الطفل يسمع طائر الكركى يدق دقة فوق العمود ، فيسأل عن حاله ويقول : ماشكله اذن ؟ هل هو ضخم ؟

وفى هذه الحال كان يفتح ذراعيه ، ويفعل ذلك دائما كلما وجه سؤالا من هذا القبيل ، وكان العم مكسيم يعين له اللحظة التى تصل اليها فرجة ذراعيه الى الحجم المطلوب ، فاذا فتح ذراعيه الصغيرتين حتى نهاية حدهما ، قال له أستاذه :

كلا . . كلا يابنى ، انه اضخم من ذلك بكثير . . فلو اننا اتينا به ووضعناه على أرض الغرفة لوصل ارتفاعه الى مسند الكرسى . أفهمت ؟

ويجيب الطفل بلهجة المتأمل : اذن فهو ضخم جـــدا ، والكروان ، هل هو هكذا ؟ يقول ذلك وهولايكاد يفرج مابين يديه الصغيرتين المتقاربة أحداهما من الاخرى .

نعم : هذا هو حجم الكروان بالضبط .. ولكن الطيور الكبيرة لا تحسن التغريد كالطيور الصغيرة أبدا .. والكروان حين يغنى يحاول ان يدخل السرور على جميع النفوس ، اما الكركى فانه طائر وقور ، يقف فى عشه على قدم واحدة ويقضى وقته كله فى النظر فيما حوله ، كالسـيد الصارم الذى يراقب عماله ويعنفهم بأعلى صوته دون ان يعبأ باسماع صوته الاجش الى الجيران واقلاقهم .

وكان الطفل يضحك لدى سماع هذه الاوصاف ، وينسى لفترة قصيرة ، تلك الجهود الشاقة التى بذلها لكى يفهم ماتقص عليه أمه . ولكن هذه القصص كانت أشد من غيرها اخذا بلبه ، ولذا كان يفضل الالتجاء الى امـــه على الالتجاء ألى العم مكسيم .

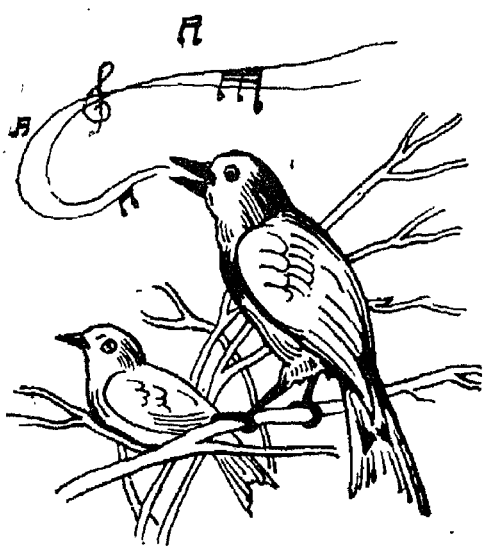

# الفصل الثانى

أخذ مخ الطفل المعتم يزداد ثراء ببعض المعانى الجديدة . وراح ينفذ شيئا فشيئا فى اغوار الطبيعة المحيطة به بفضل سمعه المرهف الى اقصى حد . أما فوقه وما حوله فكان الليل السميك الحالك دائما وكانت هذه الظلمات تخيم على مخه ، وبالرغم من انها كانت كفيلة بكتم انفاسه منذ اليوم الاول لميلاده وانه كما يبدو ، كان قد اعتاد نكبته ، فان طبيعته كانت تحاول دون انقطاع ان يرفع عنها هذا الحجاب الكثيف ، وكانه يصدر فى ذلك عن غريزة أعلى ، ولم تكن هذه الوثبات غير الشعورية التى يندفع بها الطفل نحو النور المجهول تغادره قط . ولم تكن الايام تزيد وجهه الا تعبيرا عما يبذل من مجهود غامض اليم .

ومع ذلك لم تكن حياته هو الاخر تخلو من لحظات المرح الصافى وأوقات الحبور المنطلق التى يعرفها الاطفال ، وكان يحدث له ذلك بوجه خاص حينما تتحول الخواطر الخارجية التى فى متناوله الى احاسيس جديدة قوية تطلعه على ظواهر جديدة للعالم غير المرئى . فالطبيعة العظيمة القادرة لم تكن مغلقة بالنسبة اليه كل الاغلاق . ومن ذلك أنه أخذ ذات يوم الى صخرة مشرفة على النهر ، فكان ينصت بخشوع ووقار الى التعانق العذب بين الامواج الصغيرة تحت قدميه وكان قلبه

يخفق من فرط التأثر وهو يتعلق بثوب أمه ويرهف اذنه الى انحدار الحصى الصغير الذى تثيره قدماه فينهـار فى الماء ، ومنذ ذلك الحين أخذ يتمثل العمق عن طريق الخرير الخفيف الذى يحدثه الماء فى احتكاكه باحدى الصخور أو الصوت المذعورالذى يسمع عندما تنهار صغار الحصى فى الماء .

كان الفضاء يرن فى اذنيه كأغنية تتلاشى . ولكن حينماكان رعد الربيع يتدحرج عبر السماء بقرقعته المعهودة فيملاالفضاء بضوضائه ثم يختفى خلف السحب بدوى مفيظ ، كان الطفل الاعمى ينصت الى هذا الصوت بخوف وخشوع وحينئذ يأخذ قلبه فى التمدد وتطرأ فى رأسه فكرة رهيبة ، وهى فكرة الفضاء السماوى الشاسع .

وهكذا كان الصوت هو الطريق الرئيسى . الطريق المباشر الذى يصله بالعالم الخارجى ، اما الانطباعات الاخرى فلم تكن الا مكملة لانطباعات السمع التى كانت تدور حـــولها كل تصوراته .

وكان يحدث أحيانا فى عصر يوم قائظ أن يصمت كل شىء وتنقطع حركة البشر وتلون الطبيعة بذلك النوع من السكون الذى لايحس فيه الانسان الا بتيار القوى الحيوية الصامتغير المنقطع . وحينئذ كان ينطق وجه الغلام الصغير بنوع خاص من التعبير . فيبدو كما لو كانت هناك أصوات لايستطيع ان يدرك لحنها غيره ، تصعد من اعماق نفسه تحت تأثير السكون المحيط به فيأخذ فى الانصات اليها فى خشوع عميق . ولو نظر اليه المرء فى هذه اللحظات لظن ان هناك فكرة ناشئة لم تتحدد بعد قد أخذت تهتز فى قلبه كاللحن الغامض .

بدأ العام الخامس من عمره . وكان يبدو ضعيفا نحيلا . ولكن ذلك لم يمنعه من المشى ، بل الجرى فى أنحاء البيت ، ولو تأتى لشخص أجنبى أن يراه يجـول فى الغرفات بخطا ثابتـة ويدور بالضبط فى اللفتات التى يجب ان يدور فيها ويبحث عن الاشياء التى يحتاج اليها ثم لايخطىء فى مكان واحد منها ، ما خطر بباله قط انه امام طفل أعمى بل لظن انه امام طفل مستجمع لمشاعره بشكل غريب ، تشير عيناه الى الاستغراق فى التفكير العميق كأنهما تتأملان شيئا بعيدا عنهما . ولكن الفلام لم يكن ينتقل فى الفناء بهذه السهولة . فكان يضطر الى الاستعانة بعصا يقرع بها الارض التى امامه قرعا خفيفا . اما اذا لم يجد عصا ، فانه كان يفضل ان يحبو على الارض ويتحسس الاشياء التى يجدها فى طريقه بكل دقة .

كان يوم صحو من ايام الصيف . وكان العم مكسيم يجلس فى الحديقة . أما الوالد فكان لايزال مشغولا فى مكان ما بالحقل وكان كل شيء ساكنا فى الفناء وفيما حول الفناء . وأخـــذت القرية تستسلم للنوم . وكذلك لم تكن تسمع فى المطبخ اصوات عمال العزبة ولاصوت الخدم . وكان الطفل قد وضع فى فراشه منذ نصف ساعة او حوالى ذلك .

بدأ الكرى يداعبه ، وقد كانت عذوبة هذه الساعة المتأخرة ترتبط فى نفسـه منـذ زمن ما ، بنوع غريب من الاستحضار الذاكرى . وبطبيعة الحال لم يكن فى وسعه أن يرى فى السماء

الزرقاء وهى تسير نحو الدكنة ، او أعالى الاشجار السوداءوهى تتأرجح فوق الافق الازرق الذى تزينه النجوم ، او سقوف القش التى تظل المبانى المحيطة بالفناء وقد زادها الليل عبوسا أو الظلمة الزرقاء المختلطة بخيوط القمر الذهبية وهى تلف الارض بردائها ، ولكنه لم يكن ينام منذ ايام الا تحت سيطرة انطباع غريب أخاذ لم يتأت له أن يفسره لنفسه فى صباح اليوم التالى .

واوشك النوم ان يرخى سدوله على شعور الطفل ،وحفيف أشجار الزان الغامض ان يعتصم بسكونه التام ، وبدا الطفل نفسه يعجز عن التمييز بين نباح الكلاب الذى يتجاوب بعيدا فى أرجاء القرية ، وتغريد العندليب فى الضفة الاخرى من النهر ، وذلك الرنين المقبض المنبعث من جلاجل الخيل التى ترعى فى المروج القريبة ، فى الوقت الذى أخذت فيه كل هذه الاصوات المنعزلة تمحى وتتلاشى فى فجاج اللانهائية ، خيل للطفل انها قد ذابت كلها فى لحن مؤتلف ودخلت عليه الحجرة من نافذتها وراحت تحوم طويلا حول فراشه وغمرته فى حلم لذيذ . كان هذا يحدث له فى كل ليلة ، فيستيقظ فى صبيحة اليوم التالى وكله حنان وخشوع ، ويسأل امه قائلا : يا أمى ، هذا الذى كان .. بالامس ؟ قولى لى ، ما هذا الذى كان ؟ ولكن الام لم تكن تعرف ما يعنى وتعتقد ان الامر يدور حول احلام تعكر صفو وليدها . فكانت تحمله الى فراشه وترسم عليه علامة الصليب ولا تغادر الغرفة حتى ينام . ولم تلاحظ عليه شيئا غريبا . ولكن الطفل كان فى كل صباح يكرر عليها السؤال نفسه ويكلمها عما ترك فى نفسه ذلك الاثر اللذيذ عشية اليوم السابق ويقول :

آه ، يا أمى الحبيبة ، ما اطيبه ! ما اطيبه ! فماذا اذن كان ذلك ؟

وفى ذات مساء عقدت العزم على البقاء زمنا أطول بالقرب من فراش الوليد حتى تكشف النقاب عن ذلك اللغز الغريب . فجلست على كرسى بجانب المهد الصغير ، تواصل تطريزها فى غير انتباه وتعير سمعها التنفس المنتظم الذى ينبعث من صدر الصغير بطرس . وفى الوقت الذى ظنت فيه ان الطفل قد استغرق فى نوم هادىء ، سمعت صوته العذب يرن فى جنح الظلام ويقول :

أمى ... هل أنت هنا يا أمى ؟

ـ نعم ، نعم ياعزيزى ..

ـ اذهبى ، ارجوك ان تذهبى .. انه خائف منك ، فلم يأت حتى الان . أوشكت أن أنام ، وهو لم يصل بعد ..

أحست الأم بشعور غريب وهى تنصت فى ذهول الى ذلك الهمس الشاكى المختلط بالنوم . اذ كان الطفل يكلمها عن احلامه بوثوق من يتكلم عن امور واقعية . ومع ذلك فقد نهضت من مكانها ، وانحنت على الطفل لتقبله ، وخرجت على أطراف اصابعها وفى عزمها أن تنتظر تحت نافذته التى تطل على الحديقة .

ولكن اللغز كشف عن نفسه الغطاء قبل أن تصل الى المكان الذى حددته لنفسها . فقد سمعت فجأة الحانا عذبة مؤتلفة تنبعث من مزمار مفرد فى حظيرة الخيل فتختلط بأصداء ليل الجنوب . وادركت من فورها ان هذه النغمات البسيطة فى

لحنها الساذج هى التى تعمل ، بالتقائها مع رهبة الليل ، على طبع ذكريات الطفل الليلة بذلك الطابع اللطيف .

وقفت المرأة الشابة فى مكانها وبقيت فيه دقيقة تنصت الى تلك التنغيمات الشجية لاحدى اغانى اكرانيا ، ثم ذهبت وقد هدأ روعها ، الى العم مكسيم الذى كان ينتظرها فى احد ممرات الحديقة المظلمة . وكانت تقول فى نفسها :

انه يلعب جيدا ، هذا الفتى يوخيم ، اكان يظن انسان ان توجد كل تلك العاطفة لدى فلاح خشن المظهر الى هذا الحد !

والواقع ان يوخيم كان يجيد العزف بل كان فى استطاعته ان يسوس الكمان الحرون بمهارة فائقة ، ويقال أنه لم يكن هناك من يفوقه فى عزف « لحن التوازن » او رقصة « كركوفيا الشيطانية » فى حانة القرية أيام الاحاد من كل أسبوع ، فكان يجلس على مقعد فى أحد الاركان ، وقد ضغط بذقنه الحليق على الكمان ودفع بقلنسوته الفرائية على قفاه فى زهو واضح ثم يشرع فى ضرب قوسه المعقوفة على الاوتار المشدودة شدا محكما ، وحينئذ لايقوى أحد ممن فى القاعة على الثبات فى مكانه وحتى اليهودى العجوز الاعور الذى اعتاد ان يصحب يوخيم على الكنترباس كان يستخفه الحماس الى أقصى حد . كان يبدو أن آلته الثقيلة الخرقاء توشك أن تنفجر من شدة الجهد الذى يبذله ليتابع بنفماته الثقيلة الغليظة اصوات كمان يوخيم الشادية الخفيفة الراقصة . اما يانكل العجوز نفسه الذى كانت كتفاه تقفزان لدى كل حركة ، فكان يطوح رأسه الاصلع المغطى بقلنسوة من النسيج الرقيق ويهتز على وقع انغام المقطوعة الحارة الطائشة . فماذا يمكن اذن أن يقال عن الناس الطيبين الذين تعودت سيقانهم منذ أقدم العصور التثنى والاهتزاز من تلقاء نفسها لدى أول نغمة من موسيقى الرقص ؟

ولكن يوخيم كان قد وقع فى حب فتاة اسمها ماريا تعمل

خادمة فى مزرعة احد الملاك المجاورين ، ومنذ ذلك الحين ، بدأ يكره الكمان الطروب ، لايدرى احد لماذا . ولكن يجب علينا ، انصافا للحقيقة ، أن نعترف بأن هذه الآلة لم تفقده شيئا فى الاستيلاء على قلب الفتاة التى فضلت وجه خادم امرد على وجه لاعب الكمان الاكرانى ذى الشوارب . ومنذ ذلك اليوم لم تسمع كمان يوخيم فى الحانه او فى سهرات القرية ، فعلقها على مسمار مثبت فى حائط الحظيرة ولم يلاحظ أن أوتار الآلة التى أحبها من كل قلبه فيما مضى تنكسر تباعا من فعل الرطوبة . ومع ذلك فان الاوتار كانت تحدث بتكسرها اصواتا شاكية مفعمة بالقلق المميت حتى ان الخيل نفسها كانت تصهل صهيل الرثاء وتدير رأسها نحو السيد الذى تحجر قلبه الى هذا الحد .

اراد يوخيم ان يستعيض عن الكمان ، فاشترى مزمارا خشبيا من احد الجبليين الذين يقطنون الكربات . ولعله كان يرى ان نغماته العذبة الحنون اكثر انطباقا على مصيره الحزين وانها تترجم خيرا من غيرها عن شجا قلبه المهجور .

ولكن المزمار الجبلى خيب رجاءه ، فقد أجرى عليه تجارب لاتحصى : قلم اطرافه وغمسه فى الماء وجففه تحت اشعة الشمس وبعد ذلك علقه فى السقف بخيط رفيع وتركه معرضا للريح ولكن ذهب ذلك كله عبثا ، ذلك ان مزمار الجبال لايصلح للقلب الاكرانى ، فكان يصفر حيث يجب ان يغرد ، وكان يصدر أصواتا وخازة متقطعة حيث يطلب منه يوخيم خفقات شاكية متوجعة . وبالاختصار لم يرد هذا المزمار ان يترجم عن مزاج سيده بأية حال ، فاشترى يوخيم عددا اخر من المزامير وفى نهاية الامر امتلات نفسه بالسخط على أولئك الجبليين المتجولين مقتنعا بانهم اعجز من ان يصنعوا مزمارا جيدا ، وصمم على أن يصنع لنفسه واحدا يطابق ذوقه ، وظل أياما عدة يهيم على وجهه فى الحقول والمستنقعات عابسا مقطبا ، لايرى بدغلا من

أشجار الصفصاف حتى يسارع اليه ليعجم غصونه كلهاويقتطع بعضها . وبطبيعة الحال لم يجد ضالته فى كل ذلك . فكان كلما خاب أمله فى مكان ذهب الى مكان أبعد منه ليواصل بحثه وحاجباه على حالهما من العبوس والتقطيب ، واخيرا وصل الى مكان تسير فيه مياه النهر بتكاسل وبطء شديدين ، حتى لايكاد التيار يقوى على تحريك زهور البشنين البيضاء الجاثمة على سطح الماء ، وكانت الريح لاتكاد تنفذ اليه بسبب اشجار الصفصاف الكثة المتكاثفة التى تقف خاشعة هادئة تنعكس ظلالها على مرآة المياه الوادعة العميقة .

شق يوخيم طريقه بين الشجيرات الملتفة ، وتوقف لبضع دقائق على شاطىء النهر ، وفجأة فهم انه سيجد هناك مايبحث عنه . فانفرجت اساريره وجهه واخرج من جيبه مدية مربوطة بسير من الجلد ، والقى نظرة عامة فاحصة على اشجار الصفصاف التى تولول من حوله ، ثم اتجه بخطا ثابتة نحو شجرة ممشوقة القد لدنة العود تتمايل فوق الشط الذى جعلته المياه نخرا . فنقر فيها بأصبعه ونظر الى جذعها المرن بارتياح وأرهف أذنه لسماع حفيف اوراقها ثم هز رأسه وقال وهو يفيض بالسرور:

هذا بالضبط ما كنت ابحث عنه ، والقى فى الماء بجميع الغصون التى كان قد قطعها من قبل .

وقد حقق الزمار رغبته كاملة فجفف قطعة الصفصاف وافرغ لبها بعود من الحديد سخنه حتى الاحمرار ، ثم نحت فيها ستة ثقوب مستديرة وأضاف اليها سادسا فى اتجاه منحرف وسد أحد طرفيها بسداد من الخشب بعد أن صنع فيه شقا صغيرا . وبعد ذلك علق الآلة بطرف خيط وتركها تتأرجح فى الشمس والريح لمدة اسبوع . ثم سواها جيدا وصقلها بقطعة من ورق الصنفرة ومسحها مسحا دقيقا بقطعة من نسيج الصوف . وكان ظاهر المزمار مستديرا تام الاستدارة وفى وسطه ثلاثة مسطحات متساوية زينها يوخيم بزخارف

معقدة حفرها بنصل صغير معقوف من الحديد بعد ان حماه فى النار الى درجة الاحمرار وبعد ان جرب على المزمار بضع نغمات هز رأسه فى تأثر ظاهر وتمتمت شفتاه بكلمات تدل على الرضا وسارع باخفائه فى ركن قريب من فراشه . ولكنه ابى ان يقوم بتجربته الموسيقية الاولى فى جو النهار المضطرب وما كاد الليل يرخى سدوله حتى كانت تنبعث من الحظيرة الحان شجية متنوعة النغمات بالعذوبة الحلوة والخيال الحالم الذى يشمل النفوس . ورضى يوخيم كل الرضا عن مزماره الذى اصبح كأنه جزء منه ، فكان يخيل للسامع أن الالحان تنبعث من قلبه الذى يفيض حرارة وحنانا ، لان الناى العجيب كان يعبر عن اخفى عواطفه وادق نبرات حزنه ، وكانت النغمات النابضة تتطاير بعضها تلو البعض فى ظلام الليل الذى يصغى اليها بانتباه .

الان اصبح يوخيم عاشقا لنايه ، فراحا يحتفلان معا بسهر غسلهما ، وكان فى النهار يقوم باعماله فى خدمة الحظيرة على خير وجه . فكان يقود الخيل الى حوض الماء ويعلقها فى العربة ليخرج بربة البيت او بالعم مكسيم فى احدى النزهات ومن حين لحين كان يمر بالقرية المجاورة التى تقطنها ماريا القاسية فيشعر بنوع من الضيق يقبض قلبه ، ولكن اقتراب المساء كان ينسيه كل شىء ، وحتى صورة فتاته ذات الحواجب السوداء الجميلة كانت تختفى تحت حجاب من الضباب . كانت هذه الصورة تفقد واقعيتها المحرقة وتظهر له شبحا غامضا لايدرك

الطفل يتسلل الى كوخ الفلاح وهو يعزف على الناى

الا بقدر ما يطبع نغمات الناى بطابعه الحالم الحزين .

فى هذا المساء كان يوخيم يضطجع فى الحظيرة كعـــادته ؛ وكانت نفسه مفعمة بروعة الموسيقى ، ففاضت بالالحان الشجية وبينما هو فى أروع لحظاته واشجاها ، شـــعر بيـــد صـــغيرة تمر باصابعها الخفيفة على وجهه مرا سريعا ، وتنزلق على يديه وتتحسس المزمار على عجل . وفى الوقت نفسه أحس بالقرب منه نفسا قصيرا متلاحقا يكشف عن انفعال شديد .

ظن يوخيم انه وقع ضحية لكيد ساحر ، فرسم على نفسه علامة الصليب ، وصاح قائلا : «من الذى بعث بك الى ؟هل هو الشيطان الرجيم أو الاله الرحيم ؟ وذلك لانه أراد أن يتحقق : هل كان أمام روح خبيثة ؟ ولكن شعاعا من نور القمر كان قـــد دخل الحظيرة من بابها المفتوح فكشف له عن خطأ ظنه ، اذ رأى الصغير الاعمى يقف بجانب سريره ويمد يديه نحـــو يديه .

وبعد ذلك بنحو ساعة ذهبت الام لتلقى نظرة على صغيرها النائم ، بطرس ، فلم تجده فى فراشه . واعتراها الخوف لاول وهلة ، ولكن سرعان ما دلتهـــا غريزة الام على المـــكان الذى ينبغى أن تبحث عنه فيه . ولشد ما ارتبك يوخيم حينما توقف لحظة ليأخذ فيها نفسه ، فلمح سيدة البيت نفسها على باب الحظيرة . وكان من الواضح أنها لبثت هناك دقائق تنصت الى موسيقاه ، وتنظر الى طفلها متدثرا بعباءة يوخيم القصيرة وجالسا فوق سريره يوالى الانصات بنهم شديد الى الاغنية التى توقفت .

ومنذ ذلك المساء واظب الطفل على الذهاب الى الحظيرة . ولم يخطر بباله قط أن يرجو يوخيم فى ان يلعب له أثناء النهار . فقد وقر فى ذهنه أن اضطراب النهار وحركته يستبعدان كل امكان لابتكار هذه الالحان العذبة . ولكنه كان اذا جن الليـــل شعر بتلهف عصبى . ولم يكن لوجبة المساء فى نظره ، أى معنى الا انها علامة على اقتراب هذه اللحظة السعيدة . ولم تكن الام

التى لا تحب هذه الجلسات ، بحكم الغريزة ، لتستطيع منع صغيرها الحبيب من الذهاب لزيارة الموسيقار القروى وقضاء ساعتين فى الحظيرة قبل أن يأوى الى فراشه . واصبحت هذه الساعات بالنسبة للطفل الاعمى أسعد ساعات يومه . وكانت الام التى أكلت الغيرة قلبها تعرف جيدا أن خواطر المساء تشغل الطفل طوال نهار اليوم التالى . ولاحظت أن الغلام الصغير لم يعد يستجيب لملاطفاتها بالاندفاع السابق ، وانها اذا أجلسته فى حجرها وغمرته بقبلاتها ظل شارد الذهن فى غالب الاحيان وتذكر الاغنية التى عزفها له يوخيم مساء اليوم السابق .

وحينئذ تذكرت الام أنها تعلمت الموسيقى التى يعتبرها العرف من الفنون الكمالية البحتة ، وذلك فى أثناء دراستها فى مدرسة البنات الداخلية التى كانت تديرها السيدة رادتسكا فى كييف . والواقع أن ذكرياتها لم تكن جد مرضية لارتباطها بصورة الآنسة كلايس ، وهى معلمة المانية عانس عجفاء سوقية الطبع ، وبوجه خاص فى غاية القسوة . وكانت هذه الآنسة عصبية المزاج جديرة بأن تنتزع أصابع التلميذات من مواضعها لكى يعتدن المرونة الضرورية ، فنجحت نجاحا تاما فى قتل كل عاطفة موسيقية لدى تلميذاتها . ولم تكن هذه العاطفة الخجول تطيق مجرد النظر الى الآنسة كلايس التى كانت تفهم الطرق التربوية على نحو غريب . وهذا هو السبب فى ان «أناميخايلوفنا» لم تفكر مجرد تفكير فى استئناف تمارينها الموسيقية بعد أن أتمت دراستها وتزوجت . أما الآن فانها كلما سمعت اللاعب الاكرانى أحست بالرغم من شعورها بالغيرة ، أن قلبها يزداد تأثرا

بالموسيقى الحقيقية ورأت صورة الانسة الالمانيـــة تتلاشى من خيالها . والحت السيدة بوبلسكا فى رجاء زوجهـــا ان يوصى بارسال الة بيانو اليها من المدينة .

وكان السيد بوبلسكا زوجا مثاليا ، فأجابهـا بقوله : لك ماتشائين ياحبيبتى ولكنك واهمة . فانك لم تكونى قط ممن يتذوقون الموسيقى .

وفى اليوم نفسه بعث بالخطاب الى المدينة ، ولكن كان لابد لشراء البيانو وارساله الى الريف من اسبوعين او ثلاثة اسابيع على اقل تقدير .

وفى هذه الاثناء استمر النداء الشجى ينبعث من الحظيرة واستمر الطفل الاعمى يسارع الخطى اليها ، ولم يعد الان يطلب الاذن من أمه .

وكان شذا الاعشاب المجففة يختلط برائحةالحظيرةالخاصة ورائحة السيور الجلدية النفاذة . وكانت الخيل تعلك بقـايا الدريس التى تسخرجها من بين اسنانها فتسمع لها ضوضاء خفيفة . وكان حفيف اشجار الزان الخضر يصـل من الحديقة الى الحظيرة بكل وضـــوح ، حين يتوقف الزامر بعض الوقت ليأخذ نفسه . وهكذا كان الصفير بطرس ينصت فى جـو من السحر .

لم يكن الصفير يقاطع لاعب الناى قط أو ينبس بكلمـــة واحدة اثناء اللعب ولا يفعل ذلك الا حين يتوقف العازف من تلقاء نفسه وتمر دقيقتان او ثلاث دقائق ويحل الاستطلاع النهم الغريب محل النشوة الصامتة . ففى هذه الحال كانيميل على المزمار ويأخذه بيديه المرتعشتين ويحمله الى شفتيه . ولما كانت انفاسه تنقطع من شدة الانفعال فى هذه اللحظـــة فان النغمات الاولى كانت تخرج من نايه صماء مترددة . ولـكنه أنس الى الآلة البـدائية شيئا فشيئا ، وكان يوخيم يأخـــذ

باصابعه ويضعها على الثقوب ، وبالرغم من انه كان من العسير على يده الصغيرة أن تسد جميع هـذه الفتحات فانه سرعان ماتعود نغمات السـلم الموسيقى . وكان لكل نغمة فى ذهنـه طابعها الخاص ، وملامحها الخاصة . وأصبح يعرف أية النغمات تستقر فى هذا الثقب او ذلك ، وماذا عليه ان يفعل لاحداثها ، ومن حين لحين كانت اصابع الطفـل تتبع تنغيمات يوخيم البسيطة فتبدأ هى الاخرى بالتحرك تبعا للحن الاغنية . وصار يتصور النغمات متتابعة متراصة فى وضعها المعتاد تبعا لترتيبها التصاعدى أو « التنازلى » .

وأخيرا وصل البيانو من المدينة بعد ثلاثة اسابيع بالضبط وكان بطرس فى الفناء ينصت بكل حواسه الى العمال المنهمكين فى حمل «الموسيقى» الى البيت واغلب الظن أن الاداة كانت ثقيلة لان العربة كانت تقرقع لدى رفعه من فوقها كما كان الحمالون يئنون ولا يلقفون انفاسهم الا بشق الانفس . وحينما راحوا يتقدمون بخطا ثقيلة حذرة كان شىء ما غريب يطن ويزمجر ويتردد فوق رءوسهم فى كل خطوة يخطونها . وحينما وضعوا الآلة على ارض الصالون انبعث منها قصف اصم كما لو كانت تهدد احدا ما وهى فى أقصى حالات الغضب .

كل ذلك ترك فى الطفل أثرا يشبه الرعب جعله يحذر ذلك الضيف الجديد الشرير وان لم يكن من الاحيـاء ، فنزل الى الحديقة وهو لايتصور كيف توضع الاداة على اقدامها ولا كيف يتأتى للعامل المختص بشد الآلات الوترية الذى جاء من المدينة من أجل ذلك ، أن يلمس المشط ويشد الاوتار . ولما أصـبح

كل شيء على اتم استعداد ، اقبلت الام تدعو بطرس .

وحينئذ رأت انا ميخايلو ڤنا ان فى حوزتها هذا البيانو الذى خرج من تحت ايدى اعظم الاخصائيين فى فينا ، ارادت ان تحتفل مقدما بانتصارها على المزمار القروى الساذج . وكانت واثقة من ان الصفير بطرس سينسى منذ الآن حظيرة لاعب الناى وانها ستصبح هى وحدها منبعا لجميع أنواع السرور التى يتحرك لها قلب وليدها ، ونظرت بعينين ضاحكتين الى الطفل الذى دخل من باب الغرفة على استحياء يصحبه العم مكسيم ويوخيم الذى استأذن فى ان يسمع الموسيقى الاجنبية ثم توقف على الباب مضطربا خفيض العينين وخصلته الطويلة تتدلى على جبينه . اما العم مكسيم وبطرس فقد جلسا على الاريكة وانبرت أناميخايلو ڤنا فجأة تضرب على أزرار البيانو . لعبت قطعة كانت قد أجادت حفظها تحت ارشاد الانسة كلايس فى مدرسة السيدة رادتسكا . وكانت شيئا كثير الضوء معقدا بعض الشيء ، ويتطلب مرونة كبيرة فى الاصابع . . وكانت أنا ميخايلو ڤنا قد تلقت يوم الامتحان ، بفضل هذه القطعة سيلا منهمرا من المديح الذى كان موجها لاستاذتها بوجه خاص . والواقع أن أحدا لم يفهم منها شيئا على وجه التحديد ، ولكن البعض زعموا ان السيد بوبلسكى الذى لزم الصمت كان مأخوذا بسحر الانسة ماتسنكو طوال ربع الساعة الذى قضته الفتاة فى امتاع الحاضرين بهذه القطعة العسيرة جدا والآن لعبت بها السيدة الشابة من جديد ، وهى تأمل فى قرارة نفسها ان تنال بها نصرا آخر ، اذ انها كانت تسعى الى استعادة قلب ابنها الصغير الذى سحره مجرد مزمار اكرانى تافه .

ولكنها خابت فى مسعاها هذه المرة فلم يكن للاداة المقبلة من فينا من القدرة ما تثبت به ضد قطعة الصفصاف الاكرانية نعم ، لقد كان فى حوزة البيانو الاجنبى بعض وسائل الاغراء القوية . خشبه ثمين واوتاره من اجود الاصناف ، وصانعه استاذ من فينا وبه سجل ضخم من النغمات . ولكن المزمار

الاكرانى المتواضع كان له هو الآخر ، بعض المزايا التى تشفع له ، فهو هنا بين اهله وعشيرته ، فى موطنه وفى اطار الطبيعة الاكرانية المألوف .

وقبل ان يقطعه يوخيم بمديته ويحرق لبه بعود من الحديد المحمى الى حد الاحمرار ، كان يتمايل غير بعيد من مكانه الحالى فوق النهر الصغير الذى يعرفه الطفل جيدا . وكان يستمتع بلثمات الشمس الاكرانية التى نعم الطفل بدفئها ايضا ، وامالته ريح اكرانيا حتى رمقته عين لاعب الناى النفاذة يخفق فوق الشاطىء الذى جعلته المياه نخرا . وكان من العسير على الضيف الغريب أن يثبت أمام المزمار الصغير الساذج ، لان هذا الاخير كشف عن نفسه للطفل فى لحظة السنة العذبة ، وفى وسط سحر المساء المليء بالاسرار وحفيف اشجار الزان التى يلعب بها الكرى وذاك الازيز المألوف فى الطبيعة الاكرانية .

هذا الى ان السيدة بوبلسكا لم تكن لتقف على قدم المساواة مع يوخيم . نعم لاشك ان اصابعها الرقيقة اشد حياة واكثر مرونة ، واللحن الذى لعبت به أكثر تعقيدا وخصبا ، وان الآنسة كلايس قد عملت كل ما فى وسعها لتلقن تلميذتها كيف تسيطر على آلة معقدة كل التعقيد . ولكن يوخيم من جهة اخرى كان ذا حاسة موسيقية فطرية . وقد أحب وتألم ، فكان يبث حبه وحزنه الى العناصر التى عرفها منذ طفولته الاولى . فالطبيعة التى الفها كل الالف وضوضاء الغابة والحفيف العذب الذى يتصاعد من عشب الاستبس ، والاغنية العتيقة التى ولدت فى مسقط رأسه القريب الحالم والتى سمعها وهو فى مهده كل ذلك علمه الالحان الموغلة فى البساطة .

نعم ، لم يتيسر للاداة الواردة من فينا ان تنتصر على الناى الاكرانى . فلم تمض دقيقة واحدة من العزف حتى كان العم مكسيم يقرع الارض بعكازته قرعا عنيفا والتفتت أناميخايلوفنا فرأت وجه بطرس ينطق بالتعبير الذى كان ينطق به أثناء

أول نزهة له فى الربيع حينما سقط فوق العشب مغشيا عليه .

نظر يوخيم الى الفلام الصغير نظرة كلها اشفاق ، والقى على « الموسيقى الالمانية » نظرة مفعمة بالازدراء ، ثم انطلق وهو يثير ضوضاء حامية بحذائه الريفى الثقيل .

هذا الاخفاق كلف الام المسكينة كثيرا من الدموع ، واصابها بخزى شديد . فكيف يتأتى لها ، وهى السيدة يوبلسكا « ذات المحتد الاصيل » التى حظيت بالتقريظ من « جمهور مختار » أن تلاقى هذه الهزيمة القاسية ؟ ومن المنتصر يوخيم خادم الحظيرة البسيط ، ببراعته الساذجة ! ولذلك كانت كلما تذكرت نظرة الاشفاق والاستعلاء من قبل يوخيم بعد حفلتها الموسيقية الفاشلة ، صعد الدم فى وجهها من فرط الخزى ، وأصبحت تبغض هذا « الفلاح الحقير » من كل نفسها .

ومع ذلك فقد كانت كلما رات ابنها يفر الى الحظيرة فى كل مساء ، تفتح النافذة وتتكىء بذراعيها على قاعدتها وتنصت بنهم بالغ . وكانت تفعل ذلك فى بادىء الامر باحساس من الازدراء المختنق ، وتحاول بوجه خاص ان تتعقب النواحى المضحكة فى ذلك « الصفير الخالى من المعنى » ولكن ذلك « التعيق » لم يلبث أن سيطر على انتباهها ، وسحرها دون ان تدرى لماذا ، فراحت تتابع ألحان المزمار العذبة الحزينة بكل كيانها . ولما أنست من نفسها هذا الاحساس راحت تتساءل عن السر الذى يخلع عليها

تلك الجاذبية والسحر الغريبين . واستطاعت أن تفهم هذا السر بالتدريج بفضل تلك الليالى الزرقاء وظلال الغسق الغامضة والائتلاف الغريب بين الاغنية والطبيعة المحيطة .

وقالت فى نفسها بعد أن شعرت بدورها بالهزيمة والوقوع فى الاسار : نعم ، هناك فى هذه الموسيقى عاطفة خاصة كل الخصوص ، صادقة كل الصدق « هناك شعر عجيب لايمكن تحصيله فى كراسة موسيقية » .

وهذه هى الحقيقة فان سر هذا الشعر يكمن فى العلاقة الخفية التى بين الماضى الذى مات منذ زمن طويل وبين الطبيعة التى تتكلم دائما الى قلب الانسان ، الطبيعة الخالدة التى شهدت هذا الماضى . وكان هذا الفلاح الخشن ذو اليدين المفطاتين بالحراشيف والحذاء الفليظ يحمل فى نفسه ذلك الائتلاف ، ذلك الاحساس الحى بالطبيعة .

واعترفت أناميخايلوفنا بان كبرياء السيدة الاستقراطية الذى يسرى فى كيانها قد استسلم امام خادم الحظيرة ، ونسيت ثيابه الخشنة ورائحة القطران التى تصحبه دائما ، وبدأت تنظر من خلال الالحان العذبة التى تسمعها من الناى البدائى الى وجه يوخيم الوديع ، والتعبيرالحنون الذى تنطق به عيناه الشهباوان والابتسامة المملوءة فى آن واحد بالحياء والدعابة التى تحتجب تحت شاربيه الطويلين . واذا كانت حمرة الخجل لاتزال تصعد فى محياها وخديها من حين لحين ، فذلك لانها كانت تجد فى نفسها الصراع الدائر من اجل الاستحواذ على انتباه طفلها ، مع ذلك الفلاح فى حلبة واحدة ، وانها تقف معه على قدم المساواة وانه هو الذى انتصر فى نهاية الامر .

كانت اشجار الحديقة تهمس من فوق هامة المرأة الشابة والليل يشعل انواره فى السماء الشاسعة ذات الزرقة الداكنة ويغرق الارض بظلال زرقاء ، حينما اخذت اغانى يوخيم تنفذ الى نفسها بحزنها المتقد ، فراحت تستسلم شيئا فشيئا امام

سذاجة السر الذى ينطوى عليه ذلك الشعر البسيط الصافى الذى لاصنعة فيه .

نعم ، كان الفلاح يوخيم يستحوذ على هذه العاطفة الحية الصادقة ! وهى : أمن الممكن أن تكون محرومة منها ؟ كيف يمكننا اذن أن نفسر خفقان قلبها والضيق الذى يسرى فى كل كيانها ، وهذه الدموع التى تسيل من عينيها بالرغم منها ؟ .

ألا يعتبر من العواطف حبها الحار لطفلها المسكين الاعمى الذى يهجرها الى يوخيم ولا تعرف كيف تقدم اليه من المتع مثل ما يقدم اليه يوخيم ؟

كانت تتذكر دائما عبارات الالم التى ارتسمت على وجه ابنها وهى تعزف له ، وكانت الدموع المريرة تجرى مدرارة على خديها . وفى بعض الاحيان كانت توشك ان تختنق تحت تأثير الزفرات التى تطغى على أنفاسها .

يالها من أم مسكينة ! لقد اصبح عمى ابنها ، عاهة لها هى ، عاهة لايرجى لها شفاء . وكانت هذه العاهة تترجم عن نفسها بنوع من الحنان المرضى المسرف وبتلك العاطفة التى تستولى عليها جميعا وتربط بين قلبها المعنى وبين أقل ألم يصيب ابنها بآلاف من الوشائج غير المرئية . وهذا هو السبب فى ان ذلك التنافس الغريب مع لاعب الناى القروى الذى لم يكن ليحدث أكثر من غيظ يسير لدى اية أم أخرى ، أصبح بالنسبة اليها منبعا لآلام عنيفة لاتتناسب مع بواعثها .

مرت الايام تلو الايام دون ان تخفف عنها بعض ما بها ، ولكنها لم تكن عديمة الجدوى . فقد بدأت تشعر فى نفسها

بطوفان من الاحاسيس النابضة بشعر الموسيقى الذى كان يمتلك مشاعرها فى عزف يوخيم الى أقصى حد ، وفى بعض الاحيان كانت ترى نفسها مدفوعة بدافع مفاجىء وثقة جديدة بنفسها فتحاول المرة بعد المرة ان تذهب الى البيانو وتفتحه ، وفى باطنها رغبة ملحة فى أن تفرق صوت المزمار الخافت فى بحر من الانغام الصاخبة ، ولكن الحياء ونوعا من التردد الغامض كانا يحولان بينها وبين ماتريد . كانت تتذكر وجه ابنها المضطرب ونظرة الفلاح المستعلية فتتقد وجنتاها من الخجل فى ظلام الليل . فقنعت بان تمر بيدها على مشط البيانو بشىء من الرغبة الملحة الممزوجة باعلى درجات الخوف .

ومع ذلك فقد كان شعورها العميق يزداد يوما بعد يوم وكانت فى كل مساء تحاول الاستفادة من اللحظات التى يلعب فيها وليدها فى أحد الاروقة النائية أو يتنزه فى مكان ما ، فتقوم ببعض التمارين على البيانو . ولم تكن فى بادىء الامر راضية كل الرضا عن محاولاتها . وذلك أن يديها كانتا تعجزان عن التعبير عما تشعر به فى داخلها ، وكان يبدو لها ان أصوات الآلة غريبة عن حالتها النفسية الجديدة . ولكن هذه الحالة الجديدة اخذت شيئا فشيئا تعبر عن نفسها فى عزفها بقوة وسهولة متزايدتين . ومعنى ذلك أن دروس الفلاح قد آتت ثمارها ، ومن جهة أخرى كان حبها لطفلها وفهمها الدقيق لما يهفو اليه قلبه يساعدانها على الاستفادة من هذه الدروس بسرعة فائقة فهجرت المقطوعات الصاخبة المعقدة ، واصبح لايسمع فى المنزل بعد ان يخيم عليه غسق الليل الا بكاء الاغنية الاكرانية العذبة الغريبة السماة « دومكا » ، ذلك البكاء الذى كان يذوب له قلب السيدة الشابة رقة وحنانا .

وأخيرا أحست فى نفسها القوة الكافية للدخول فى صراع مفتوح صريح . ومنذ ذلك الحين نشأ نوع من التنافس بين القصر وحظيرة يوخيم . فكانت الالحان المؤتلفة تتطاير الى

القصر من الحظيرة الظليلة المغطاة بسقف من القش ، وكانت تقابلها فى الطريق الحان البيانو الشادية المنبعثة من نوافذ قصر السيادة المفتوحة على مصراعيها فتعكس ضوء القمر خلال اوراق الزان .

لم يرد الطفل ولا يوخيم فى بادىء الامر ان ينصتا الى « موسيقى السادة » التى كانا يسيئان الظن بها ، بل كان الفلام الكفيف يقطب مابين حاجبيه ويستحث يوخيم كلما رآه يتوقف ويقول له :

استمر ! هيا ، واصل العزف !

ولكن لم يمض يومان حتى كانت فترات الصمت هذه تتكاثر شيئا فشيئا . فكان يوخيم يضع مزماره جانبا ، ويرهف أذنه باهتمام متزايد . وكذلك بدأ الطفل ينصت بدوره وينسى ملاحقته لصديقه بطلب الاستمرار . وفى ذات مساء أطرق الفلاح قليلا وقد بدا عليه الاستغراق العميق . ثم انفرجت شفتاه عن هذه الكلمات : ما أطيبها من موسيقى ! ... هذه هى الحقيقة !

ثم نهض وعليه سمات الشرود والتأمل التى يتميز بها كل شخص ينصت بامعان ، وأخذ الفلام الصغير وانطلق به فى الحديقة صوب نافذة الصالون المفتوحة .

وكان يظن أن ربة البيت تعزف لمتعتها الخاصة ، دون أن تعيرهما أقل انتباه . ولكن أنا ميخايلوفنا كانت قد لاحظت فى فترات توقفها أن غريمها المزمار ، قد لاذ بالصمت ، فتحققت انتصارها ، وأحست بخفقات الفرح تتجاوب فى قلبها .

وفى الوقت نفسه اختفى من وجدانها كل ما كانت تشعر به من غيظ ضد يوخيم ، فقد كانت سعيدة ، وكانت تدرك تماما أنها تدين له بهذه السعادة . فهو الذى علمها كيف تسترد ابنها اليها ، وانها اذا كانت تستطيع منذ الآن ان تقدم لطفلها الحبيب كنوزا لا ينضب لها معين من الاحاسيس الجديدة ، فانه

يجب عليها هى ووليدها أن يعترفا بالفضل فى ذلك الى لاعب الناى الريفى ، الى استاذهما المشترك .

زالت الكلفة ورفع الحظر . وفى اليوم التالى دخل الطفل غرفة الصالون على استحياء ، ولم يكن قد دخلها منذ ان حل بها الضيف الغريب الذى أقبل من المدينة ، وبدا له كائنا صاخبا لا يعاشر . وكان غناء هذا الضيف قد شنف آذان الطفل عشية اليوم السابق ، وغير من نظرته اليه . فأقبل ، وفى نفسه بقية من تردد ، نحو الركن الذى فيه البيانو .. ووقف على مسافة منه وارهف أذنه . ولم يكن احد فى الصالون ، اذ كانت أمه تجلس على اريكة فى الغرفة المجاورة وتشتغل بالتطريز وما أن رأته حتى حبست انفاسها وراحت تراقبه بعينيها معجبة بكل حركة يقوم بها ، وكل تغير يظهر على ملامحه المعبرة .

مد الطفل ذراعيه ولمس سطح الآلة المصقول ، ثم تقهقر مذعورا . وكرر هذه الحركة مرتين متتابعتين . ثم دنا من البيانو حتى أصبح بجانبه وعكف على دراسته . فانحنى حتى ادركت يداه أرض الغرفة ليتحسس قوائمه ، وبعد ذلك أخذ يدور حوله . واخيرا وقعت يده على مشطه المصقول ، فارتجف فى الهواء صوت عذب خافت صادر من احد الاوتار ، ظل الطفل وقتا طويلا ينصت الى ذبذبته التى لم تعد الام تسمع شيئا منها ثم مد يده ثانية ، وقد بدا على ملامحه التركيز الشديد ، فضغط بها على زر آخر . وبعد ذلك أخذ يمر بأصابعه فوق المشط فى اتجاه تصاعدى . وكان يترك لكل نغمة من الوقت

ما يكفى لانتهائها تماما ، فكانت تتابع النغمات مرددة أصداءها فى الهواء ثم تتلاشى الواحدة بعد الأخرى . وفى الوقت الذى كانت تبدو فيه أقصى درجات التوتر الروحى على وجه الطفل الكفيف ، كانت ملامحه تعبر عن سرور عظيم ، فكان يبدى اعجابه بكل صوت مفرد على حدته . وكان هذا الانتباه الشديد للاصوات الاولية التى تعتبر عناصر اللحن الجوهرية ، تكفى وحدها للكشف عن مواهب فنان حقيقى .

لكن يبدو أن الطفل الكفيف كان ، الى جانب ذلك ، يضيف الى كل صوت صفات خاصة . فكان اذا سمع نغمة مرحة واضحة من نغمات السلم العالى تنبعث من تحت أصابعه ، رفع محياه المبهج كما لو كان يتابع طيرانها الخفيف خلال الهواء . وكان على العكس من ذلك يخفض رأسه كلما سمع ذيذيات ثقيلة صماء لاتكاد تدرك من نغم السلم المنخفض . اذ كان يتوهم انه لا بد لمثل هذه النغمة الثقيلة الوزن أن تنتشر على وجه الارض فى مستواها حتى تتلاشى فى ركن من الاركان المظلمة .

كان العم مكسيم يبدى كثيرا من التسامح بالنسبة لهذه الاختبارات الموسيقية . ومن الغريب أن تلك الميول التى ظهرت لدى الطفل منذ هذه السن المبكرة كانت تثير لدى الشيخ المشوه أحاسيس متناقضة . فمن جهة كان هذا الذوق الموسيقى يكشف عن موهبة موسيقية أكيدة ، وبذلك يحدد المستقبل المحتمل للطفل الصغير . ومن جهة أخرى كان قلب الجندى العجوز ينطوى على احساس غامض بخيبة الامل .

وكان العم مكسيم يقول فى نفسه : « لاشك أن الموسيقى

قوة هائلة تقدم لصاحبها الوسيلة للاستيلاء على قلوب الجماهير ولعل هذا الكفيف يجذب اليه مئات ومئات من السيدات والسادة المتحذلقين المتأنقين .. فيعزف لهم .. من تلك الفالسات والمسائيات .. ويأخذوا ، هم ، فى تجفيف مدامعهم بمناديل الدنتلا ( يجب أن نعترف بأن معلومات العم مكسيم عن الموسيقى لاتتجاوز تلك « الفالسات » و « المسانيات » ) .. ياللمصيبة ! لم يكن هذا هو ما أردته له ، ولكن ما العمل ؟.. انه ليس الا طفلا أعمى ، فليسلك اذن فى حياته المسلك الذى يستطيعه . أفلا يكون من الخير أن يسلك سبيل الغناء ؟ ان الاغنية لا تقتصر على مخاطبة الاذن بذلك النوع من الحنان الغامض . ولكنها تثير الصور وتوقظ التفكير فى العقل . والشجاعة فى القلب » .

وفى ذات ليلة كان يدخل الحظيرة وراء الطفل . وما ان رأى يوخيم حتى وجه اليه هذا الكلام : « هيا يايوخيم ! لقد آن الاوان لان تلقى بهذه الزمارة جانبا .. انها أليق بغلمان الشارع وصبيان الرعاة فى الحقول . لا بفلاح رشيد . وان كانت ماريا ، تلك الفتاة الحمقاء قد جعلتك أشبه شىء بالثور .. ألا تستحى! ياللعار ! أيكفى أن تدير لك احدى البنات ظهرها لكى تصبح هكذا كالرمم ! هانت ذا تصفر طول الليل كالعصفور فى القفص . ولما سمع يوخيم ذلك اللام الطويل من سيده المحنق ابتسم فى الظلام الذى لا سبب له . ولكنه لم يتأثر الا من آشارته الى الغلمان وصبيان الرعاة . ثم قال له :

لا يصح أن تقول هذا القول ياسيدى . فانك لن تجد مزمارا كمزمارى لدى أى راع من رعاة أكرانيا ، أما صبيان الرعاة ، فلا ينبغى مجرد ذكرهم فى هذا المقام .. هؤلاء هم الذين يستعملون الزمارات ، ولكن مزمارى .. على كل حال ما عليك الا ان تنصت اليه .

وسد جميع الثقوب بأصابعه وأوقع لحنين من ألحان السلم

الكبير . وكان هو نفسه مأخوذا بامتلاء الصوت . فبصق العم مكسيم وقال :

ما أشد غباءك ! . . اتظنني فى حاجة الى سماع مزمارك ؟ انها كلها سواء ، كل المزامير وكل النساء ، بما فيهن محبوبتك ماريا . . ولعلك تحسن صنعا لو غنيت لنا أغنية ، وذلك بطبيعة الحال ، اذا كنت تعرف أغنية عظيمة من الاغانى القديمة . . فما رأيك ؟

وكان العم مكسيم وهو نفسه من أهالى أكرانيا ، رجلا بسيطا صريحا يضع نفسه على قدم المساواة مع الفلاحين والخدم وكثيرا ما كان يصيح ويشتم ولكن عن بساطة وسلامة طوية ، ولذلك لم يكن أحد يسخط عليه . . وكان كل الناس يعاملونه باحترام ، ولكن دون تكلف .

ـ ولم لا ؟ فقد كنت فيما مضى أغنى ، ولم يكن غنائى رديئا على الاطلاق ، ولكن لعل أغانى الفلاحين لاتعجب سيدى . . هه ؟ قال ذلك يوخيم ، وهو يسخر من محدثه بطريقة خفية . .

وقال العم مكسيم هيا ، هيا ، ودعنا من حماقاتك ! فليس هناك وجه للمقارنة بين أغنية جيدة ومزمار ، على شرط أن ينبعث الغناء من القلب بطبيعة الحال ، والآن ياعزيزى بطرس ، هيا ننصت لاغنية يوخيم . . ولكنى لا أدرى : أكان فى وسعك ان تفهمها ؟ . .

وتساءل الطفل : هل هى من أغانى الفلاحين؟ انى أفهم لغتهم

وكان مكسيم خياليا شاعرى المزاج ، وكان فيما مضى يحلم بتحرير القوازق . فتنهد ثم قال : آه ياعزيزى انها ليست أغانى عبيد ، بل على العكس من ذلك أغانى شعب حر قوى . وقد كان أجدادك من جهة أمك يغنونها ، فى مراعى الدنيبر ، والدانوب ، والبحر الاسود . . . ثم اضاف يقول وهو مستغرق فى تأملاته

.. ســـتفهم ذلك كله يوما من الايام .. اما الآن فانى اخشى شيئا آخر ..

والحقيقة ان العم مكسيم خشى نوعا آخر من عدم الفهم . فقد كان يعتقد انه لايمكن للصور القويةالتى تنطوى عليها أغانى الفروسية أن تمس شغاف القلب الا بمساعدة التصور البصرى وكان يخشى أن يعجز مخ الطفل المعتم عن ادراك اللغة التصويرية التى يتميزبها الشعرالشعبى .. وقدنسىأن الشعراء الشعبيين القـــدامى ومغنيى اكرانيـــا الـسابقين ولاعبى البنـــدورة (١) كان معظمهم من العميان . نعم كثيرا ما كانت الحاجة او العاهة الطارئة هى الدافع الرئيسى الذى حملهم على تناول القيثـــارة أو البندورة والطواف بها لطلب الاحسان . ولكنهم لم يكونوا جميعا من الشحاذين ذوى الصوت الاغن ، كما لم يكونوا جميعا ممن فقدوا حاسة البصر فى شيخوختهم . فمن شأن العمى أن يغطى الكون كله بحجاب كثيف يرين على المخ فينوء به ويعوقه عن العمل ، ولكن مخ الاعمى يستطيع ، بفضل الافكار الوراثية والخواطر التى تنفذ اليه من طرق أخرى ، أن يخلق لنفسه فى الظلام كونا مظلما كئيبا ، ولكنه لا يخلو من نوع من الشـــعر الغامض الخاص كل الخصوص .

جلس العم مكسيم وبطرس على كومةمن الحشيش المجفف .. وجلس يوخيم على الواح سريره « فهذا انسب الاوضـــاع لمزاجه الفنى » ، وتروى لحظة قصيرة ثم شرع فى الغناء .

وكان اختياره موفقا كل التوفيق من باب المصـــادفة أو بفضل غريزته الفنية . فقد وقع هذا الاختيـــار على احدى الذكريات التاريخية ..

هناك فوق التل الاخضر ..
يجنى الحصادون ثمار ما زرعوا ..

لابد لكل من يسمع هذه الاغنية الجميلة تؤدى اداءصحيحا

---

( ١ ) آلة وترية قديمة من آلات الموسيقى الشعبية الروسية ( المترجم )

أن يلصق بذاكرته الى الابد لحنها العتيق الحاد المسترسل .. الذى يشبه أن يكون محوطا بحجاب من حنين الذكريات التاريخية .. فهى لا تتكلم عن أحداث مدوية ووقائع دامية وأعمال سامية .. وليس فيها ذكر لموقف وداع بين أحد القوازقة وحبيبته ، او غزوة جريئة أو غارة على ظهر السفن فى البحر الازرق أو فى الدانوب . ولكنها مجرد لمحة خاطفة انطلقت كالبرق من ذكريات أحد الاكرانيين ، مجرد رؤيا غامضة ، قطعة من حلم تثير ماضيا بعيدا ، طرات فجأة على خياله اثناء نهار رتيب ملىء بهموم الحياة اليومية ، فظهرت مبتورة مختلطة محوطة بحجاب من ذلك الحزن الذى يشف عن الزمن الفابر ، الزمن الحبيب الذى اختفى دون أمل فى رجوعه . اختفى ولكنه ترك من خلفه بعض آثاره .. هذه الازمان السالفة هى التى لا تزال تتكلم عنها تلك الرموس التى تضم عظام القوازقة ، والتى تنبعث منها فى منتصف الليل اضواء خفية وتسمع أنات صامتة .

هذه الازمان الفابرة . هى التى تتكلم عنها كل من الاسطورة والاغنية الشعبية التى فى سبيلها الى الانقراض ..

**هناك فوق التل الاخضر ..**
**يجنى الحصادون ثمار ما زرعوا ..**
**وهنا فى أسفل التل الاخضر ..**
**القوازق يواصلون المسير ..**

نسى العم مكسيم نفسه وهو ينصت الى الاغنية المفعمة بالحزن .. وكانت اللوحة التى يوحى بها لحن الاغنية الرائع ، يأتلف تمام الائتلاف مع مضمونها ، وقد انبعثت فى ذهن مكسيم وكأن انعكاسات الغروب الحزينة تحوطها هالة من نور .. فى الحقول الوادعة .. وفوق التلال الخضراء انحنى الحصادون يضمون القمح فى صمت .. وفى اسفل التل تتابع كتائب المحاربين الصامتين ، احداها وراء الاخرى ، لكى تتلاشى بعد

ذلك فى ظلال المساء الذى اخذ يخيم على الوادى .

وكانت نغمات الاغنية العتيقة المسترسلة تنبض وتتموج ، وتموت فى الهواء لكى تتجاوب أصداؤها من جديد وتثير فى غسق الغروب صورا متجددة على الدوام .

كان الطفل ينصت بوجه عابس حزين . ولما تغنى يواخيم بالتل الذى يعمل فوقه الحصادون . انتقل خيال الكفيف فورا الى قمة الصخرة المألوفة له . وكان يعرفها بالخرير العذب الذى لا يكاد يدرك ، والموجة التى تتراقص تحت قدم الحجر الضخم

أما الحصادون فكانت لديه فكرة عنهم أيضا . ولذا كان يسمع بكل وضوح صليل المناجل ، وحفيف السنابل وهى تتساقط .

ولم تكن الاغنية تثير ذكرى ما يحدث أسفل التل ، حتى كان خياله . خيال المستمع الاعمى ، ينزل به الى الوادى .

صمت صليل المناجل ، ولكن الطفل يعرف أن الحصادين هناك دائما ، فوق التل ، وأنه اذا كان لا يسمعهم فذلك لانهم فى مكان مرتفع جدا ، مرتفع ارتفاع أشجار البلوط التى كاديسمع حفيفها وهو أسفل الصخرة . وفى أسفل التل ترن سنابك الخيل وهى تتابع خطواتها المتساوية المتلاحقة على شاطىء النهر ... انها لا تحصى عددا .. فيسمع لها دوى مختلط تحت الظلال الوارفة أسفل التل . هؤلاء هم القوازق يواصلون المسير .. »

وهو يعرف أيضا من « القوزاقى » اذ كان الجميع يدعون « فدكو » العجوز الذى يأتى لزيارتهم من حين لحين باسم

« القوزاقى العجوز » فهذا كان اسمه فيما بينهم .. وكثيرا ما كان يضع بطرس الصغير على ركبتيه ويمسح له على شعره بيده المرتجفة .. وكان الطفل اذا تحسس وجهه كعادته ، شعر تحت أصابعه البصيرة بغضون عميقة وشاربين طويلين متدليين ودموع من دموع الشيخوخة تنحدر على خديه الغائرين .

على هذا النحو كان يتمثل القوازق الذين هم هنا فى أسفل التل ، وهو ينصت الى الاغنية المسترسلة .. انهم يركبون الخيل ، ولهم شوارب « فدكو » وتقوس ظهره وشيخوخته .

وهم يتقدمون كالظلال الباهتة فى جنح الليل ، كما يفعل فدكو تماما ، ويواصلون البكاء .. ولعل هذا الخاطر الاخير جاء من تلك الانات الحزينة الشاكية التى تحوم فوق التل ، والوادى .. انات الاغنية التى يغنيها اليوم يوخيم ، وهى اغنية القوزاقى المتهور الذى استبدل بزوجته الفليون ومغامرات الحرب .

ويكفى المرء أن يلقى نظرة على العم مكسيم ليعرف أن طبيعة الطفل الشديدة التأثر لم تجمد أمام الصور الشعرية التى فى الاغنية بالرغم من عماه ..

# الفصل الثالث

تعود الحدث الكفيف أن يعتمد على نفسه كل الاعتماد بفضل النظام الذى وضعه العم مكسيم . ولم يلبث ان أدى الى خير النتائج . ففى البيت لم يكن يبدو عليه قط انه كائن عاجز ، فكان يجول فى الجناح كله بخطا ثابتة ، ويقوم هو نفسه بترتيب غرفته ، وحفظ حاجاته ولعبه فى اتم نظام . والى جانب ذلك أخذ العم مكسيم على عاتقه تدريبه على الرياضة البدنية ، فكان يعلمه كل يوم أن يؤدى بعض التمارين . ولما بلغ بطرس السادسة من عمره أهدى اليه حصانا صغيرا وديعا . وكانت الام فى بداية الامر لا تتخيل ابنها الاعمى راكبا حصانا ، وتنظر الى عمل أخيها على انه نوع من الجنون لا اكثر ولا اقل .. ولكن الكهل العاجز سخر فى هذا السبيل كل ما لديه من تأثير ، فلم يمض شهران أو ثلاثة شهور حتى كان بطرس يعدو بحصانه مسرورا الى جانب يوخيم الذى لم يكن يرشده الا فى منعطفات الطريق .

وهكذا لم يقف العمى حائلا دون النمو الطبيعى لجسم الطفل ، كما أن تأثيره على حالته المعنوية قد ضعف الى اقصى حد ممكن . .

وكان بطرس طويل القامة فارع العود بالنسبة لسنه . أما وجهه فكان يعلوه بعض الشحوب ، وملامحه دقيقة معبرة . وكان شعره الاسود يزيد شحوب بشرته بروزا ، وعيناه

الواسعتان اللتان لا تتحركان الا نادرا تبعثان فى محياه تعبيرا غريبا ، سرعان ما يسترعى اليه الانظار . ولم يكن يبدو عليه مما قد يشير الى حرمانه من البصر الا تغضن طفيف فوق حاجبيه وعادة ميله برأسه قليلا الى الامام ، ومسحة الحزن التى تغطى وجهه الجميل فى بعض الاحيان كالسحابة السوداء . وبالرغم من انه كان يظهر ثقة شديدة بنفسه فى الاماكن المألوفة له ، فان الناظر اليه كان يدرك بسهولة أن حيويته الطبيعية مكبوتة ، وانها لا تكشف عن نفسه الا من حين لحين فى صورة وثبات عصبية .

والآن أصبحت الخواطر السمعية تلعب دورا فعالا فى حياة الاعمى ، وصارت الاصوات تكون صور تفكيره الرئيسية ومحور عمله العقلى . فكان يلتقط الحان الاغانى ، وهو يحفظ كلماتها ، ويصبغها بلون من الحزن او البهجة أو الحلم ، ويوجه عنايته المتزايدة على الدوام الى أصوات الطبيعة التى تصل الى مسامعه وقد يخلط خواطره الغامضة ببعض الالحان الشعبية المألوفة ؛ ويصل من ذلك أحيانا الى جمعها فى نوع من الارتجال الحر الذى يشق على المرء أن يعرف فيه اين ينتهى الموضوع الشعبى المعروف للجميع وأين يبدأ الخلق الفردى ، بل كان هو نفسه لا يستطيع دائما أن يفرق بين هذين العنصرين فى اغانيه اذ أن امتزاجهما كان يصل الى حد الاتحاد بهما . وسرعان ما كان يحفظ كل ما يتلقاه عن أمه ، اذ كانت تعطيه دروسا فى البيانو ، ولكنه ظل على حبه السابق لمزمار يوخيم . .

نعم . . ان البيانو اثرى واشد رنينا من المزمار ولكنه لا صق

بالغرفة فى حين أن المزمار يمكن نقله الى الحقول ، حيث تختلط الحانه بحفيف المراعى العذب الى حد أن الصفير بطرس لم يكن يميز فى غالب الاحيان : هل كانت الريح هى التى كانت تحمل اليه أفكارا غامضة من بعيد ، أو كان هو نفسه الذى يخرجها من مزماره ؟ .

أصبح هذا الولع الشديد بالموسيقى هو المحور الذى يدور حوله نموه العقلى ، اذ كان يملأ كل حياته . وقد حرص العم مكسيم على الاستفادة من ذلك لكى يعلم الطفل تاريخ بلاده ، الذى كان يمر أمام خيال الاعمى موصولا بعرى من الاصوات ، فكان اذا اهتم بأغنية ما حاول التعرف على أبطالها ، وعلى مصايرهم ، وعلى مصير وطنه . ومن هنا نشأ اهتمامه بالادب

وقد بدأ العم مكسيم أولى دروسه فى الوقت الذى بدأ فيه بطرس العام التاسع من عمره . وكانت تلك الدروس المحكمة التى يلقيها الرجل المشوه ( الذى استطاع أن يلم بالطرق الخاصة بتعليم العميان ) تعجب الطفل كثيرا . وذلك لانها كانت فى حياته الداخلية عنصرا جديدا . وهو عنصر الدقة والوضوح اللذين يكملان نقص الخواطر الموسيقية الغامضة .

وهكذا أصبح نهار الطفل حافلا ، ولم يعد فى وسعه بأية حال أن يشكو من فقر خواطره . ويبدو انه كان يتمتع بأخصب حياة يمكن أن يتمتع بها طفل فى سنه . . كما يبدو أيضا أنه لم يكن على بينة من عماه .

ومع ذلك فقد كان خلقه يتميز بحزن غريب قليل الشبه بحزن الاطفال . وكان العم مكسيم يعزوه الى الحرمان من الرفقاء وحاول أن يسد هذا النقص .

كان اطفال القرية اذا دعوا الى القصر ، شعروا بشىء من الحرج ، ولم يستطيعوا الاستسلام لالعابهم المعتادة على سجيتهم وذلك أن عمى بطرس كان يعكر صفوهم ، فضلا عن جو القصر الذى لم يألفوه فى بيوتهم . فكانوا ينظرون اليه بشىء من الرهبة

ويلتف بعضهم حول بعض ، ويلوذون بالصمت أو يتهامسون فيما بينهم . ولكنهم كانوا اذا تركوا يلعبون وحدهم فى الحديقة وفى الحقول أصبحوا أكثر حرية ونشاطا ، غير أن الطفل الاعمى كان يظل وحده ينصت بشىء من الحزن الى لهو رفاقه ومرحهم .

وفى بعض الاحيان كان يوخيم يجمع حوله بعض الفلمان ويقص عليهم أحاديث وحكايات مسلية .. ولما كان العفريت الاكرانى الاخرق والساحرات الخبيثات من الموضوعات المألوفة لدى هؤلاء الريفيين الصغار ، فقد كان فى استطاعتهم أن يكملوا تلك الحكايات بصورة تنشط الحديث وتجعله أكثر متعة وحماسا وكان الاعمى يتتبعه بكثير من العناية والاهتمام ، ولكنه لم يكن يضحك الا نادرا . فاستطاع المراقبون أن يستنتجوا من ذلك أن دعابة الكلمة الحية تستعصى عليه فى معظمها . وليس فى هذا مايثير الدهشة ، لانه لم يكن فى وسعه أن يرى الومضات الساخرة فى عينى الراوى أو غضونه الضاحكة أو الحركة الهازلة لشاربيه الطويلين المسترخيين .

استبدلت المزرعة المجاورة مستأجرا جديدا بمستأجرها القديم منذ زمن وجيز ، وكان المستأجر القديم رجلا مشاغبا حاول أن يرفع دعوى ضد السيد بوبلسكى المسالم ، وقد حل محله الآن السيد يسكولسكى العجوز وزوجته . وبالرغم من أن عمر الزوجين معا لم يكن يقل عن مائة عام ، فانهما لم يتزوجا الا منذ زمن وجيز نسبيا . لان السيد يسكولسكى لم يصل الى توفير المال اللازم لاستئجار مزرعة الا بكل صعوبة ، واضطر فى سبيل ذلك الى الاشتغال خوليا لدى أناس أثرى منه . أما زوجته المستقبلة

فقد اضطرت هى الاخرى الى العمل وصيفة لدى الكونتيسة بوتكا ، حتى تحين اللحظة السعيدة . ولما حان يوم الزفاف ومثل الخطيبان فى الكنيسة كان شاربا الخطيب الطيب فيهما من الشعر الابيض اكثر مما فيهما من الشعر الاشهب ، وكان وجه الخطيبة الذى علته حمرة الحياء يحيط به اطار من الخصل الفضية . .

ولكن ذلك لم يكن حائلا دون سعادة الزوجين . وكانت ثمرة هذا الحب المتأخر بنتا وحيدة فى سن الغلام الكفيف تقريبا وهكذا كانت السن قد تقدمت بآل يسكولسكى قبل أن يستقروا فى عشهم الذى استطاعوا أن يعتبروه بيتهم الخاص الى حد ما ولذلك بدءوا يحيون حياة هادئة متواضعة ، وكأنهم أرادوا أن يستعيضوا بهذا الهدوء وهذه العزلة عن تلك السنين الشاقة المملوءة بالمتاعب والتى قضوها فى بيوت غيرهم من الناس .

لم تكن صفقتهم الاولى جد موفقة ، فاعتزموا أن يضيقوا نطاق نفقاتهم بعض الشىء ، ولكنهم لم يكادوا يصلون الى مقرهم الجديد حتى نظموه بما يلائم ذوقهم وعاداتهم . وكانت السيدة يسكولسكا تجلس فى ركن من أركان الحجرة المزينة بالايقونات ذات التيجان المعقودة من ورق الفار ، وبجانبها شمعة ضخمة وبعض اغصان الصفصاف ، وحولها أكياس صغيرة مملوءة بالاعشاب والجذور تعالج بها زوجها والفلاحين والفلاحات الذين يتقاطرون عليها لاستشارتها . وكانت هذه الاعشاب تملأ البيت كله بشذا خاص ترتبط فى ذهن كل زائر بذكرى ذلك البيت الصغير النظيف وهدوئه ونظامه الصارم ، والعجوزين اللذين يعيشان فيه عيشة وادعة الى اقصى حد ، عيشة لا يكاد يوجد لها نظير فى ذاك العصر .

وكان لهذين العجوزين كنز وحيد ينحصر فى بنية ذات غديرة طويلة ، شقراء اللون ، زرقاء العينيين ، تربت فى صحبة والديها ، وكانت تدهش الزائرين بروح الجد التى تبدو فى كل سلوكها . . وكان حب الوالدين المتأخر قد انعكس على الابنة

فى حكمتها التى تشبه حكمة الكبار وهدوء حركاتها ، وفى تلك السمات الحالمة العميقة التى تبدو فى عينيها الزرقاوين . لم تكن تخشى الغرباء أو تفر من صحبة الاطفال الذين فى مثل سنها ، بل تشارك فى العابهم عن طيب خاطر . ولكنها كانت تقبل ذلك فى شىء من التحفظ الصادق ، كما لو كانت لا تشعر من جهتها بأية حاجة اليه . والحقيقة انها كانت تقنع تماما بصحبة نفسها وتتنزه وتقطف الازهار وتتجاذب أطراف الحديث ودميتها ، وتفعل كل ذلك بروح الجد ، حتى كان من يراها يتوهم فى بعض الاحيان انه امام امراة صغيرة لا امام طفلة .

كان بطرس يجلس ذات يوم على تل صغير يشرف على النهر . وقد آذنت الشمس بالمغيب ، وساد الجو سكون مطلق لولا القطعان الرائحة الى القرية التى كانت تبعث بخوارها الى هذا التل فيصل اليه صامتا لطول الشقة التى قطعها . وكان الطفل قد كف عن اللعب واستلقى على بطنه وسط العشب واستسلم الى الاستمتاع بهذا السحر الشجى لامسية من امسيات الصيف ، ثم غفت عينه لحظة ، ولكنه شعر بوقع اقدام خفيفة انتزعته من سنته انتزاعا ، فنهض متبرما واعتمد على مرفقيه بعض الشىء وأرهف أذنه .. وتوقفت الخطا لدى قاعدة التل ولم يتعرف الطفل على هذه المشية .

وفجاة صاح صوت طفلة صغيرة يقول : هيه أيها الغلام الصغير ، الا تعرف من كان يعزف هنا منذ لحظة ؟

ولم يكن الطفل الكفيف يحب ان يقطع عليه أحد عزلته ، ولذلك أجابها بصوت يقرب الى الكمد ، فقال :

ـ انه أنا ..

ولم ترد الفتاة على هذا الجواب الا بتعجب خفيف يفيض بالدهشة .. ثم لم تلبث أن اضافت تقول بنغمة من الاستحسان الساذج :

ـ كم كان عزفك جميلا !

فسكت الاعمى .

ولكنه لما أدرك أن الطفلة الدخيلة لما تبارح مكانها سألها بقوله :

ـ لماذا لاتذهبين الى حال سبيلك ؟

واجابته بصوتها الواضح الساذج المفعم بالدهشة « ولماذا تطردنى ؟ » .

داعب أذن الاعمى هذا الصوت الصغير العذب . ولكنه مع ذلك أجاب بنغمته السابقة نفسها : « لا أحب أن يأتى أحد لرؤيتى ... »

فانفجرت الطفلة بالضحك ... ثم قالت :

ـ لم يبق الا هذا ! أتظن أن الارض كلها لك وحدك ، وأن من حقك أن تحرم على من تشاء الا يتنزه فيها كيفما شاء ؟

ـ لقد حرمت أمى على جميع الناس أن يأتوا الى هنا .

وأجابت الفتاة وعليها سيماء التمرد : « أمك أنت ؟ أما أمى أنا فقد سمحت لى بأن أتنزه على شاطىء النهر .. »

ولم يكن الطفل الذى دلله اسراف كل من حوله فى الاشفاق عليه معتادا على هذا النوع من الاعتراضات . ففلى مرجل غضبه وطفح على وجهه فى شكل موجات عصبية ثم نهض واقفا على قدميه ، وقال فى لهجة سريعة ثائرة :

ـ اذهبى من هنا !.. اذهبى من هنا !.. اذهبى من هنا !

من المستحيل أن نتكهن بالنهاية التى يمكن لهذا المنظر أن ينتهى اليها ؛ ولكن صوت يوخيم جلجل فى هذه اللحظة بالذات يدعو الطفل لتناول الشاى .. فنزل بطرس من فوق التل وهو يعدو .

وقد سمع من خلفه هذه الملاحظة المفعمة بالسخط الصادق « آه يالله من غلام شرير .. »

وفى الغد تذكر الطفل الاعمى مقابلة الامس ، وهو جالس فى المكان نفسه . وقد خلت هذه الذكرى من كل أثر للغيظ ، بل كان على العكس من ذلك يتمنى من كل قلبه لو عادت هذه الطفلة ذات الصوت العذب الرضى الذى لم يسمع مثله من قبل فان الاطفال الذين عرفهم حتى الآن كانوا يصيحون بأعلى صوت ويقهقهون ويتضاربون ويبكون ، ولكن لم يكن أحد منهم يتكلم بتلك الطريقة الساحرة . وشعر فى نفسه بأسف شديد على أنه صدم هذه الطفلة المجهولة التى ظن أنها لن تعود اليه مرة أخرى ..

والواقع أن الطفلة ظلت مختفية طوال أيام ثلاثة .. وفى اليوم الرابع سمع بطرس دبيب خطاها أسفل التل على شاطىء النهر .. كانت تسير بهوادة ، فيسمع لحصى الشاطىء أزيزا خفيفا تحت قدميها ، وكانت شفتاها تتمتمان باحدى الاغانى البولونية .

وما كادت الطفلة تصل الى مستوى الغلام الاعمى بالتل ، حتى صاح بها قائلا : « اسمعى ! هل هى أنت أيضا ؟ » .

ولم تجب الطفلة بشىء .. ولكن الحصى الدقيق ظل يئز تحت قدميها ، وشعر الاعمى بغيظ لا يزال حيا فى رخاوة صوتها المقصودة وهى تتمتم باللحن .

ومع ذلك فقد توقفت الفتاة المجهولة عن المسير بعد أن خطت بضع خطوات . ثم مرت ثانيتان أو ثلاث ثوان فى صمت

تام . وكانت فى هذه الاثناء ترتب طاقة صغيرة من أزهار الحقل تمسك بها فى يدها ، فى حين كان بطرس ينتظر جوابها . وأحس شيئا من الاحتقار فى هذه الوقفة وفى فترة الصمت التى تلتها . وأخيرا كفت الفتاة عن ترتيب أزهارها ثم قالت فى شىء كثير من الاعتزاز : ألا ترى أنه أنا ؟

أثار هذا السؤال البسيط صدى أليما فى نفس الاعمى . ولم ينبس بكلمة واحدة ، سوى أن يديه اللتين كانتا متكئتين على الارض تشبثتا بالعشب بصورة عصبية . ولكن الحديث كان قد وصل حباله على أية حال بين الفتى والفتاة التى استأنفت اللعب ببطاقتها وهى واقفة فى مكانها نفسه لم تزايله ، ثم قالت:

ـ من الذى علمك أن تجيد لعب الناى على هذا النحو ؟

ـ انه يوخيم ..

ـ حسن جدا ولكن لماذا غضبت ؟

وأجاب الطفل بصوت منخفض : لم أغضب .. منك

ـ اذن فكل شىء على ما يرام .. وفى هذه الحالة لم أعد أنا الاخرى غاضبة .. أتريد أن تلعب معى ؟ .

وأجاب بطرس ، وهو يخفض رأسه .. لن أعرف كيف ألعب معك .

ـ لا تعرف أن تلعب ؟ ولماذا ؟

ـ هكذا ....

ـ كلا : ولكن لماذا ؟

ـ هكذا .. قالها الطفل بصوت لايكاد يسمع ، وقد خفض رأسه أكثر من ذى قبل .

ولم يكن قد تأتى لبطرس من قبل أن يتكلم عن عاهته مع أى انسان كان ، فأثار فى نفسه الحاح الفتاة الساذجة على سؤالها نوعا من الالم الصامت .

تقدمت الطفلة المجهولة بضع خطوات فوق التل وجلست بجانب الفتى ، وقالت له فى شىء من الاسى الممزوج بالإشفاق « انك غريب الاطوار .. ولكن لعل ذلك يرجع الى انك لاتعرفنى

ألا ترى أنه أنا ؟

حتى الآن .. ولن تخافنى بعد أن تعرفنى .. فأنا شخصيا لا أخشى أحدا .

وكانت تتكلم بدقة هادئة ، وقد سمعها الطفل وهى تلقى بحزمة الازهار فى جيب مريلتها فقال لها :

ـ من أين قطفت هذه الازهار ؟

ـ من هناك .. قالتها وهى تشير براسهـــا الى مكان ما خلفها ..

ـ من المراعى ؟

ـ كلا ، من هناك !

ـ هل هى اذن من الفيضة ؟ ولكن ما هذه الازهار ؟

ـ ألست تعرف الازهار ؟ انك اذن غريب الاطوار . غريب الاطوار جدا .. والله ..

تناول الاعمى الصغير زهرة وراح يتحسس وريقاتهـــا وكاسها فى سرعة بأصابعـــه .. ثم قال .. انها زر ذهبى أما هذه فبنفسجة .

وبعد ذلك أراد أن يدرس سميرته الجديدة بهذه الطريقة عينها .. فقبض بيده اليسرى على كتف الفتاة ، وراح يتحسس بيده اليمنى شعرها ثم مقلتيهـــا . ثم لم تلبث أصـــابعه أن انزلقت بسرعة البرق فوق وجهها حيث كانت تتوقف بعض الشىء ومن حين لحين لكى يدرس الملامح المجهولة بامعان .

وقد تم ذلك كله بصورة سريعة مباغتة الى درجـــة أن المفاجأة عقدت لسان الفتاة فلم تهمس بكلمة واحدة .. وأخذت تحدجه بعينيها الواسعتين ، وقد بدا عليها نوع من الدهشـــة يشبه الرعب ، وهنا فقط لاحظت شيئا غريبا على وجه رفيقها الجديد فقد جمدت ملامحه الدقيقة الشاحبة على وضع من الانتباه الحاد الذى يتعارض مع نظرته الجامدة .. وكانت عيناه تنظران فى اتجاه ما دون أى اهتمام بما يفعله .. وكانت الشمس الغاربة تعكس أشعتها على انسان عينيه بشكل غريب ، ومرت

على الفتاة لحظة صغيرة ظنت نفسها فيها أنها ضحية لكابوس مخيف .

خلصت كتفها من يد الطفل ونهضت قفزا على قدميها واستسلمت للبكاء .. ثم صاحت من خلال عبراتها بصوت متهدج .

ـ لماذا تخيفنى أيها الولد الشرير ؟ .. ماذا عملت لك ، أنا .. لماذا ؟

أما الطفل فقد ظل جالسا فى مكانه مهموما خفيض الرأس : يشعر باحساس غريب ، بمزيج من الغيظ والذلة يملأ كل كيانه بألم عميق .. فقد أحس بذلة العاهة لاول مرة فى حياته .. ولاول مرة فى حياته عرف أن عاهته لاتثير الرحمة فحسب ولكنها تثير الرعب أيضا . وبطبيعة الحال لم يكن فى وسعه أن يكون لنفسه فكرة واضحة عن الاحساس الذى ألم به ، ولكنه على أية حال كان احساسا أليما مهما كان غامضا غير محدد .

شعر الطفل بألم ممض يخنقه فانكفأ على وجهه فوق العشب وشرع فى البكاء وأخذ تشنجه يزداد وجسمه الصغير ينقبض من وطأة التشنجات ، ولا سيما أن عزة نفسه الفطرية كانت تضطره الى كبت هذه الثورة العصبية .

كانت الصبية قد نزلت من فوق التل عدوا ، وما كادت تسمع النشيج حتى عادت أدراجها وهى فى أشد حالات الدهشة .. ولما رأت رفيقها الجديد منكبا بوجهه على الارض انطلقت تبكى بدموع حارة وتملكتها الرحمة وصعدت التل متمهلة ، ثم وقفت بجانب الفتى الذى كان مجهشا بالبكاء وقالت له :

ـ اسمع .. لماذا تبكى ؟ أتظن أنى سأشكوك ؟ كلا لاتبك ، فلن أنبس بكلمة أمام أحد !

وأثارت الكلمات العذبة التى نطقت بها الطفلة بصوتها الحنون نوبة من الدموع اشد من الاولى . وحينئذ جثت الفتاة بجانبه

وظلت على هذا الوضع نصف دقيقة ثم مسحت بيدها على شعره وربتت على رأسه بذلك الاصرار الحنون الذى تبديه الام وهى تسترضى طفلها بعد ان عاقبته ، ورفعت رأس الاعمى بين يديها واخذت تجفف مدامعه المنهمرة بمنديلها . ثم انطلقت تكلمه بلهجة امرأة حقيقية وتقول : ولكن هيا .. كفى بكاء .. لقد زال عنى الغضب من زمن طويل . أنا مقتنعة تمام الاقتناع بانك اسف لانك اخفتنى . .

وأجابها بزفرة عميقة حاول بها ان يستر نوبته العصبية انا لم اقصد ان أخيفك .

ـ حسن ، حسن ! أنا غير غاضب .

وانت لن تكرر هذا الفعل ، أليس كذلك ؟

قالت ذلك ثم انهضته واجلسته بجانبها .

واستسلم لها . واصبح الان يجلس كما كان من قبل ووجهه متجه نحو الغروب ، ولما حدقت الفتاة فى رفيقهاالصغير من جديد ، بدأ لها وجهه تحت أشعةالشمس المحمرة اكثر غرابة من ذى قبل . كانت عيناه لاتزالان جامدتين والدموع تملؤهما وكانت ملامحه لاتزال تعانى تقلصاتها العصبية ، ولكنها فىالوقت نفسه كانت تكشف عن هم عميق ساحق لايشبه هموم الاطفال فى شىء .

وفجأة قالت له الطفلة فى نغمة رحيمة حالمة معا « مهمايكن من شىء ، فانك فى غاية الغرابة . . »

وأجابها الطفل وعلى وجهه تعبير اليم : كلا .. كلا . . . لست غريبا .. ليس فى من غرابة مطلقا .. أنا .. أنا ... أنا أعمى .

أ ... أ ... أ .. عمى ! هكذا قالتها الفتاة بصوت أشد اضطرابا . ثم اقبلت فجأة على عنق الصغير تقبله ، والى وجهه تضمه الى وجهها ، وكأنها تريد ان تدافع عن نفسها ضد عاطفة الحنان الساحقة التىغمرتها من شعر رأسها حتىاخمص عدميها .

شعرت المرأة الطفلة بصدمة هذا الاكتشاف المفاجىء العنيف فلم تجد فى نفسها القوة لمواصلة القيام بدورها الكبير ، وانقلبت الطفلة محزونة من جديد لاشىء يعصمها من همومها ، فراحت تذرف دموعها المرة بدورها ...

ومرت بضع دقائق فى صمت تام

وكفت الطفلة عن البكاء ، فقد استطاعت ان تسيطر على نفسها الا من زفرة عميقة تنبعث من قلبها بين الحين والحين . واخذت تنظر بعينيها المبللتين بالدموع الى الشمس التى خيل اليها انها تدور فى سماء الغرب الملتهبة وتتهاوى فى الوقت نفسه خلف حاجز الافق الغامض ، وبرق القطاع الذهبى من السماء مرة اخرى ، ثم تفجرت ومضتان او ثلاث ومضات ، وفجأة ظهر جسم الغابة البعيدة وكأنه خط ازرق متصل يقطع نهاية الافق .

هبت نسمة رطيبة من النهر ، وانعكس على وجه الاعمى ذلك السلام الوديع ، سلام المساء الوافد . اما هو فقد جلس خافض الرأس تبدو عليه الدهشة لمظهر الحنان الحار الذى يشهده .

وأخيرا قالت الفتاة بين شهقتين من شهقات نشيجها . باللخسارة .. وكانها ارادت ان تعبر بذلك عن ضعفها .

ولكنها بعد ذلك راجعت نفسها وعملت على تغيير مجرى الحديث ، على ايجاد موضوع محايد تستطيع الكلام فيه بلا تأثر . فقالت وعليها سيماء الشرود .

ـ لقد غربت الشمس .

وكان جواب الطفل المفعم بالحزن « أنا لا أعرف كيف هى ... كل ما أستطيعه أننى أحسها .

ـ ألا تعرف الشمس ؟
ـ كلا ...
ـ وأمك ... ألا تعرفها هى الأخرى ؟
ـ بلى ، أعرف أمى . أعرف مشيتها من بعيد دائما .
ـ نعم ، نعم ، هذا حق . وأنا أيضا أعرف أمى وأنامغمضة العينين .

وهكذا اتجه الحديث فى طريق أهدأ من ذى قبل .

وشرع الغلام الاعمى يتكلم بشىء من الحرارة ، فقال « انظرى ، انى أحس الشمس ، وأعرف جيدا حين تغرب »

ـ كيف تعرف ذلك اذن ؟
ـ ذلك لان ... أتفهمين ؟ أنا نفسى لا أعرف كيف ...

ولم تزد الفتاة على أن قالت « آه ! ... وكان يبدو أنها جد مقتنعة بهذا الجواب . وبعدها سكت الاثنان عن الكلام .

ثم استأنف الطفل الحديث من جديد . فقال : وأعرف القراءة ، وعما قليل سأتعلم الكتابة بالقلم .

ـ ولكن كيف ؟ ... هكذا بدأت الطفلة ثم سكتت فجأة مبهوتة لاتريد الاستمرار فى هذا الاستجواب الدقيق . ولكنه فهم قصدها ، وقال لها شارحا .

أقرأ بأصابعى فى كتابى الخاص بى .

ـ بأصابعك ؟ شىء عجيب ! أما أنا ، فلن أستطيع القراءة بأصابعى مطلقا . بل انى لا أجيد القراءة حتى بعينى . ويقول أبى : ان النساء لايفهمن من العلوم الا قليلا .

ـ وأستطيع قراءة الفرنسية أيضا .

وصاحت الفتاة بلهجة اعجاب صادق « الفرنسية ! وبأصابعك أيضا ؟ حينئذ يالك من ذكى ! ولكن اسمع ، انى أخشى أن يصيبك شىء من البرد ، فالنهر مغطى بالضباب .

ـ وأنت ؟
ـ أنا لا أخشى شيئا . ماذا يمكن أن يصيبنى من وراء ذلك ؟

ـ وحينئذ ، فانى أنا الآخر لا أخشى شيئا . هل من الممكن أن يصاب رجل بالبرد بأسهل مما تصاب به امراة ؟ لقد قال لى خالى مكسيم انه لايصح للرجل أن يخاف أى شىء ، لا البرد ولا الجوع ولا الرعد ولا المطر .

ـ مكسيم ؟ هذا الرجل الذى يسير على عكازتين ؟ لقد رأيته . انه مرعب !

كلا ، كلا ، لايصح أن نتعجل فى الحكم ! انه ليس مرعبا . ولكنه ، على العكس من ذلك ، مثال الطيبة .

وكررت الفتاة قولها باقتناع لايتزعزع ، بلى ، انه مرعب ! أنت لاتعرفه ، لانك لم تره .

ـ ولكن كيف لا أعرفه ، وهو الذى يقوم بتعليمى !

ـ هل هو يضربك ؟

ـ هو ؟ أنه لايضربنى أبدا ، ولا يغضب منى أبدا . .

ـ هذا حسن جدا . ومن ذا الذى تسول له نفسه أن يضرب غلاما أعمى ؟ لو فعل أحد ذلك لارتكب خطيئة كبيرة .

ـ ولكنه لايضرب أحدا . بهذه الجملة رد عليها بطرس ، وهو مشغول البال بعض الشىء ، لان سمعه الرقيق أحس خطوات يوخيم قادما .

والواقع أن هيكل الاكرانى العملاق برز بعد لحظة فوق المنعطف المرتفع من التل الذى يفصل شاطىء النهر عن الضيعة ، ثم لم يلبث أن دوى صوته فى سكون الليل ينادى .

هو هو . . هو . . هو . . ياسيدى . . بطرس . . فنهضت الفتاة وهى تقول : « انهم ينادونك » .

ـ نعم . . . ولكنى لا أريد الذهاب .

ـ بل اذهب ، اذهب . . . وسآتى لرؤيتك غدا . انهم ينتظرونك الان ، وينتظروننى أيضا بلا شك .

كانت الفتاة عند وعدها ، بل جاءت لرؤية الصغير بطرس قبل الموعد الذى كان ينتظرها فيه . ففى صباح الغد كان الغلام فى غرفته منهمكا فى عمل واجبه أمام خاله مكسيم ، وفجأة رفع رأسه وأرهف أذنيه لحظة وبدت عليه سيماء النشاط ، ثم قال لخاله .

دعنى أخرج دقيقة واحدة ، فهاهى ذى الفتاة الصغيرة قد حضرت .

وأجابه العم مكسيم فى دهشة « الفتاة الصغيرة ؟ أى فتاة صغيرة ؟ ثم تبع الغلام الذى اتجه نحو باب الخروج .

وفى الواقع كانت رفيقة الامس قد دخلت من فورها فى فناء المنزل .. وما كادت تلمح أناميخايلوفنا حتى اتجهت اليها بخطا ثابتة دون تردد .

وظنت والدة بطرس أن الفتاة الصغيرة جاءت اليها لقضاء أمر ما ، فسألتها ماذا تريدين ياحبيبتى ؟

ومدت اليها المرأة الصغيرة يدها فى جد صارم ، وسألتها بدورها .

هل هذا هو البيت الذى يقطن فيه غلام صغير أعمى؟ أليس كذلك ؟

فنظرت السيدة الى الزائرة الصغيرة نظرة اعجاب بعينيها الصافيتين وبالسماحة التى تتجلى فى تصرفاتها ، ثم قالت«نعم بنيتى ، أنه هنا .»

ـ المسألة ياسيدتى ، أن أمى سمحت لى برؤيته . فهل أستطيع أن أراه ؟

ولكن فى هذه اللحظة بالذات كان بطرس يهرول نحوها ، على حين ظهر العم مكسيم على درج السلم الداخلى .

وأقبل الغلام يحيى صديقته الجديدة ، وهو يقول لوالدته انها الفتاة الصغيرة يا أمى ، تلك التى كلمتك عنها بالامس . ثم اتجه للفتاة وقال : ولكن هذه هى اللحظة التى أقوم فيها بحل واجبى .

وردت عليه أمه بقولها : ان العم مكسيم سيمنحك اجازة فى هذه المرة ، سأطلب لك منه الاذن .

وفى هذه الاثناء اتجهت السيدة الصغيرة التى كانت تبدو كأنها فى بيتها نحو العم مكسيم ، وكان قد وصل يحجل على عكازتيه . ومدت له يدها ، وأعلنت بلهجة الرضاء الممزوج بالتسامح :

ـ مما تشكر عليه أنك لاتضرب طفلا أعمى . لقد أخبرنى .

وصاح العم مكسيم بلهجة التهكم الصارم « أحقا ماتقولين ياسيدتى العزيزة ؟ ثم أخذ يدها الصغيرة فى راحته العريضة ، واستمر يقول : انى أدين بالعرفان بالجميل لتلميذى ، اذ جعلنى أحظى برضاء شخص لذيذ مثلك ، يابنيتى العزيزة .

وانفجر بالضحك وهو يربت على يدها الصغيرة التى أمسك بها فى يده . واستمرت الفتاة تحدق فى وجهه بنظرتها الصريحة التى لم تلبث أن سيطرت على قلب الاعرج العجوز بالرغم من بغضه لجنس النساء .

ثم قال لاخته وعلى شفتيه ابتسامة غريبة : ألا ترين ! ان عزيزنا بطرس قد بدأ يكون لنفسه علاقات خاصة . ويجب ان تعترفى ياعزيزتى أنا ، انه قد أحسن الاختيار بالرغم من عماه . أليس كذلك ؟

فصعد الدم فى وجه السيدة الشابة ، وسألت أخاها فى

نغمة قاسية « ماذا تعنى بذلك ياماكس ؟ »

وأدرك أخوها انه لمس الوتر الحساس من قلب الام البصير، وكشف عن الفكرة الخفية التى نبتت فيه على الفور .

وازدادت الحمرة فى خدى أناميخايلوفنا ، وانحنت على

وازدادت الحمرة فى خدى أناميخايلوفنا ، وانحنت على

الفتاة تقبلها بحرارة فى نوبة من الحنان الملتهب ، وتقبلت الطفلة هذه الملاطفة العنيفة غير المنتظرة بنظراتها الصافية نفسها ، وان بدا عليها شيء من الدهشة .

ومنذ ذلك اليوم توطدت الصلات بين الزارع وقصر آل بوبلسكى وواظبت الطفلة الآن على الحضور يوميا ، وبعد قليل من الزمن أصبحت تلميذة العم مكسيم .

وفى بداية الامر لم يرحب السيد يسكولسكى كثيرا ، بهذه « المدرسة المختلطة » . وذلك أولا لاعتقاده أن المرأة يكفيها أن تعرف كيف تسجل قطع الملابس وتنظم دفتر المصروفات . وثانيا لاقتناعه ، باعتباره كاثوليكيا مؤمنا ، أن العم مكسيم أخطأ فى محاربته النمساويين ضد ارادة قداسة البابا الصريحة . وأخيرا لاقتناعه التام بأن فى السماء الها وان فولتير وأتباع فولتير يتلظون فى الجحيم حيث يتقلبون فى القار المغلى ، وان الرأى العام قد استقر على أن المصير نفسه ينتظر العم مكسيم . ولكنه مع ذلك ، لم يكد يعرفه حتى اضطر الى الاعتراف بأن هذا الرجل الملحد المشاغب سمح المعاملة عظيم الذكاء ، ولذا قرر ان يعقد معه حلا وسطا .

غير أنه قد بقى شيء من القلق فى أعماق هذا النبيل البولونى.

العجوز وهذا هو السبب فى انه لما أحضر ابنته لتلقى أول درس لها ، رأى من الخير أن يلقى على مسامعها خطابا احتفاليا على جانب عظيم من الفخامة ، ولكنه كان يقصد به العم مكسيم اكثر مما يقصد به الفتاة .

وأمسك الوالد بكتف ابنتـــه واتجه بنظره نحو أســـتاذها المستقبل ، ثم بدأ يقول . أنصتى يا ابنتى ، أنصتى الى ماسالقيه على مسامعك . لاتنسى مطلقا أن فى السماء الها ، وأن قداسة أبينا البابا الذى يقطن رومة يمثـــله على وجه الارض . وأنا فالنتين يسكولسكى الذى أقول لك ذلك ، ويجب عليـــك أن تصدقينى لانى أبوك . وهذا هو البند البريمو (١) .

وألقى فى اتجاه العم مكســـيم بنظرة أخرى ذات مغزى ، وهو ينطق بهذه الكلمات الاخيرة وضغط على الكلمة اللاتينيـــة بوجه خاص ليفهم العم مكسيم أنه لايجهل العلوم وأن من العسير عليه أن يحاول خداعه اذا سولت له نفسه ذلك .

البند الثانى ، أنا نبيل بولونى يحمـــل شعارى صليبا مرسوما على رقعة زرقاء الى جانب الحجر المستدير والغراب . وكثيرا ماحدث لآل يسكولســـكى ، وهم من الفوارس الذائعى الصيت ، أن استبدلوا بكتاب الصلوات السيف ، وقد برهنوا دائما على براعتهم فى ادارة الشئون الدينية ، وهذا اذن سبب آخر يدعو الى الثقة فى . اما فيما عدا ذلك ، اعنى اما فى كل مايتعلق بالشئون الارضية ، فأطيعى كل مايأمرك به الســـيد مكسيم يتسنكو ، وثابرى على الدراسة .

وأجاب العم مكسيم على هذه المقدمة بقوله ، وهو يبتسم « لاتخشى شيئا ياسيد فالنتين ، فاننا لانجند الفتيات الصغار فى جيش غاريبالدى » .

أفاد التلميذان معا من التعليم المشترك . نعم ، كان بطرس متقدما بعض الشىء عن صاحبته ، ولكن ذلك لم يمنع المنافسة

(١) البريمو ، اى الاول باللاتينية .

بينهما . هذا الى أن الغلام كان فى بعض الاحيان يساعد رفيقته الصغيرة فى حل واجباتها ، كما كانت هى من جانبها تبتكر طرقا جد موفقة لتوضح له ما يتعسر عليه فهمه بسبب عماه . وفضلا عن كل ذلك كان وجود ايفلين يضفى على دروسه جوا خاصا ويضيف الى عمله العقلى نوعا من التشويق السار .

وبالاختصار كانت هذه الصداقة هبة حقيقية من القدر الرحيم . فالآن لم يعد الطفل يبحث عن الوحدة المطلقة ، لانه وجد فى صحبة ايفلين هذا الشىء الذى لم يكن عطف الكبار جديرا بمنحه اياه ، حتى كان فى لحظات أحلامه وتأملاته يحب أن يحس بوجودها فى وجدانه . كانا ينطلقان دائما معا الى التل الصغير أو الى النهر . وكان اذا قام بالعزف أصغت باعجاب ساذج ، واذا وضع مزماره جانبا ، بدأت تترجم له خواطرها الصغيرة الحية عن الطبيعة المحيطة بها . وبطبيعة الحال لم تكن الفتاة قد عرفت كيف تعبر عن هذه الخواطر بصورة وافية لان الكلمات كانت تنقصها ، ولكن بطرس كان فى مقدوره أن يدرك فى أحاديثها الساذجة وفى نغمة صوتها بوجه خاص كل الخصائص الفردية للظاهرة التى تقوم بوصفها . فكان مثلا ، اذا كلمته عن الغسق الذى ينزل فوق الارض فى مساء يوم غائم رطب ، سمع فى نبراتها المحبوسة وصوتها المتردد هذه الظلمات وهى تسقط . واذا رفعت رأسها الحالم وقالت له « أوه ! هذه السحابة المقبلة ، ما أقتمها ! ما أقتمها ! » أحس فجأة بنوع من الزفير البارد وسمع فى صوتها مايشبه الحفيف المقبض لوحش ضخم فى مكان ما من السماء فى غاية الارتفاع .

# الفصل الرابع

هنالك كائنات يظن المرء أنها لم تخلق الا للتضحيات الصامتة التى يتطلبها الحب المفعم بالاحزان والهموم ، كائنات ترى فى الغموم الناشئة من آلام من يمتون اليها بصلة ، جوها الخاص بها وتعتبرها ضرورة عضوية بالنسبة لهـا . وقد زودتهم الطبيعة مقدما بالهدوء الذى بدونه تصبح التضحية اليومية أمرا مستحيلا ، وخففت ببعد نظرها ، من حدة طموحهم ورغباتهم الشخصية ، وذلك باخضاعها للصفة المسيطرة فيهم . وفى بعض الاحيان تبدو هذه النفوس كأنها باردة مفرطة فى الرزانة خالية من العواطف . فهى تصم آذانها أمام نداءات هذا العالم المثيرة وتسير فى طريق الواجب الحسن وهى هادئة هدوء من يسير فى طريق السعادة الكاملة ، وتبدو باردة برود القمم المغطاة بالثلوج ، ولكن لها جلالها . . كما أنها مغلقة أمام هموم هذه الدنيا التافهة ، ولا تستطيع النميمة والصغائر أن تدنس ثيابها الطاهرة ، كما لا يستطيع رشاش الوحل أن يدنس ريش البجعة .

كانت لصديقة بطرس الصغيرة كل السمات التى تميز هذا النوع من النفوس والتى لا تخلبها الحياة والتربية الا فى القدر القليل . وذلك لانها كالموهبة والعبقرية لا يعطاها الا المصطفون الاخيار ، وتبدو لديهم فى سن مبكرة جدا . وكانت أم الغلام الضرير تدرك تمام الادراك مقدار السعادة التى نالت طفلها بصداقة هذه الطفلة . وكذلك كان العم مكسيم يفهم ويؤمن بأنه

أصبح لدى تلميذه كل ما كان ينقصه حتى هذا الحين ، وأن نمو بطرس الروحى سيسير منذ الآن بخطا هينة مطردة ، ولن يستطيع أى شيء تعويقها . .

وكان هذا اعتقادا خاطئا . .

فى السنين الاولى من حياة بطرس ، كان العم مكسيم يعتقد أنه هو الوحيد الذى يوجه نموه الخلقى ، أو على الاقل انه اذا لم يحدث هذا النمو تحت تأثيره المباشر ، فان أى تغيير أو تقدم يصيبه ، لايمكن أن يحدث خفية على غير علم منه بعيدا عن رقابته . ولكن لم يكد الطفل يبلغ تلك السن التى تعتبر مرحلة انتقال بين الطفولة والمراهقة ، حتى تحقق العم مكسيم زيف أحلامه التربوية المفرطة فى الغرور . فكان لايكاد يمر أسبوع دون أن يحمل الى الطفل شيئا جديدا ، وفى بعض الاحيان مما لايتوقع مطلقا لدى شخص أعمى . وكان العم مكسيم يضل طريق الصواب ، كلما حاول أن يكشف عن هذه الفكرة الجديدة أو ذلك التصور الجديد لدى الطفل .

كانت هناك قوة مجهولة تعمل عملها فى قرارة نفس الطفل، فتخرج من هذه الاعماق مظاهر غير متوقعة للنمو الروحى المستقل ، ولم يكن أمام العم مكسيم الا أن يطأطىء الرأس احتراما أمام عمليات الطبيعة الخفية التى تتدخل فى مجهوده التربوى على هذا النحو . ويبدو أن هذه الدفعات التى تفجرها الطبيعة وهذه الاكتشافات غير المنتظرة كانت تمد الطفل بمعارف لم يكن فى وسع التجارب الشخصية أن تمد بها الاعمى . وكان العم مكسيم يرى فيها تلك الرابطة الوثيقة التى تربط بين

جميع الظواهر الحيوية التى يطرد وجودها واستمرارها فى حياة البشر ..

أقلق هذا الاكتشاف بال العم مكسيم فى أول الامر ، فانه لما رأى أنه لم يكن هو وحده الذى يسيطر على نفس الطفل ، وأن هذه النفس تتأثر بشىء ما مستقل عنه تمام الاستقلال ، اعتراه القلق على مصير تلميذه ، وخشى أن تطرأ على الطفل حاجات جديدة تسبب له آلاما لايستطاع لها علاج . وحاول بكل جهده أن يعثر على أصل هذه المنابع المتفجرة من حيث لا يعلم الا الله ، وذلك لكى يسد عليها الطريق من أجل مصلحة الطفل .

وكذلك لا حظت الام هذه الظواهر غير المنتظرة .. ففى ذات صباح هرع اليها يطرس مضطربا وصاح بها يقول :

— أمى ! أمى ! لقد رأيت حلما .

فطلبت اليه بصوت حزين مفعم بالريب : « وماذا رأيت ياحبيبى ؟ » .

رأيت فى المنام انى أراك ، أنت وخالى مكسيم أيضا .. وانى أرى كل شىء .. ما كان أجمل ذلك يا أمى الحبيبة .... ما كان أجمله !

— وما ذا رأيت أيضا يابنى ؟

— لا أتذكر ..

— ولكن ، هل تتذكرنى ؟

وأجاب الغلام الصغير المستغرق فى تأملاته : « كلا ... لقد نسيت كل شىء .. »

ثم أضاف بعد لحظة صمت قصيرة ... « لقد رأيت ..... لقد رأيت ... وبعد ذلك أظلم وجهه وانبعثت دمعة كبيرة من عينيه ....

وتكرر ذلك لبطرس عدة مرات ، وكان فى كل مرة يبدو عليه الحزن والقلق أكثر مما فى المرة السابقة .

كان العم مكسيم يخترق فناء المنزل ذات يوم ، فسمع تمرينات موسيقية غريبة صادرة من الصالون الذى تعود بطرس أن يتلقى فيه دروسه الموسيقية . وكانت هذه التمارين تتكون من نغمتين اثنتين .. ففى البداية كانت تسمع أعلى النغمات التى على مشط البيانو تحت سيل منهمر من الضربات المتتابعة التى يكاد بعضها يذوب فى البعض الاخر ، وبعد ذلك يحل محلها فجأة طنين صامت من نغمة سفلية . وتاق العم مكسيم الى معرفة مغزى هذه التمارين ، فعبر الفناء حجلا على عكازتيه ، ولم تمض دقيقة حتى كان قد دخل الصالون . وهناك وقف على عتبته جامدا أمام المنظر غير المتوقع الذى شاهده .

كان الغلام الذى ناهز العاشرة من عمره يجلس تحت قدمى أمه على كرسى صغير جدا دون ظهر . ووقفت بجانبه بجعة صغيرة مستأنسة تمط عنقها وتحرك منقارها . وكان بطرس يقدم لهذا الطائر الذى أهداه يوخيم حديثا الى سيده الصغير طعامه فى كل صباح ، كما كان الطائر يصحب سيده الجديد فى كل مكان ورأى العم مكسيم تلميذه فى أشد حالات التركيز ، وقد احتضن البجعة باحدى ذراعيه وراح يمر بيده الاخرى على ريشها فى كثير من الرفق .

أما الام فكانت تقف أمام البيانو بوجهها المضطرب الذى يلتهب التهاب النار وعينيها المفعمتين بالحزن ، وقد أخذت تضرب على أحدى نغماته العليا ضربات متتابعة لا تنقطع . وفى الوقت نفسه تنظر الى اينها وهو جالس على كرسيه بكل امعان حتى اذا رأت يده تنزلق فوق ريش البجعة الابيض اللامع وتصل

المكان الذى ينقلب فيه البياض الناصع الى سواد فاحم دفعة واحدة ، نقلت يدها بسرعة الى أقصى زر فى الطرف الآخر من المشط ، فيسمع صوت النغمة الفليظة يطن فى أرجاء القاعة .

وكان هذا العمل قد استولى تماما على انتباه الام والابن كليهما ، فلم يلحظا قدوم العم مكسيم . فلما أفاء هذا الاخير الى نفسه بعض الشيء قاطعهما بهذا السؤال :

ـ ما معنى هذا ياعزيزتى ؟

فلما التقت نظرة السيدة الشابة ونظرة أخيها الفاحصة ، اعتراها الخجل ، كما لو كانت ترتكب عملا منكرا ثم فاجأهـا سيد قاس . . وقالت ، وهى فى حيرة من أمرها :

ـ ذلك أن : . . ذلك أن . . . لعلك تفهمنى . . ذلك أن بطرس يقول بأنه يحس بعض الاختلاف بين ألوان ريش البجعة ولكنه لا يفهم جيدا كنه هذا الفرق . وأقسم لك أنه هو الذى بدأ بالكلام عن هذا الامر ، ويبدو لى أنه على حق .

ـ واذن ؟

ـ واذن . . . واذن لا شيء . . . فقد أردت فقط أن أسهل عليه بعض الشيء ، أن أشرح له هذا الاختـلاف فى الالوان عن طريق الاختلاف فى الاصوات . هذا كل ما أردته . . فلاتغضب يا ماكس ، اذ يبدو لى أن هناك بعض التشابه .

ذهل العم مكسيم لهذه الفكرة الغريبة الى حد انه لم يستطع فى بادىء الامر أن يرد على أخته . ثم طلب اليها أن تكرر التجربة أمامه . . وبعد أن نظر طويلا الى التعبير المتوتر على وجه الاعمى هز رأسه . . ثم قال لاخته بعد أن انفرد بها :

انصتى الى يا أنا . . ينبغى ألا توقظى فيه أسئلة لاتستطيعين مطلقا ، أن تجيبى عليها اجابات مرضية .

فقاطعته أنا ميخايلوفنا قائلة :

ولكنه هو الذى بدأنى بالكلام عن ذلك .

ـ ولو . . فما عليه الا أن يعتاد عماه . أما نحن فواجبنا أن ننسيه النـور . وأنا أقوم من جهتى ، بكل ما فى وسعى لاستبعاد الخواطر الخارجية التى قد تجره الى توجيه أسئلة لا جدوى من ورائها . واذا نجحنا فى استبعاد هذه الخواطر ،

لم يشعر الطفل بنقص فى أحاسيسه . فنحن نملك مثلا خمس حواس ، ولسنا نشعر بأى حرمان ، لاننا لا نملك حاسة سادسة اليس كذلك ؟

ـ وأجابته السيدة الشابة بصوت منخفض ، بلى ياماكس اننا نشعر بهذا الحرمان .

ـ آنيا ...!

ـ وردت عليه باصرار .. بلى ، بلى ، اننا نشعر بذلك .. فكثيرا ما نألم لحرماننا من المستحيل .

هذا وقد خضعت الاخت لبراهين أخيهـــا . ولكن العم مكسيم كان فى هذه المرة ، مخطئا حين فكر فى استبعاد الخواطر الخارجية .. فانه قد نسى نسيانا تاما تلك الدفعات القوية التى بعثتها الطبيعة فى نفس الطفل .

قال أحد الناس : العينان مرآة النفس ! ولعـل الاصـح أن نعاونهما بنافذتين تنفذ منهما الى النفس انطباعات كون منير وهاج متعدد الالوان . فمن الذى يستطيع أن يعرف أى جزء منا يتوقف على الاحساسات البصرية ؟

كل انسان حلقة فى سلسلة الحيوات غير المتناهية التى تمر به من أعماق الماضى فى طريقها الى مستقبل لا نهاية له . وها هو ذا حادث محتوم أبى الا أن يغلق هاتين النافذتين فى احدى تلك الحلقات ، لدى الطفل الاعمى الذى قضى على حياته أن تنغمس فى ظلام دامس . فهل ينتج عن ذلك أن تنفصم الى الابد جميع الخيوط التى ترد نفسه عن طريقها على الانطباعات الضوئية ؟ كلا .. فان حساسية الضوء الداخلية لا بد أن تبقى ، ولا بد أن تتجه بالرغم من الظلمات التى تتخبط فيها الى الانتقال فى الاجيال

اللاحقة . فالطفل الاعمى يملك نفسا بشرية كاملة طبيعية غنية بكل ملكاتها ، ولما كانت كل ملكة تحمل فى ذاتها رغبتها فى تحقيق نفسها ، فلا بد ان يحيا فى نفس الطفل القاتمة توثب نحو النور لا يمكن اخماده .

فهناك فى مكان ما من الاعماق الخفية قوى وراثية فى تلك الصورة الخفية التى تسمى « بالامكانيات » ، وتظل هذه القوى ساكنة كامنة مستعدة للانطلاق لدى الالتقاء بأول شعاع مضىء .. ولكن النوافذ تظل مغلقة . وبذلك يتحدد مصير الطفل . فلن يرى هذا الشعاع المضىء أبد الآبدين ! وستنقضى حياته كلها فى الظلام !.. وكانت هذه الظلمات معمورة بالاشباح .

ولو ان الطفل قضى حياته وسط ضروب الحرمان والاحزان لربما كانت الاسباب الخارجية قد حولت نفسه عن همومها . ولكن الاشخاص المحيطين به كانوا يبعدون من طريقه كل ما قد يحزنه . كانوا يوفرون له الهدوء والاطمئنان ، والآن أصبح هذا السكون الذى يخيم على نفسه يسمح لتنافره الداخلى بالاعلان عن نفسه بوضوح متزايد . ففى وسط السكون والليل اللذين كانا يطفيان عليه ، انبثق شعوره الغامض الملح بحاجة تبحث عن الاشباع ، ونشأت رغبته الصارمة فى أن يجد منفذا للقوى التى تستجم فى قرارة نفسه .

ومن هنا يجىء هذا العدد الكبير من الاحاسيس المختلطة والتحفزات الكامنة التى تشبه تلك الرغبة فى الطيران التى يشعر بها كل شخص فى طفولته ، وتظهر فى مثل هذه السن فى صورة أحلام بديعة .

والى هنا أيضا ترجع تلك الجهود الغريزية التى يقوم بها عقل الطفل ، وذلك الاستفهام القلق الذى ينطبع على ملامحه .. وكانت هذه الامكانيات الوراثية للتصورات البصرية غير المستخدمة فى الحياة تحوم كالاشباح فى رأسه الصغير غامضة قاتمة لاشكل لها ، فتحفزه الى بذل مجهود عنيف ليس له هدف محدد .

وهكذا تثور الطبيعة بصورة غير شعورية على « الحالة الفردية » التى تنتهك قانون الحياة العام .

ومن ثم لم ينجح العم مكسيم فى كبح جماح الاندفاع الداخلى لحاجة لم تشبع ، وذلك بالرغم من محاولاته استبعاد « الخواطر الخارجية » جميعها . وكل ما استطاع أن يصل اليه ببعد نظره هو عدم ايقاظ هذه الحاجة قبل الاوان ، والعمل على عدم ازدياد الاعمى . أما فيما عدا ذلك فلم يكن أمام المصير المؤسى الذى فرضته الايام على الطفل ، الا أن يصل الى مداه بكل ما يترتب عليه من نتائج .

وكان هذا المصير يقترب كالسحاب القاتم . فأخذ نشاط الطفل الطبيعى يتضاءل بمرور الايام تضاؤل الموجة الصائرة الى التلاشى ، فى حين أن ميله الى الحزن راح ينمو وينضح على مزاجه . ولم تعد ضحكته تسمع الا نادرا ، بعد أن كانت تجلجل بفتة فى طفولته لدى كل انطباع جديد يتسم بشىء من الحدة . وأصبح كل ما هو ضاحك وكل مايتسم بطابع المرح عسير الوصول الى نفسه . وعلى العكس من ذلك صار يلتقط بسهولة فائقة كل ما اتسم بطابع الحزن المبهم والانقباض الغامض فى طبيعة الاقاليم الجنوبية وفى الاغانى الشعبية . وكانت الدموع تنحدر من مقلتيه كلما سمع كيف « يتكلم القبر فى مروج الاستبس مع الرياح » .. كان يشغف بالذهاب الى الحقول للانصات الى أصواتها .

وازداد ميله الى الوحدة شيئا فشيئا حتى أنه كان اذا خرج وحده للتنزه فى ساعات فراغه ، عمل ذووه على ألايقترب

منه أحد لكيلا يعكر صفو عزلته .. فكان يجلس فوق أكمة أو بين مراعى الاستبس أو فوق تل على شاطىء النهر أو على ظهر الصخرة التى كثيرا ما يقبل عليها حيث لا يسمع الا حفيف الاشجار ووسوسة الاعشاب وأنفاس الريح الغامضة . وكان كل ذلك ينسجم مع حالته النفسية كل الانسجام .. وهنا كان قد يتأتى له فهم الطبيعة فهما تاما ، فى حدود قدرته على فهمها . فهى لم تكن تزعجه بأسئلة معقدة وغير قابلة للحل فى آن واحد . ويبدو أن هذه الريح التى تنفذ حتى قلب العشب كانت تسر اليه بعبارات الحنان الرقيق .. وكان يحس شيئا ما يطفو فى صدره ثم يتسع حتى يصل الى رأسه كلما امتلأت نفس المراهق فيه بذلك الائتلاف الحلو الذى يحيط به ، ورق شعوره تحت لثمات الطبيعة الحارة . وحينئذ كان يضع وجهه بين أعواد العشب النضر الندى ويستسلم للبكاء الخفيف ، ولكن لم تكن دموعه تنطوى على أى احساس بالمرارة . وفى بعض الاحيان كان يتناول مزماره ويقبل عليه بعقله الشارد فيرتجل بعض الالحان الحالمة التى تترجم عن عواطفه وعن هدوء الاستبس العميق .

ومن البديهى أن كل حركة بشرية تعكر صفو هذا السحر كانت تحدث فى نفس بطرس شعورا بالنشاز والفلظة والألم . فلم يكن يستطيع الاتصال فى مثل هذه اللحظات الا بنفس صديقة ، نفس قريبة من نفسه حقا ، ولكنه لم يكن له صديق من سنه الا تلك الفتاة الشقراء التى تسكن المزرعة المجاورة .

وكانت هذه الصداقة تقوى يوما بعد يوم وتمتاز بالصدق التام والتبادل الكامل من الجانبين . واذا كانت ايفلين تغذى هذه الصداقة بهدوئها الجميل ومرحها العذب وتزود بطرس بمعان جديدة عن الحياة التى تحيط بهما ، فان بطرس من ناحيته كان يشاطرها ... آلامه . وكان يبدو كما لو كانت المقابلة الاولى بين ايفلين والفتى الاعمى قد أصابت قلب هذه المرأة الصغيرة الحساس بجرح عميق . وكان يبدو انها لو نزعت

الخنجر الذى طعنها لتنزف دمها حتى الممات . فلم تكد تلتقى بالفتى وتعرفه فوق التل حتى أحست نحوه بألم الحنـــان الوخاز ، ومن ذلك الحين أصبح وجوده بالنسبة لها نوعا من الحاجة التى لا تستطيع العيش بدونها . وكانت تشعر شعورا واضحا أنها اذا ابتعدت عن بطرس انفجر جرحها من جديد ، وثارت علتها ، وحينئذ تسرع الخطا نحو صديقها الصـــغير لكى تخفف من آلام نفسها بمواصلة العناية به .

جلس أفراد الاسرتين أمام المنزل فى مساء عذب من أمسيات الخريف ، يستمتعون برؤية السماء ذات الكواكب وزرقتهـــا الداكنة العميقة التى تنبض بالنور . وجلس الاعمى كعادته مع صديقته بجانب أمه .

ومرت على الحاضرين لحظة صمت عميق . وكان يخيم حولهم سكون تام لا يقطعه الا حفيف الاشجار التى كانت تدب فيها الحركة من حين لحين ، ثم لا تلبث أن تخمد .

وفجأة انطلق شهاب لامع من أعماق الســـماء ورسم فى زرقتها خطا مضيئـــا تاركا وراءه أثرا فسفوريا أخذ يختفى ببطء .. !

فرفع الجميع أعينهم وكانت أنا ميخايلوفنا تجلس بجوار بطرس وتمسك بيده ، فشعرت به يرتعد ويضطرب ، ثم يدير نحوها وجهه المذعور ويسألها .

ـ ما هذا ؟

ـ هذا نجم يهوى ياعزيزى !

ـ فأجاب : « آه ! نعم .. نجم .. » ثم قال وهو شارد الذهن : « كنت أعرف ذلك ؟ » .

فسألته أمه فى نغمة حزينة ، وهى غير مصدقة : « كيف استطعت أن تعرفه ياحبيبى ؟ » .

وردت عليها ايفلين : بلى .. بلى .. انه يعرف كثيرا من الاشياء هكذا ..

تشير هذه الحساسية التى تزداد حدة بمرور الايام الى أن بطرس أخذ يقترب من تلك السن الحرجة التى تفصل بين المراهقة والشباب ، ولكن نموه كان يسير نحو غايته بهدوء لا بأس به . بل كان يخيل الى من يراه أنه قد استسلم لمصيره الحزين ، وان هذا الحزن المتزن الذى يخلو من الامل والفورات الموجعة ويكون جوهر كيانه قد هدأ الآن بعض الشىء .. ولكن هذا لم يكن الا نوعا من الهدنة . ويبدو أن الطبيعة تمنح مثل هذه الهدنات عن قصد عميق وغرض مدبر ، وذلك لكى يشتد الجسم الناشىء ويستعد لدوامة جديدة . وهذه الفترات الهادئة هى التى تتراكم فيها المسائل الجديدة وتنضج . وتكفى هزة واحدة حتى يهتز كل ذلك التوازن من أساسه ، كما ينقلب البحر بتأثير عاصفة مفاجئة .

# الفصل الخامس

مرت بضعة أعوام . .

وظل القصر على حاله لم يتغير . . . واستمرت أشجار الزان تبعث بحفيفها فى الحديقة وان كانت أوراقها قد أصبحت أكثر غزارة ودكنة عن ذى قبل ، واحتفظ البيت الابيض بمظهره المضياف الكريم ، وان كانت جدره قد تراخت بعض الشىء . . وظلت سقوف القش التى تغطى ملحقات القصر متشابكة متماسكة كما كانت ، وحتى مزمار يوخيم ظل يسمع فى ساعاته المعلومة ، مع ذلك الفرق الوحيد ، وهو أن يوخيم الذى بقى عزبا ، كما كان ، أصبح الآن يفضل الانصات الى سيده الصغير وهو يلعب بالمزمار أو يعزف على البيانو . !

وأصبح شعر العم مكسيم أكثر بياضا من ذى قبل . ولما لم يولد لآل بوبلسكى طفل آخر ، فقد ظل الاعمى كما كان منذ أيامه الاولى ، المحور الذى تدور حوله كل حياة القصر . أما القصر نفسه فقد حصر نفسه فى دائرة ضيقة جدا ، وقنع بحياته الوادعة التى ارتبطت بحياة المزرعة المجاورة الوادعة أيضا .

وهكذا وصل بطرس الى سن المراهقة بالتدريج . حيث شب كزهرة البيت الزجاجى ، بعيدا عن التأثيرات الفنية للحياة القاسية .

وكان الطفل كذى قبل ، يجد نفسه وسط عالم مظلم

مترامى الاطراف . فكان الليل يمتد من حوله الى مالا نهاية له . وكان كل كيانه الرقيق الحساس الى حد الاسراف كالوتر المشدود ، مستعدا للذبذبة لدى أى تأثير . وكان هذا التحفز العصبى يحس بوضوح فى مزاج الاعمى . اذ كثيرا ماكان يشعر أن الليل سيمتد نحوه بيدين خفيفتين فيمس ذلك الشىء الغامض الذى يستكن فى نفسه وينتظر الاستيقاظ .

ولكن الليل المألوف للقصر ، ذلك الليل العذب الرتيب ، لم يكن يسمعه غير الحفيف اللطيف ينبعث من الحديقة العتيقة ويغمره فى جو من الحلم الغامض الوديع . أما العالم القصى فان الاعمى لم يكن يعرفه الا من خلال الاغانى والكتب . اذ ان الاحاديث التى كان يسمعها من ذويه تحت همسات النسيان الحالم حيث يقضى ايامه الريفية المتشابهة ، لم تكن تحمل اليه الا أصداء باهتة من عجيج العالم البعيد وهمومه . وكان كل ذلك يمثل امامه وكأنه غفوة او حكاية او حلم وصل اليه من خلال حجاب سحرى .

ظن من فى القصر ان كل شىء يسير على مايهوون . واعتقدت الام أن العزلة التى نشأ ابنها فيها قد حاطت نفسه بنوع من النوم جعلها تحيا فى حلم مضلل كاذب ولكنه مهدىء ، واصبحت تشفق من ايقاظها .

لم يشعر أحد الا وقد كبرت ايفلين وترعرعت واخذت تتأمل ذلك الهدوء المسحور بعينين صافيتين قد يقرأ المرء فيهما احيانا نوعا من الدهشة وعدم الثقة فى المستقبل ، ولكنه لايرى فيهما أبدا ما يعبر عن فقدان الصبر .

اما الوالد بوبلسكى فكان يدير ضياعه على خير وجه ، ولكن هذا الرجل الطيب لم يكن يهتم بمستقبل ابنه الا اقل من القليل اذ أنه قد تعود أن الامور تصلح نفسها من ذات نفسها . وكان العم مكسيم الذى يختلف فى طبيعته عن غيره هو الوحيد الذى لم يكن يطيق هذا الهدوء ويعتبره حالة عابرة تكون جزءا

من خططه ان طوعا وان كرها . وقرر فى نفسه ان يقوى نفس الطفل لكى تقوى على مقاومة صدمة الحياة العنيفة .

وفيما عدا ذلك كانت الحياة ترغى وتزبد وتضطرب خارج هذه الدائرة السحرية ثم جاء يوم قرر فيه المعلم العجوز ان يفصم هذه الدائرة ويفتح باب البيت الزجاجى ليدخل تيارا من الهواء الطلق القادم من خارجه .

بدأ العم مكسيم بدعوة زميل له عجوز يقطن على بعد سبعين فرسخا من قصر آل بوبلسكى . وقد كان يتردد فيما مضى على هذا الزميل السيد ستاوروتشنكو . ولكنه علم أن لديه جماعة من الشبان يقومون بزيارته فكتب اليه خطابا يدعوه فيه هو وزائريه .

قبلت هذه الدعوة بسرور عظيم ، اذ ان العجوزين كانا صديقين منذ القدم ، اما الشبان فانهم كانوا ، ولا شك يذكرون اسم مكسيم ياتسنكو الذى طبقت شهرته البلاد فيما مضى ، وعرف باحتضانه لتقاليد معينة . وكان أحد ولدى ستاورو تشنكو طالبا بجامعة كييف حيث يدرس اللاهوت الذى كان محط آمال الشبيبة فى ذلك الحين . والاخر كان يدرس الموسيقى فى معهد بطرسبرج الموسيقى . أما الثالث فكان زميلا لهما طالبا بالمدرسة الحربية وابنا لاحد الملاك المجاورين وقد أحضراه معهما .

كان ستاورو تشنكو شيخا قوى الاصلاب ، أشهب الشعر يطلق شاربه ويلبس بنطلونه الفضفاض على طريقة القوازق ويعلق فى حزامه كيس الطباق ، ولا يتكلم الا بالاوكرانية وكان هو

يسير بجانب ولديه فى معطفيهما الابيضين وقميصيهما المطرزين على الطريقة الاوكرانية ، كثير الشبه بتاراس بولبا ، غير أنه يخلو من تلك الروح الرومنسية التى تميز بطل جوجول الشهير ، بل كان على العكس من ذلك من ملاك الارض العمليين الى أقصى حد ، واستطاع بدهائه أن يوفق بين مصالحه ونظام الرق الزراعى توفيقا تاما ، ولما ألغى هذا النظام استطاع أيضا أن يكيف نفسه تبعا للظروف الجديدة .

وكان ككل نبلاء الريف يعرف افراد الشعب جميعا ، أعنى يعرف كل فلاحى ضياعه باسمائهم ، وجميع ابقارهم . وما فى اكياسهم من نقود على وجه التمام تقريبا .

واذا كان الامر يصل بينه وبين ولديه الى حد التماسك بالايدى كما كان الحال بين تاراس بولبا وأبنائه . فان ضروب النزاع بينه وبينهما كانت متواصلة لاتكاد تنقطع ، اذ كانت المناقشات الحادة تحتدم بين الاب العجوز وولديه الشابين لأتفه الأسباب سواء أكانوا فى البيت أم خارجه ، وكانت هذه المناقشات تبدأ ببعض عبارات المزاح التى يوجهها ستاوروتشنكو الى ولديه ويصفهما فيها « بالمثاليين » وحينئذ يحتد الشابان ويثور الوالد ويعلو الصخب بين الفريقين لان كلا منهما يحمل على الاخر دون هوادة .

ولم يكن ذلك الا انعكاسا للتعارض التقليدى بين الآباء والابناء ، ومع ذلك الفارق البسيط ، وهو ان هذه الظاهرة كانت تظهر لدى آل ستاورو تشنكو مخففة بعض الشىء .

كان الابناء يرسلون الى المدارس منذ نعومة أظفارهم ، فلا يرون الريف الا أثناء العطلات التى لم تكن بالطويلة ، ولذلك لم تكن لديهم تلك المعرفة الشخصية بالشعب التى يتميز بها « الآباء » . وحينما انتشرت هواية « حب الشعب » بين المجتمع كان الشبان فى الفصول العليا من المدارس الثانوية . فبدءوا يدرسون الشعب ولكن عن طريق الكتب أولا . ثم اتجهوا بعد ذلك الى الدراسة المباشرة للعبقرية الشعبية فى مبتكراتهم

فكان الطلاب يرتدون المعاطف البيضاء والاقمصة المطرزة كما يفعل الفلاحون ، ويذهبون الى الريف ليتصلوا بالشعب اتصالا مباشرا ، وذلك الامر كان موضة العصر ، ولم يكن احد منهم يعنى كثيرا بدراسة الظروف الاقتصادية بل كانوا يكتفون بتسجيل الكلمات والموسيقى والاغانى الشعبية ويدرسون الاساطير ويقارنون الاحداث التاريخية بصداها فى ذاكرة الشعب ، وعلى وجه العموم ينظرون الى الفلاح من خلال المنظار الشعرى للرومنسية القومية . وفى الحقيقة لم يكن للشيوخ أى اعتراض على ذلك ، ولكنهم كانوا لايستطيعون التفاهم مع الشبان .

دفع ستاورو تشنكو العم مكسيم بمرفقه ليوجه نظره الى الطالب المنهمك فى خطبته ووجهه يلتهب كالشرر ، ثم قال له : أنصت أنصت الى هذا المهرج ! انظر اليه وهو يتكلم كأنه كتاب ! ان من يسمعه يظن ان له رأسا حقيقة لا مجازا ! ولكن قص علينا انت ، أيها العالم ، كيف تأتى لصاحبنا نتشيبور ان يتغلب عليك ؟

وراح العجوز يحرك شاربيه ويقهقه بملء شدقيه وهو يروى الحادثة بمرح أوكرانى خالص . وقد علت حمرة الخجل وجه الشبان ، ولكنهم لم يغلبوا على أمرهم . « فانهم اذا كانوا يجهلون نتشيبور وفدكو المقيمين فى هذه القرية أو تلك ، فهم يدرسون السمات المميزة للشعب كله الذى ينظرون اليه نظرة سامية وهى النظرة الوحيدة التى تسمح لهم بالوصول الى نتائج وتعميمات رجعية . انهم يوجهون نظرة شاملة للافق بجميع مناظره البعيدة ، فى حين أن الشيوخ الغارقين فى الروتين حتى اعناقهم يرون الاشجار جيدا ، ولكنهم لايرون الغابة » .

ولم يكن الشيخ المسن يشعر باية غضاضة وهو ينصت الى الخطب العلمية تنهال من فم ولديه ، بل راح يقول للسامعين وهو ينظر اليهم بشىء كثير من الرضا :

من الواضح انهما لم يضيعا وقتهما فى المدرسة دون جدوى، ولكنى مع ذلك لا أتحرج من أن أوجه اليكم هـــذه الملاحظة ؛ وهى أن فدكو الذى يعمل فى ضياعى ، يستطيع وهو الفـلاح الساذج ان يسوقكم أمامه ، كعجول البقر فى طرف قطعة من الخيط . نعم ! نعم ! أما أنا فأستطيع أن أطوى فدكو الخبيث هذا اربع طيات ، وان اضعه فى كيس طباقى . ومعنى ذلك انكم أمامى لستم الا جراء صغيرة أمام كلب كبير .

انتهت احدى المناقشات التى من هذا القبيل ، ثم دخل الشيوخ البيت . وبعد ذلك كان يسمع صوت ستاوروتشنكو من حين لحين خلال النوافذ المفتوحة ، وهو يقص الحكايات المرحة على سامعيه الذين لاينفكون عن الانفجار بالضحك .

بقى الشبان فى الحديقة . وطرح طالب كييف بمعطفـــه الاوكرانى على الارض وزاح قلنسوته على قفاه ثم استلقى فوق العشب بشىء من الاستهتار الذى لايخلو من الادعاء . وجلس أخوه الأكبر مع ايفلين على درج السلم . وجلس بجانبهما ضابط المستقبل وقد ربط أزرار حلته حتى عنقه . أما الفتى الاعمى فقد وقف بعيدا عنهم وقد أطرق برأسه نحو الارض واعتمد على النافذة بمرفقه ، وراح يفكر فى المناقشات التى سمعها وتركت فى نفسه أثرا عميقا .

وسأل الشاب ستاوروتشنكو جارته قائلا : مارأيك ياآنسة ايفلين ، فانى اعتقد ، اذا لم أكن مخطئا ، انك لم تتركى كلمـــة واحدة من مناقشتنا تند عنك ؟

ـ كل ذلك حسن ، أعنى كل ماقلته لابيك . ولكن . . .

ـ ولكن ماذا ؟

ولم تجب الفتاة من فورها بل وضعت شغلها على ركبتيها وأمالت رأسها قليلا ، ثم أخذت تتفحصه بتمعن ، حتى كان من يراها لا يعرف : هل كانت تعدجوابها أو تفكر فيما اذا كان يجدر بها أن تغير خطة الشغل ؟ . .

وتعلقت انفاس الشبان شوقا الى سماع جوابها . ونهض الطالب قليلا معتمدا على مرفقه وادار وجهه المتعطش للاستطلاع نحو ايفلين ، وحدق فيها جارها بنظرته الهادئة وأدار وجهه نحو الحاضرين .

وأخيرا قالت الفتاة بصوت منخفض ، وهى تواصل النظر الى شغلها : ولكن . . . ولكن أجد ، انا ، أن لكل انسان طريقه فى الحياة .

وصاح بها الطالب : « أوه ، يا الهى ! ما هذه الحكمة ! أتستطيعين ، يا آنستى ، أن تخبرينى كم سنك ؟

واجابت الفتاة بكل بساطة سبع عشرة سنة . ثم اضافت على الفور باستطلاع تخالطه السذاجة والانتصار : كنت تظننى أكبر سنا ، أليس كذلك ؟

فانفجر الجميع بالضحك ، ثم قال الطالب : لو سألنى أحد عن سنك ماترددت فى القول بأنه بين الثالثة عشرة والثالثة والعشرين . نعم ! نعم ! هذا حق . فأحيانا يخيل لمن يراك انك فتاة صغيرة جدا ولكنك فى بعض اللحظات تفكرين تفكير المرأة الكبيرة المجربة .

واجابت المرأة الصغيرة بلهجة الاستاذية وهى تتناول شغلها من جديد : اسمع ياجافلو بتروفتش ، ما دام الحديث يتناول أمورا جدية ، فانه يجب التفكير بكل جد .

ومرت لحظة صمت على الجميع . ثم استأنفت ابرة ايفلين سيرها المطرد خلال الشغل ، على حين أخذ الشبان يتأملون بكل استغراب تلك المرأة الصغيرة المفعمة بالحكمة .

كبرت ايفلين وترعرعت منذ لقائها الاول مع بطرس بطبيعة الحال . ولكن ملاحظة الطالب كانت صادقة كل الصدق . اذ أنه كان يخيل لمن يلقى أول نظرة على هذه المخلوقة الصغيرة النحيلة ، انها لاتزال فتاة صغيرة . ولكن اشاراتها البطيئة المتزنة كانت تدل فى بعض الاحيان على وثوق المرأة الناضجة وكذلك الحال بالنسبة لوجهها . ويبدو ان مثل هذه الوجوه لاترى الالدى النساء السلافيات . فملامحهن الجميلةالمتناسقة تبدو وكأنها رسمت بخطوط ملفوفة ثابتة وعيونهن الزرقاء تنظر اليك فى هدوء وصفاء ، ولا تتورد خدودهن الا نادرا ، ولكن شحوبهن ليس ذلك الشحوب المعتاد المتحفز للالتهاب تحت تأثير أية عاطفة حارة . ولكنه بالاحرى أقرب الى بياض الثلج البارد . وكان شعر ايفلين الاشقر المائل الى الدكنة على مفرقيها الشبيهين بالرخام المصقول يسقط خلف عنقهافى صورة غديرة ثقيلة تبدو كانها تجذب رأسها الى الوراء حين تسير .

وصار الفلام الاعمى هو الآخر فتى يافعا . وهنالك وقف بعيدا عن الجماعة وقد تجلى شحوبه وجماله وحاسسيته فى أجلى مظاهرها . وكان اول ما يجذب انتباه الناظر اليه ذلك الوجه الغريب الذى تنعكس عليه حركات نفسه جميعها بكل وضوح وكان شعره الاسود الجميل يتموج فوق جبهته البارزة التى غطتها التجاعيد قبل الاوان . وكان خداه ينعقدان فجأة بلون وهاج لايلبث ان يختفى ليحل محله نوع من الشحوب الهادىء وكانت شفته السفلى التى تنخفض انخفاضا خفيفا من كلا جانبيها ترتعد من حين لحين ، وحاجباه يتقوسان ويضطربان

من قرط القلق وعيناه الواسعتان الجميلتان اللتان تلقيان على العالم نظرة جامدة تشيعان فى وجهه الشاب نوعا من الاكتئاب القريب .

وبعد فترة قصيرة قال الطالب متهكما : تيقنى ، يا آنسة ايفلين ، ان كل ما دار الحديث حوله منذ لحظة أثقل من أن يصل الى العقل النسوى ، لان مصير المرأة محدود بذلك المحيط الضيق الذى ينحصر بين غرفة الاطفال والمطبخ ؟

وكان ينبعث من صوت الشاب احساس بالثقة بالنفس والتهكم المثير ( اذ كانت هذه الكلمات موضة العصر فى ذلك الحين ) . فسكت الجميع لحظة وعلت وجه الفتاة حمرة عصبية ، ثم قالت : انك تتعجل بعض الشيء فى اصدار أحكامك فأنا قد فهمت كل ما قيل هنا ، ومعنى ذلك أن العقل النسوى قادر على فهمه . وانا لم أتكلم الآن الا عن نفسى شخصيا .

قالت ذلك ثم سكتت ، واقبلت على شغلها بكل انتباهها حتى ان الشاب لم يجرؤ على الاستمرار فى استجوابها .

وبعد ذلك تمتم بقوله : « يخيل للمرء انك قد رتبت مقدما حياتك حتى القبر » . فردت عليه ايفلين بهدوء تام : « وأى غرابة فى ذلك ، ياكفريلوبتروفتش ؟ فانا اعتقد ان أيليا ايفانوفتش ( وهو اسم تلميذ المدرسة الحربية ) قد رتب حياته بالفعل ، وهو مع ذلك أصغر منى سنا .

وأجاب أيليا مبتهجا بهذه الملاحظة . هذا حق ! وقد قرأت منذ زمن غير طويل ترجمة الجنرال الشهير ن . ن .. وهو قد عاش كل حياته تبعا للخطة التى وضعها فى شبابه . فتزوج فى سن العشرين ، وأصبح قائد فرقة فى سن الخامسة والثلاثين .

وعندئذ ضحك الشاب ضحكة ساخرة ، وعلت وجه الفتاة حمرة خفيفة .

وبعد دقيقة علقت الفتاة بصوت يبدو فيه البرود وعدم الاكتراث : واذن فانت ترى جيدا ان لكل شخص طريقة .

لم يعد الى الاعتراض عليها احد . وخيم الصمت على الشبان الذين أحسوا فجأة بشيء من الحرج . اذ شعر الجميع شعورا غامضا بان الحديث قد مس امورا شخصية ، وأن هذه الكلمات البسيطة قد أصابت وترا حساسا فانطلق بالرنين ..

لم يكن يسمع فى هذا السكون الا حفيف البستان العتيق الذى حار نوره الى غيام وبدت عليه مسحة من عدم الرضا ..

انقضت على الاعمى بصورة مفاجئة كل هذه الاحاديث والمناقشات ، وهذا السيل المنهمر من المسائل الجديدة ومن الآمال والارهاصات والآراء فبدأ ينصت باعجاب بالغ الحد فى أول الامر ، ثم لم يلبث أن أدرك ان هذه الموجة الحية تمر بجانبه دون ان تمسه .

لم يوجه اليه أحد سؤالا ، ولم يطلب اليه أحد أن يدلى برأيه ، بل ظل بعيدا فى عزلته التى زاد من حزنها أن الحياة فى القصر اصبحت أكثر أضطرابا من ذى قبل .

وبالرغم من ذلك استمر الفتى فى الانصات الى كل هذه الامور الجديدة كل الجدة بالنسبة له ، وقد بدا اهتمامه الشديد بما يسمع فى تقطيب حاجبيه وشحوب وجهه . ولكنه كان اهتماما حزينا ينم عن عمل للعقل فيه من الألم بقدر ما فيه من المرارة .

أخذت الام تنظر الى وليدها بحزن عميق . وكانت عينا ايفلين تعبران عن القلق والرحمة . ويبدو ان العم مكسيم وحده هو الذى لم يلمح الألم الذى أحدثه فى الفتى هذا المجتمع الصاخب

ولذا دعا اصدقاءه الى زيارة القصر كلما واتتهم الفرصة ووعد الشبان منهم بان يقدم لهم فى الزيارة القادمة عددا كبيراً من الوثائق الخاصة بالأجناس .

فوعد الزوار ان يكرروا الزيارة بعد قليل ، وذهبوا لحالهم وضغط الشبان على يد بطرس بكل حرارة وهم يودعونه . وأجاب هو على تحيتهم بحماس تلقائى ، وظل زمنا طويلا يرهف أذنه لسماع ضوضاء العربة . ثم استدار فجأة ورجع الى الحديقة .

وهدأ كل شىء فى القصر بعد ذهاب الزائرين ، ولكن هذا الهدوء كان يبدو للفتى غريبا غير معتاد . اذ ان كل شىء فى القصر حتى الهواء نفسه ، كان يشير الى ان أمرا هاما قد حدث فيه وذلك أنه كان يخيل للفتى أنه لا يزال يسمع أصداء الاحاديث السابقة فى ممرات الحديقة التى عادت الى صمتها القديم ، الذى لايقطعه غير الهمس المنبعث من اشجار الزان والبنفسج . وفتحت نافذة الصالون فجأة ، فترامت الى اذنه أصداء مناقشة تدور بين أمه وايفلين والعم مكسيم . وكان صوت الام ينم عن الرجاء والالم ، كما كان صوت ايفلين ينم عن السخط والغضب . اما العم مكسيم فكان يبدو لبطرس انه يعمل بحزم وحماس لايقاف هجوم المرأتين . ولم يكد الفتى الاعمى يقترب حتى كفوا فجأة عن النقاش .

وهكذا أقدم العم مكسيم بيده القوية الصارمة على فتح أول ثغرة فى الجدار الذى أحاط بعالم ابن أخته حتى هذا الحين ، ومن هذه الفتحة اندفعت أول موجة رنانة عنيفة الى ذهن الفتى المراهق ، فاهتز توازنه المعنوى تحت هذه الصدمة الاولى .

أصبح يشعر الآن بضيق دائرته السحرية ويتبرم بهمس البستان العتيق وهمهمته البطيئة ويضيق ذرعا بذلك النوم الرتيب الذى يخيم على ذهنه . وشرعت الظلمات المحيطة به

تخاطبه بأصوات جديدة ساحرة . وقد امتلأت بصور جديدة راحت تتراكم وتتدافع فى اختلاط لايخلو من الاغراء والجاذبية

كانت هذه الصور تناديه وتسحره وتوقظ الغرائز الكامنة فى نفسه ، وكانت تلك النداءات تظهر على وجهه فى شكل شحوب ، وفى قلبه فى شكل ألم صامت غير محدود .

لم تخف هذه الاعراض المقلقة على المرأتين . فنحن ، معاشر المبصرين ، نلاحظ انعكاس الانفعالات على وجوه الاخرين ، ولذلك نتعلم كيف نستر انفعالاتنا . اما غير المبصرين ، فليس لهم فى هذا الميدان من ماعلم . ولذلك كان من الممكن لمن شاء أن يقرأ وجه الشاب الشاحب بالسهولة التى يقرأ بها مذكرات خاصة تركت مفتوحة فى أحد الصالونات ... اذ كان يرتسم عليه قلق أليم . وكانت المرأتان تعرفان أن العم مكسيم قد لاحظ ذلك هو الاخر ، ولكنه كان يكون جزءا من خططه واعتبرتاه ضربا من القسوة حاولت الام أن تحمى منها وليدها .

« بيت من الزجاج ؟ وأى ضير فى ذلك مادام ابنها قد رضى عن طيب خاطر حتى الآن ؟ فليبق فيه ، والى الأبد ... بعيدا عن الهموم والعواطف » .

ولم تكن ايفلين ، بطبيعة الحال ، تعبر عن كل مايخفق به قلبها ، ولكنها منذ حين غيرت سلوكها مع العم مكسيم ، فبدأت تعارض بعض مشروعاته بعنف غير معتاد ، ولا سيما تلك المشروعات التى تبدو عديمة الاهمية فى بعض الاحيان .

وكان الشيخ ينظر اليها من تحت حاجبيه الكثين بعينيه الفاحصتين ، فتلتقى نظرته ونظرة الفتاة المتقدة الثائرة . وفى الوقت نفسه كان يهز رأسه ويتمتم بشىء ما ويحوط نفسه بطبقة من الدخان أسمك من المعتاد ، مما يدل على انهماكه فى التفكير العميق . ولكنه كان يصر على رأيه دائما ، وفى بعض الاحيان يتكلم دون أن يوجه الكلام لشخص معين ، فيصدر احكاما قاسية عن حب النساء الاحمق وذكائهن الذى هو أقصر من شعرهن كما يقول المثل ، ثم يعقب قائلا : وهذا هو السبب فى ان المرأة لاتستطيع ان ترى ابعد من هم اللحظة

الحاضرة او سرورها . وذلك انه لم يكن يبحث لبطرس عن الطمانينة وراحة البال ، بل عن الحياة المملوءة بقدر الامكان . ويقول المثل السائر : ان كل مرب يجتهد فى ان يجعل تلميذه صورة منه . والواقع ان العم مكسيم كان يفكر فيما عاناهو شخصيا وما ضاع منهقبل الاوان فىالحياةالمتأججة وفى الكفاح ولكن على أى صورة ؟ هذا ما لم يكن يعرفه هو نفسه ، فكان يسعى بقدر الامكان الى توسيع دائرة الانطباعات الخارجية التى تستطيع الوصول الى ذهن الفتى الاعمى ، ولو ادى ذلك الىتعريضه للانفعالات الشديدة أو حتى الى قلب كيانهالنفسى وقد شعر بان المرأتين تريدان للفتى شيئا آخر .

وكان فى بعض الاحيان يقول لاختـــه على سبيل الملام : يا أم الكتاكيت ! كان يقول لها ذلك ، وهـــو يضرب الارض بعكازتيه علامة على غضبه .

ولكنه لم يكن يغضب الا نادرا ، اذ كان فى معظم الاحيان يقابل حجج اخته بملاحظات كلها حنان واشفاق ورحمة . هذا الى ان انا ميخايلوفنا كانت تسارع بالتسليم لاخيها كلما انفرد بها ، ولكن ذلك لم يكن ليمنعها من استئناف جدلها معه بعد وقت قصير .

غير ان الامور كانت تتخذ مظهر العنف كلما حضرت ايفلين وفى هذه الاحوال كان العم مكسيم يفضل الصمت اذ يبدو انه قد نشأ نوع من الصراع بين الشيخ الطيب والفتاة ، وان كلا منهما حصر جهده الآن فى دراسة الاخر مع اخفاء موقفه عنه بكل عناية .

بعد ذلك بحوالى خمسة عشر يوما عاد الشبان الى القصر يصحبهم ستاوروتشنكو العجوز ، فاستقبلتهم ايفلين بتحفظ

ظاهر . ولكنها مع ذلك لم تستطع مقاومة اعجابها بهذا الحماس الفتى . وكان الشبان يقضون نهارهم كله فى الطواف فى القرية والتجوال فى الحقول والبحث عن اغانى الحصادين وتسجيلها . وبالليل يجتمعون كلهم على سلم الحديقة .

وذات مساء كانوا مجتمعين فجرهم الحديث الى تناول بعض الموضوعات الحساسة دون أن يتوافر لايفلين الوقت لتدرك كيف تم ذلك . باى طريقة اتخذ الحديث هذه الوجهة ؟ ومن الذى بدأ بتوجيهه اليها ؟ لم يكن فى وسعها ولا فى وسع غيرها ان يجيب على هذه الاسئلة . فقد حدث ذلك بصورة غير ملحوظة كما توارت الشمس خلف الافق بصورة غير ملحوظة ايضا ، حتى لم يدر الحاضرون الا والظلام قد خيم على الحديقة وانطلق البلبل يشدو بأغنيته المسائية بين الاغصان .

كان الطالب يتكلم بحماس مشتعل ، بذلك الاندفاع الذى يميز الشبان حين ينطلقون لمواجهة المستقبل المجهول دون تفكير او تدبير . وكان لهذا الايمان بالمستقبل المفعم بالمعجزات قوة خارقة ، قوة العادة التى لاتكاد تخضع للمقاومة .

اشتعلت الشابة حماسا ، لانها ادركت ان هذا التحدى موجه اليها هى دون سواها وبطريق مباشر ، ولكن ربما عن غير شعور من المتكلم .

كانت تتصت وهى منكبة على شغلها ، وكانت عيناهاتلمعان وخداها يقذفان باللهب وقلبها يخفق .. ثم انطفأ بريق عينيها وتقلصت شفتاها وازداد قلبها خفقانا وظهر الذعر على وجهها الشاحب .

واذا كان الذعر قد استولى عليها ، فذلك لان جدارا سميكا كان يقوم امام بصرها ثم انهار وتفتحت امامها آفاق بعيدةتشرف على عالم يعج بالنشاط .

نعم ، كان هذا العالم يجتذبها اليه منذ زمن طويل ، دون ان تفطن اليه بوضوح ، ولكنها كانت تجلس الساعات الطوال

على مقعد فى ظلال الحديقة العتيقة وتغرق فى احلام عجيبة ، ويمثل لها خيالها صورا براقة تتلاشى فى الافق البعيد الذى لامكان فيه للفتى الاعمى .

والآن يقترب منها هذا الكون فهو لم يعد يكتفى بجذبها اليه ، بل راح يذكرها بحقوقه عليها .

وبعثت بنظرة سريعة فى اتجاه بطرس ، وحينئذ شعرت بقلبها ينقبض ، وكان هو جالسا دون حراك غارقا فى تأملاته ، ويبدو ظله من الجماعة كما لو كان يكون بقعة سوداء .

« انه يفهم .. كل شىء .. » لمعت فى ذهنها هذه الفكرة لمعان البرق ، فاحست برعدة تسرى فى جميع كيانها . وتجمع الدم فى قلبها واحست بسحابة من الشعوب الفاجىء تغطى وجهها . وخيل اليها لحظة انها أصبحت هنالك بالفعل . فى ذلك العالم البعيد ، فى حين ان بطرس قد ظل هنا فى مكانه وحيدا مخفوض الرأس . لا ، بل بالاحرى ظل هناك فوق التل الصغير على حافة النهر ، وهو ذلك الطفل الاعمى الذى سبب لها أمر البكاء فى مساء ذلك اليوم ..

وحينئذ اعتراها ذعر مروع ، وخيل اليها ان شخصا مايريد انتزاع السكين من جرحها القديم .

وتذكرت نظرات ألهم مكسيم الطويلة . وعرفت أن هذا هو ماكان يقصد بتلك النظرات الصامتة ! وعلمت انه كان اعرف منها بحالتها النفسية ، وانه يحدس بان قلبها لايزال ميدان صراع محتمل ، وانه لايزال فى مقدورها ان تختار ، وانها لم تكن واثقة من نفسها .. كلا . لاشك انه مخطىء فى تقديره وانها لم تكن لتردد فى اتخاذ اولى الخطوات التى كان عليها ان تتخذها وبعد ذلك يصبح فى وسعها ان ترى ما يصح لها ان تأخذه من الحياة .

وتنفست ايفلين بحرج شديد كأنها تأخذ نفسها بعد مجهود مضن ، ثم سرحت نظرها فيما حولها .

ولم يكن فى مقدورها ان تعرف هل كان السكون المخيم حولها قد بدأ منذ قليل أو كثير ؟ وهل كان الطالب قد صمت منذ وقت طويل ؟ وهـل أضاف شيئا آخر الى ما سبق له قوله ؟ ...

وأخيرا ألقت نظرة على المكان الذى كان يجلس فيه الاعمى منذ دقيقة .

وكان الاعمى قد غادره ..

وحينئذ جمعت شفلينا بهدوء ، ونهضت بدورها ، وهى تقول لاضيافها :

ـ ارجو ان تعذرونى ايها السادة ، فانى مضطرة الى ان اترككم وحدكم لمدة دقيقة واحدة .

ثم سارت فى ممر مظلم .

لم يكن هذا المساء مشحونا بالقلق بالنسبة لايفلين وحدها فلم تكد الفتاة تصل الى منعرج الممر حيث وضع مقعد مستطيل حتى سمعت أصواتا مشوبة بروح التأثر العميق . ذلك أن العم مكسيم كان يتحدث مع أخته .

وكان يقول لها بنغمة قاسية : بلى ، لقد فكرت فيها بقدر ما فكرت فيه . فقد رت اذن انها طفلة لاتعرف شيئا عن الحياة وانا لا اريد ان اصدق انك تبتغين ان تستغلى جهل هـــذه الطفلة .

وبزغت الدموع فى صوت انا ميخايلوفنا . وهى تقـــول لاخيها :

ـ ولكن أنصت الى يا ماكس ... اذا ... اذا هى ... حينئذ ماذا يحل بطفلى المسكين ؟

ورد عليها الجندى العجوز فى نغمة حازمة متزنة : فليحل به ما يحل به .. وسنرى فيما بعد . ولكن لاينبغى ان نثقله بالشعور بأنه حطم حياة انسان آخر ، ولا ان نثقل به ضمائرنا أيضا ، ثم أضاف يقول بنغمة أقل عنفا : فكرى فى ذلك يا أنا !

ثم تناول يد اخته وقبلها بحنان . واطرقت انا ميخايلوفنا برأسها ، وهى تردد :

ـ يا طفلى المسكين .. يا صغيرى المسكين .. لقد كان من الخير له ألا يلتقى بها قط ..

وخرجت هذه الكلمات من شفتى الام خافتة الى حد جعل الفتاة تحدس بها أكثر مما تسمعها .

لم يكد صدى هذه الكلمات يداعب سمعها حتى اصطبغ وجهها بالحمرة . وتوقفت بصورة آلية لدى منعرج الممر . وذلك لانها اذا ظهرت امامهما الان ، ادركا فورا انها سمعت افكارهما الخفية .

ولكنها لم تلبث أن رفعت رأسها فى عزة وكبرياء . لانه لم يدر ببالها قط ان تسترق السمع ، وعلى أية حال لايصح لخجل زائف أن يثنيها أبدا عن مواصلة طريقها . هذا الى انها رأت أن الكهل يسرف بعض الشيء فى التدخل فى شئونها .. فهى وحدها التى تعرف كيف تنظم حياتها على النحو الذى تشاء ..

ودارت حول المنعرج ، ومرت امام الجالسين هادئة عالية الرأس . وسارع العم مكسيم يجذب عكازته من طريق الفتاة بحركة غير ارادية لكى يسهل لها المرور . اما أنا ميخايلوفنا فقد ألقت عليها نظرة مثقلة مفعمة بالحنان ، بل بالعبادة .. والخوف أيضا .

وكأن الام قد شعرت بأن هذه الفتاة الشقراء التى تمـــر أمامها فى تحد وكبرياء ، تحمل بين يديها سعادة ابنها أو شقاءه طوال حياته كلها .

كان هناك فى الركن الاقصى من الحـديقة طاحون قديمـة مهجورة ، توقفت عجلاتها عن الدوران منذ زمن طويل ، وكان الزبد قد طغى على الاشجار المحيطة بها ، والماء يتسرب من خلال السدود العتيقة فى صورة خيوط رقيقة يسمع لها خرير دائم وكان هذا مكان الاعمى المفضل ، حيث يجلس الساعات الطوال متكئا على حاجز الخزان ومصغيا الى زغردة الماء التى يعرف كيف يعبر عنها بالبيانو تعبيرا رائعا . ولكنه الان شارد العقل انه الان يذرع السرب الضيق بخطا عصبية وقلبه مفعم بالمرارة ووجهه معوج من وخز الالم .

ماكاد الفتى يسمع وقع أقدام الفتاة الهادىء حتى توقف عن المسير . فوضعت يدها على كتفه وراحت تسـأله بنغمـة كلها جد :

ـ قل لى يا بطرس ، ماذا بك ؟ لماذا هذا الحزن البادى على وجهك ؟ فأشاح عنها بوجهه فجأة ، واسرع يذرع الممر الضيق من جديد . وسارت الفتاة بجانبه .

وفهمت حركته الفجائية كما فهمت صمته . واطرقت برأسها الى الارض برهة وترامت الى الاسماع اغنية منبعثة من القصر :

من خلف الجبـــل
كانت تنطلق نسور
وتطـــــير وتصيح
وتبحث عن فريسة

فقد كان هناك صوت شاب قوى يصـــل الى السامعين خافتا بتأثير المسافة ، ويتغنى بالحب والسعادة والفضـــاء العريض ، فتسبح نبراته فى سكون الليل وتغطى همســـات الحديقة السماء .

هناك أناس سعداء يتكلمون عن حياة مملوءة غنية بالاحاسيس كانت معهم منذ دقائق ، ثملون بالتفكير فى مثل هـذه الحيـاة ولكن هذه الحياة ليس فيها مكان له . انها لم تفطن حتى الى ذهابه ، وتتساءل الآن : كم كانت هذه الدقائق القليلة طويلة عليه فى وحدته الاليمة ؟

كانت هذه الافكار تتزاحم فى ذهن الفتاة وهى تسير بجانب بطرس على طول الممر . ولم يكن قد تأتى لها قط ان تشعر بهذا العسر فى محادثة بطرس وفى السيطرة على مزاج صديقها ولكنها مع ذلك كانت تحس بان وجودها مع الاعمى يعمل على طرد أفكاره السود شيئا فشيئا .

والواقع ان مشيته أضحت أقل اندفاعا ، وعنـاءه أكثر هدوءا . كان يسمع خطا ايفلين بجانبه . فخف المه بالتدريج تاركا مكانه لعاطفة أخرى . ولم يكن قد فطن بعد الى هـذه العاطفة ، ولكنها اصبحت مألوفة له ، وصار يخضع لتأثيرها البار عن طيب خاطر .

وراحت الفتاة تكرر على مسامعه : ولكن ماذا بك ؟ الا تقول لى ؟

ويجيبها بطرس بمرارة : لاشىء ذا بال . ولكن يبدو لى انى اقحمت على هذا العالم اقحاما .

انتهت الاغنية التى كانت تنبعث من البيت ، ولم تمض دقيقة على صمتها حتى بدأت اغنية اخرى غيرها . وكانت هذه الاغنية لاتكاد تسمع . فقد اخذ الطالب الان يغنى شكاة يحاكى فيها طريقة عازف البندورا وكان الصوت يخفت فى بعض الاحيان ، فيستولى على الخيال جو من الحلم الغامض ، ولكن لم تكن تنقضى لحظة واحدة حتى يعود اللحن من جديد الى الاختلاط بحفيف الاوراق .

توقف بطرس على غير ارادة منه ، وارهف اذنه ، ثم شرع يتكلم بصوت حزين :

ـ يبدو لى ان القدامى على حق حين يقررون ان الحياة لاتزيدها الايام الا صعوبة . فقد كانت فيما مضى أيسر مما هى الان ، حتى بالنسبة للمكفوفين . وقد كان فى وسعى الا افكر فى البيانو ، وان اعزف على البندورا حيث يمكننى ان اجوب بها المدن والقرى . وفى هذه الحال لم يكن هناك بد من ان ينهال على الناس لكى ينصتوا الى التغنى بحياة اسلافهم وامجادهم ومآثرهم . وكنت اصبح انا الاخر شخصا له أهميته . اما الان ... ولكن حتى هذا الضابط الصغير الصارخ ، حتى هو لم يستكثر على نفسه ان يقول ، كما تذكرين ، انه سيتزوج ويصبح قائد جيش . نعم ، لقد ضحك من كلامه الجميع ، ومع ذلك فان هذا ايضا ليس من نصيبى ..

وتفتحت عينا الفتاة الزرقاوان من الرعب ، ولمعت فيهما دمعة حارة ، ثم قالت وفى صوتها اضطراب تحاول ان تخفيه بستار من الدعابة :

ـ كل هذا يرجع الذنب فيه الى الشاب ستاوروتشنكو الذى لايكف عن الثرثرة .

فأجابها بطرس ، وهو شارد الذهن : نعم ، لعل الامر كما تقولين . ثم اضاف ان له صوتا مريحا . وهو ياترى جميل الخلقة ؟

وردت عليه الفتاة بالنغمة الشاردة نفسها : نعم ، لابأس به ولكنها راجعت نفسها على الفور ، وقالت بصـــوت حاد يكاد يمتلىء بالغضب : كلا انه لايعجبنى باية حال ، فهو شـــديد الثقة بنفسه ، وله صوت صارخ كريه .

دهش بطرس من انفجارها بالغضب على هذا النحو . وضربت الفتاة ارض الحديقة بقدمها ، ثم واصلت كلامها تقول: كل هذه حماقات . وانا اعرف جيدا انها مناورات من مكسيم أوه ! ما اشد بغضى لهذا المكسيم !

وسألها الاعمى مذهولا . ماهذا الذى تقولين يا ايفلين ؟ عن اى مناورات تتكلمين ؟

وكررت ايفلين قولها باصرار . انى ابغضه انى ابغضه ! لقد مات قلبه ضحية لكل هذه المناورات . لاتكلمنى عنـــه ، أتوسل اليك الا تكلمنى عنه ! لماذا يعطى نفسه الحق فى التصرف فى حياة الاخرين ؟

ثم توقفت فجأة واوت يديها الرقيقتين بعنف جعـــل أصابعها تقصف قصفا مسموعا واخذت تبكى كالاطفال .

فاستولى على الاعمى نوع من الدهشة الممزوجة بالرحمة وتناول يدى الفتاة بين يديه . ولم يستطع تعليل هذه الازمة العصبية غير المتوقعة التى استولت على صديقته بالرغم من تحفظها الدائم واتزانها .. وراح فى الوقت نفسه ينصت الى زفرات ايفلين والى الصدى الذى ايقظته فى قلبه . فتذكر السنين الماضية وجلسته فوق التل الصغير حزينا مكدودا كما هو الآن ، وبكاءها بجانبه على نحو ماتبكى اليوم ..

وأخيرا خلصت يديها من يد الفتى الذى اعترته الدهشة من جديد حين سمعها تنفجر بالضحك ، وتقول :

ـ يالى من حمقاء ! لا أدرى لماذا بكيت ؟

ومسحت عينيها ، ثم قالت بصوت عذب يبدو فيه التأثر :

ـ كلا ، ياعزيزى ، لنكن عادلين .. انهما كليهما لطيفان

وكذلك لا بأس بما قاله هو الاخر .. ولكنه لاينطبق على جميع الناس .

وأجاب الفتى : لاينطبق الا على من يستطيعون الاستفادة منـــه ..

فقالت بصوت واضح النبرات ، وان كانت تمتزج فيه الابتسامة بتلك الدموع التى رأيناها منذ حين ؟ حماقات ! فلنأخذ العم مكسيم مثلا . لقد كافح هذا الرجل ما استطاع الى الكفاح سبيلا،وهو الان يعيش كما يستطيع .. وكذلك الحال بالنسبة لنا ..

ــ لا تقولى « لنا .. » فأنت شىء اخر ..

ــ كلا ، على الاطلاق .

ــ ولماذا ؟ .

ــ ذلك لانك .. لانك ستتزوجنى ، أليس كذلك ، حينئذ سنحيا معا حياة واحدة . فتوقف بطرس مشدوها ..ثم قال:

ــ أنا ؟ .. سأتزوجك ؟ اذن فأنت تريدين أن تكونى .. زوجتى ؟

وردت عليه الفتاة بسرعة وانفعال نعم ، نعم ! لاشك أنى اريد ذلك ! يالك من أحمق ! أحقا انك لم تفكر فى هذا الامر قط ؟ ومع ذلك فلا شىء أقرب منه الى البداهة . واذا لم تتزوجنى ، فمن التى تتزوجها ؟

ــ نعم ، هذا ما لاشك فيه . بذلك أمن الفتى على كلامها مدفوعا بنوع غريب من الانانية . ولكنه استدرك على الفور، فقال وقد أخذ يديها بين يديه :

ــ اسمعى يا ايفلين ، تذكرين أننا سمعنا الان أن الفتيات يذهبن الى المدن الكبيرة لاستكمال دراستهن فهنـــاك طريق واسع قد يفتح أمامك أيضا .. أما أنا ..

ــ ماذا ؟

ـ أما أنا .. فأعمى « بهذه النتيجة غير المنطقية أجاب الفتى على استفسار صديقته »

ومرة أخرى تذكر الفتى طفولته وتموجات النهر الهادئة وأول لقاء له بايفلين والدموع الحارة التى سكبتها الطفلة الصغيرة حينما نطق أمامها بكلمة « أعمى » ..

وأحس بغريزته بالالم الذى يسببه لها الآن وسبب لها مثله من قبل ، ولاذا بالصمت . وساد السكون لحظات لم يقطعها الا خرير الماء الذى يتساقط بين السدود ولم يسمع من ايفلين أدنى همس ، حتى كأنها قد اختفت .. وتقلصت ملامح وجهها لحظة من الزمن لم تلبث بعدها أن سيطرت على انفعالات نفسها ، ولما استأنفت كلامها كانت تبدو روح المزاح وعدم الاكتراث فى نبرات صوتها ، فقالت :

ـ وماذا فى ذلك ؟ نعم ، أنت أعمى .. ولكن اذا أحبت فتاة شابا أعمى ، فانها تتزوجه .. وهذا هو ما يحدث دائما ، والا فماذا تنتظر أن يكون ؟

ـ اذا أحبت فتاة .. هكذا راح يكرر كلمة صديقته وهو شارد الذهن مقطب الحاجبين ، وكأنه يزن الاصوات الجديدة لتلك الكلمة المألوفة ثم كرر السؤال بانفعال يتزايد بالتدريج : اذا أحبت فتاة .

ـ نعم ، ان كلا منا يحب صاحبه ، ألا ترى أنك أحمق ؟ فكر قليلا فيما اذا كنت تستطيع البقاء وحدك هنا من دونى !

وهنا شحب لون الفتى وتفتحت عيناه المكفوفتان وجمدتا فى وضعهما دون حراك ..

وساد المكان هدوء تام لايقطعه غير خرير الماء المتواصل. وكان يخيل للسامع أن هذا الخرير يهدأ فى بعض الاحيان حتى يكاد ينقطع ، ثم لايلبث أن يصدمه من جديد ليواصل نشاطه الابدى .. كما استمرت أوراق الكرز الداكنة فى حفيفها أما

الغناء المنبعث من جانب القصر فقد كف عن الرنين ، وحل محله العندليب الذى شرع يرسل ألحانه من خلف الغاب المحيط بالقدير ..

وأخيرا انفرجت شفتا بطرس ليقول بصوت مكتوم .. لو حدث هذا لكان من ورائه موتى ..

واهتزت شفتا ايفلين كما حدث فى أول لقاء لها ببطرس، وقالت بصوت ضعيف صبيانى ، وبعد جهد عنيف وأنا ايضا .. وحدى ، وبدونك .. فى غيابة هذا العالم المجهول البعيد ..

وشد بطرس بيده على يدها الصغيرة ، وبدا له من الغريب أن ضغط يدها الضعيف فى هذه المرة لايشبه ضغطها فى المرات السابقة .. فقد كانت أصابعها الصغيرة تتجاوب الان فى أعماق قلبه أكثر من ذى قبل .. وجد الان فى صديقة طفولته ايفلين أخرى ، وفتاة اخرى تختلف كل الاختلاف عن الفتاة التى سبقت له معرفتها .. وشعر فى نفسه بالقوة والشدة ، أما هى فقد بدت ضعيفة منهوكة .. وحينئذ رأى نفسه يجذبها باحدى يديه ويداعب شعرها باليد الاخرى ، مدفوعا بأعمق ضروب الحنان .

وفى هذا الحين شعر أن نفسه قد زال عنها كل هم ولم يبق لها أية رغبة لم تتحقق ، وأن وجوده كله ينحصر فى هذه اللحظة الحالية .

وشرع البلبل الذى كان يجرب صوته فى التفريد العذب ، وراح يوزع ألحانه الرنانة على أرجاء الحديقة الساكنة .

فانتفضت الفتاة وازاحت يد الاعمى بيدها المرتجفة من الخجل . وأذعن الاعمى لرغبتها وأخذ يتنفس ملء رئتيه ، ثم سمعها تصلح ترتيب شعرها ، فأحس بقلبه يخفق خفقانا قويا ، ولكنه منتظم مريح . وشعر بدمه الحار ينشر فى جسمه كله قوة جديدة ، ولما سمع الفتاة بعد قليل تقول له بصوتها

المعتاد : « هيا . فلنعد الان الى ضيوفنا » أنصت بدهشة عميقة الى هذا الصوت الحبيب وما فيه من ألحان جديدة لاعهد له بها .

جلس المدعوون واصحاب المنزل فى الصالون الصغير ، ولم يكن ينقصهم الا ايفلين وبطرس . وكان العم مكسيم يتكلم مع زميله القديم . أما الشبان فكانوا يجلسون صامتين بالقرب من النوافذ المفتوحة على مصاريعها وكانت الجماعة الصغيرة تحت سيطرة هذا السكون المتحفز الذى يعلن عن درامة غامضة وشيكة الوقوع ، درامة غير واضحة للجميع ، ولكن الجميع يحسونها ببصائرهم . وقدلاحظوا جميعا غياب ايفلين وبطرس فكان العم مكسيم لايكف عن القاء النظرات الحائرة نحو الباب . وبدت انا ميخايلوفنا وعلى وجهها مسحة من الحزن الذى يراه المرء عادة على وجوه الجارمين ولكنها كانت تبذل جهود الجبابرة لتظهر أمام ضيوفها بمظهر ربة البيت اللطيفة الكريمة . أما السيد بوبلسكى الذى لم تزده الايام الا بدانة فى الجسم واستدارة فى اللحم وطيبة فى النفس . فقد جلس على كرسيه شبه نائم ينتظر ساعة العشاء وهو هادىء البال مطمئن الخاطر .

وفجأة سمع الحاضرون وقع أقدام على أرض الشرفة التى تصل الحديقة بالصالون فاتجهوا بأبصارهم نحوها . وهنا بالقرب من منعطف الباب الكبير المظلم ظهر شبح ايفلين ومن خلفها الفتى يصعد السلم ببطء .

وشعرت الفتاة بكل هذه النظرات الفاحصة موجهة اليها ، ولكنها لم تضطرب فعبرت القاعة بخطاها المعتادة ، المتزنة دائما، وحين التقت نظرتها ونظرة العم مكسيم الخاطفة ، أجابت عليها بابتسامة زائفة ، وانطلق من عينيها بريق يعرب عن التحدى الممزوج بالسخرية . أما أنا ميخايلوفنا فقد اتجهت بكل كيانها الى وليدها كى ترقب كل حركة من حركاته .

كان الفتى يتبع ايفلين دون أن يعرف بالضبط الى أين تقوده الفتاة . وفجأة توقف على عتبة الغرفة المضيئة ، وظهر وجهه الشاحب وعوده الفارع كاللوحة الفنية يحيط بها اطار الباب . ثم دخل واتجه بسرعة نحو البيانو بسيماه الشاردة المركزة فى آن واحد .

وكانت الموسيقى أحد العناصر الرئيسية التى تتكون منها حياة القصر الوادعة ، ولكنها مع ذلك كانت أمرا خاصا كل الخصوص ، عائليا الى أقصى حد . ولذلك اعتاد بطرس ألا يقرب البيانو طوال الايام التى يمتلىء القصر فيها بالضوضاء والغناء ، حيث كان يتركه للابن الاكبر لستاورُوتشنكو الذى يحترف الموسيقى . وكان هذا الامتناع يزيد من عزلة الفتى فى هذا المجتمع الصاخب . وكان يشق على الام ، وهى تتبع شبح ابنها المنطوى على نفسه ، أن تراه حائرا وسط هذه الدوامة التى تفيض بالمرح والبهجة . والان ها هو ذا يتجه للمرة الاولى نحو مكانه المعتاد عن غير شعور على مايبدو ، ولكن بخطا ثابتة وكان من ينظر اليه يظن أنه قد نسى وجود الغرباء فى المنزل نسيانا مطلقا . هذا الى أنه لم يكد يدخل الصالون مع ايفلين حتى خيم عليه صمت كامل لعله جعل الاعمى يعتقد أن الغرفة خالية من بنى الانسان .

رفع الفتى غطاء الآلة الموسيقية وتحسس مشطها ، ثم عزف بضع نغمات خفيفة سريعة ، وكأنه كان يستجوب الآلة أو يختبر نفسه . وبعد ذلك وضع يديه على الازرار واستغرق فى تأملاته وازداد السكون المخيم على الصالون الصغير عمقا فوق عمقه .

وكان الليل يطل من فتحات النوافذ المعتمة ، فتبدو هنا تحت خيوط الضوء المنبعثة من المصباح بعض الاغصان الخضر وقد مدت أعناقها نحو الغرفة فى فضول غريب . وجلس الحاضرون صامتين يترقبون ، وقد تهيأت نفوسهم للسماع على أثر ذلك الرنين الغامض الذى لم يكد يبدأ حتى انتهى ، واستولى عليهم نوع من الرهبة من أثر ذلك الالهام الغريب الذى يحوم حول وجه هذا الفتى الاعمى الشاحب .

رفع الفتى عينيه الى سقف الغرفة ، ثم بقى على وضعه جامدا لا يتحرك ، كأنه ينصت الى شيء ما . وراحت مختلف الاحاسيس تضطرب فى نفسه اضطراب الامواج الثائرة . وكان تيار الحياة المجهولة يدفعه دفعا الى أعلى كما يدفع البحر الصاخب فوق أمواجه احدى السفن بعد أن ظلت زمنا طويلا على شاطئه تغط فى نوم عميق . وأخذت تنعكس على وجهه كالظلال الهاربة أنواع غريبة من الدهشة والتساؤل والانفعال . وبدا فى عينيه المكفوفتين عمق وظلام جديدان كل الجدة .

كان من يراه لا يشك فى أنه لا يجد فى نفسه ذلك الذى يرهف اذنه لسماعه باهتمام بالغ الحد . وأخيرا أخذته نوبة من الرعدة الخفيفة دون ان تفارقه سيماء الدهشة البادية على وجهه ، وكأنه أعرض عن انتظار ماكان ينتظر قدومه ، فتحسس أزرار البيانو من جديد مدفوعا بموجة جديدة من العاطفة السارية فى كل كيانه ، ثم استسلم بكليته الى ائتلاف النغم .

من العسير على الاعمى أن يستخدم الموسيقى المكتوبة . ففى هذه الصحف الموسيقية يدل على النغمات بعلامات خاصة

بارزة تصف على نحو ما تصف الكلمات فى الكتاب . وتوضع علامة التعجب بعد كل مجموعة من النغم تكون ائتلافا لكى تفصلها عن المجموعة التالية . ومن البديهى أنه يجب على الاعمى حفظ هذه الصحف عن ظهر قلب بالنسبة لكل يد على انفراد. وهذا هو مصدر التعقيد .

ولكن بطرس كان يجد لنفسه عونا فى حبه لكل عنصر من عناصر هذا العمل . فكان يبدأ بحفظ بضع فقرات لكل يد على انفراد ، ثم يجلس أمام البيانو ، فاذا ما تكونت من اتحاد تلك الرموز الغريبة البارزة بعض الالحان المؤتلفة ، وجد فيها من المتعة وتذوق فيها من اللذة ما يغير من طابع هذا العمل الجاف ويحيله الى عمل جذاب .

ومع ذلك فقد كانت هناك عمليات « وسطى » عدة تعترض بين القطعة المرسومة على الورق وبين تنفيذها على مشط البيانو . فيجب أن تمر العلامة قبل أن تتحول الى جزء من اللحن ، باليدين وتستقر فى الذاكرة ثم تقطع الطريق نفسه فى اتجاه عكسى نحو أطراف الانامل التى تقوم بالعزف . هذا الى أن الخيال الموسيقى المرهف لدى الفتى الاعمى الى أقصى حد ، كان يشترك فى تلك الدراسة المعقدة فيعطى القطعة طابعا شخصيا . أما الاشكال التى تميز بها حسه الموسيقى فكانت هى الاشكال التى زودته بها أول معرفته بالموسيقى ، وهى أيضا الاشكال التى اتخذها عزف والدته فيما بعد . وأعنى بها أشكال الموسيقى الشعبية التى ظلت دائما ترن فى أرجاء نفسه والتى أصبحت وسيلة التخاطب بينه وبين الطبيعة .

وها هو ذا الآن بعد أن خفق قلبه وفاضت نفسه يلعب بقطعة ايطالية ، ولكن عزفه لها كشف منذ النغمات الاولى عن روح شخصى بحت جعل الدهشة تسيطر على الحاضرين جميعا والاعجاب يستولى عليهم ، ولما تمض دقائق معدودات على بدئه الايقاع . ولما كان الابن الاكبر لستاوروتشنكو موسيقيا محترفا

فقد عكف على دراسة عزف الفتى محاولا أن يعزف القطعة المعروفة جيدا ، وأن يحلل طريقة العازف الغريبة .

كانت الأوتار تتذبذب وترد ، والاصوات تملأ الصالون وتنطلق الى الحديقة الصامتة . وكانت عيون الشبان تضيء من فرط الدهشة والسرور . وأطرق ستاوروتشنكو برأسه الى الارض وراح ينصت فى صمت وخشوع ، الى ان استخفه الطرب بالتدريج ، فدفع العم مكسيم بمرفقه ، وهمس فى أذنه قائلا :

هذا هو ما أسميه بالعزف الجيد .. بأجود العزف . والا فماذا ! ألا ترى انى على حق ؟

وأخذت الاصوات تشتد وتنمو وأعاد اشتدادها الى ذهن المشاغب العجوز شيئا ما ، أغلب الظن أنها ذكرى شبابه ، لان عينيه لمعتا فجأة ، وصعد الدم فى وجهه ، ونهض بكل جسمه ثم رفع يده وكاد يهوى بجمعها فوق المنضدة ، ولكنه لم يفعل ووضع يده على المنضدة دون ضوضاء . وألقى نظرة خاطفة على ولديه ، ثم مال على العم مكسيم وهو يمسح بيده على شاربه وقال :

— يزعم هؤلاء الاغرار أننا لم نعد نصلح لشيء .. يا لها من مزاعم ! .. فيما مضى كنا نحن أيضا ، ياصاحبى نحن أيضا .. بل الآن ... ألا ترى أنى أقول حقا ..؟

لم يكن العم مكسيم شديد الولع بالموسيقى ، ولكنه هذه المرة أحس شيئا جديدا فى عزف تلميذه . فكان يرى جالسا وسحائب الدخان تحيط به من كل جانب ، وعليه سيماء الانصات العميق ورأسه يهتز عن غير شعور منه ونظرات عينيه لا تفتأ تنتقل من بطرس الى ايفلين ، ومن ايفلين الى بطرس . فقد تدخلت هنا أيضا احدى القوى الحيوية فى منهجه التعليمى بصورة غير متوقعة .

وكذلك كانت أنا ميخايلوفنا تلقى على الفتاة بعض النظرات

الفاحصة ، وتحاول أن تعرف هل كان عزف وليدها يعبر عن السعادة أو عن الحزن ؟

أما ايفلين فقد توارت فى ركن يظلله غطاء المصباح حيث لم يكن يبدو منها بين هذه الظلال الا عيناها وقد زادتا عمقا واتساعا . وكانت هى الوحيدة التى تفهم المعنى الحقيقى لهذه الموسيقى التى تحدثها عن جرس الماء بين السدود العتيقة ؛ وحفيف أشجار الكرز فى الممر الغارق فى ظلال المساء .

تغير اللحن منذ فترة طويلة حيث تخلى بطرس عن القطعة الايطالية وترك لخياله العنان . فكان عزفه يعبر عن كل ما ازدحمت به ذاكرته منذ دقائق حين جلس خافضا رأسه مرهفا أذنه للاستماع الى خواطر الماضى . كان يعبر عن أصوات الطبيعة وصرير الريح وحفيف الغابة وتماوج ماء النهر وعن همسة غامضة تتلاشى تحت الافق البعيد . وكان كل ذلك يتداخل بعضه فى بعض وينعكس صداه على قاع تلك العاطفة المبهمة التى تنبسط لها قلوبنا وتولد فى نفوسنا لغة الطبيعة ، لغة السحر والاسرار ، فهل هذا هو الحزن ؟ واذن فلماذا هذا الشعور الرضى المريح ، أو هو الحبور ؟ ولماذا اذن هذا الحزن العميق . ؟

وفى بعض اللحظات كانت الاصوات تزداد عمقا وقوة ، وحينئذ كانت الصرامة تبدو على وجه الموسيقى بشكل غريب،

حتى كان يبدو لمن يراه انه هـــو نفسه يعجب لقوة الحانه المرتجلة وانه لا يزال ينتظر شيئا آخر . .

كان يبدو أن هذه الضربات الســـحرية التى تجمع كل التآليف فى تيار اللحن الساحق الرائع على وشك الرنين ، وفى هذه اللحظات كان السامعون يبدون أمام الانتظار كالمتحجرين، وقبل أن يصل اللحن الى قمة صُعوده المتوقع ، هبط فجأة الى نوع من الهمس الشاكى شبيه بموجة تستحيل الى أشـــتات من الزبد ، وبعد هذا الهبوط بفترة طويلة انطلق النغم المرير الذى يعبر عن الشك وخيبة الامل .

وفى بعض الاحيان كان الاعمى يكف عن العزف لحظة أو بعض لحظة ، وحينئذ كان يخيم على الصالون صمت لا يقطعه الا حفيف الاشجار فى الحديقة . وكان يتلاشى السحر الذى سبق أن استولى على السامعين وانتقل بهم بعيدا . . بعيدا . . فيما وراء هذا المسكن المتواضع ، وتضيق بهم القاعة التى هم فيها أكثر مما كانت ، ويطل عليهم الليل من خلال النوافذ المظلمة حتى يستعيد الموسيقى قوته ويستأنف عزفه .

ومن جديد تصبح الاصوات أقوى مماكانت، فتصعدوتصعد وتواصل صعودها ، كما لو كانت تبحث عن شىء ما ، تختلط الالحان البحتة وقطـع الاغانى الشعبية المشربة بروح الحب والحزن أحيانا وروح الجد والذكرى الاليمة أحيانا أخرى أو المنغمة بالمرح البهيج والامل الناشىء . هكذا حاول الموسيقى الاعمى أن يعبر عن عواطفه بالاشكال المألوفة .

ولكن الاغنية انتهت هى الاخرى بالنغمة الشـــاكية ، التى راحت ترفرف فى سكون الصالون الصغير، كسؤال لايعرف له جواب .

لم تكد تخبو آخر نغمة من النغمـــات ، حتى أخذت أنا ميخايلوفنا تتفرس فى وجه وليدها ، ورأت تعبيرا ما مرتسما على وجهه ، فاعتقدت أنها رأت مثله من قبل . ورجعت بذاكرتها الى يوم مشمس من أيام الربيع استلقى فيه طفلها الاعمى على شاطىء النهر مكدودا تحت وطأة الخواطر العنيفة التى أثارتها فى نفسه طبيعة الربيع .

ولكنها هى وحدها التى لاحظت هذا التعبير . أما الآخرون فقد اختلط حابلهم بنابلهم وعلا ضجيجهم فى أرجاء الصـــالون الصغير . فصاح ستاوروتشنكو المجوز بالعم مكسيم ليحدثه عما سمع ، وأقبل الشبان على الموسيقى يصافحونه متأثرين ويبشرونه بمستقبل فنى رائع .

وعلق الاخ الاكبر على ذلك بقوله : « نعم ، نعم ، هذا حق ، لقد استطعت الوصول الى روح اللحن الشعبى نفسه . . تمثلته على أكمل وجه . . ولكن أتسمح أن تخبرنى باسم القطعة التى بدأت بها العزف ؟ » .

وأخبره بطرس باسم القطعة الايطالية . فقال :

ـ نعم ، انها هى . وهذا ما توقعته . . فانى لا أعرفها الا قليلا . وقد أعجبت كل الاعجاب بطريقتك الشخصية الاصيلة لاشك أن بعض الفنانين يفوقونك فى عزفها . . ولكن لم يتأت لاحد قط أن يعزفها بالطريقة التى عزفتها أنت بها . لا أدرى كيف أعبر لك عما أريد . . ان ذلك نوع من ترجمة اللغـــة

أحس فجأة بيد حارة تمسح على يده برفق وحنان

الموسيقية الايطالية الى الاوكرانية ولا أعتقد أن هناك ماينقصك غير البحث عن مدرسة جيدة .. وحينئذ ..

وأقبل الاعمى على الانصات اليه بكل اهتمام ، لان هـذه هى المرة الاولى التى يصبح فيها محورا لتلك المناقشات الحارة ومنذ ذلك تولد فى نفسه شعور الاعتزاز بقوته. فلو أمكن لتلك الاصوات التى سببت له أشد الالم منذ قليل ، أن تؤثر على غيره من الناس هذا التأثير القوى لاصبح اذن جديرا بأن يعمل شيئا ما فى الحياة .

كان جالسا على كرسيه . وأصابعه فوق مشط البيانوحين أحس فجأة بيد حارة تمسح على يده برفق وحنان .. ذلك أن ايفلين قد اقتربت منه وراحت تضـــغط على يده دون أن يلمحها أحد من الحاضرين ، ثم قالت له وهى تفيض بهجـة ونشاطا .

ــ أسمعت ؟ فأنت أيضا لك عملك الذى ينتظرك فى الحياة آه لو رأيت ، آه لو عرفت ما فى مقدورك أن تقوم بعمله معنـا جميعا ...

وهنا انتفض الاعمى ثم نهض واقفا .

لم يلمح أحد ممن فى الصالون هذا المنظر القصير غير الام ، الام وحدها . وقد توردت وجنتاها كما لو كانت هى التى تلقت القبلة الاولى لاول حب لها .

بقى الاعمى فى مكانه لم يبرحه ، يحاول الســيطرة على الاحاسيس التى أثارتها فى نفسه تلك السعادة الجديدة ، ولعله شعر باقتراب العاصفة التى تتصاعد من أعماق مخه فى صورة سحب ثقيلة لا شكل لها .

## الفصـــل السادس

استيقظ بطرس فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التـالى .. وكان السكون يخيم على الغرفة ، وحركةالنهار المعتادة لم تبدأ فى البيت بعد ونسمات الصباح الندية تنبعث مِن الحديقة الى الغرفة خلال النافذة التى ظلت مفتوحة . وكان بطرس يحس الطبيعة احساسا كاملا بالرغم من عماه .. فعرف أن الوقت لايزال مبكرا وأن النافذة مفتوحة على مصراعيها ، لان حفيف الاشجار يصل الى مسمعه واضحا من مكان جدقريب . وكانت احساساته فى هذا اليوم محددة تحديدا غريبا ، فقـد عرف أن الشمس ترقبه فى غرفته ، وأنه لو مد ذراعه من خلال النافذة لتساقطت عليه قطرات الندى من فوق الشجيرات . وأحس أيضا أن كيانه كله يفيض باحساس جديد مجهول .

وظل بطرس فى فراشه بضع دقائق ينصت الى طائرصغير يغرد فى الحديقة والى تلك العاطفة التى تسرى فى قلبه .

وراح يتساءل : « ماذا حدث ؟ » وكانت الكلمات التى فاهت بها ايفلين بالقرب من الطاحونة فى سـاعة الغسق من مساء الامس تتدافع فى ذاكرته .

« أحقا انك لم تفكر فى ذلك قط ؟ .. يالك من أحمق !..

كلا ، انه لم يفكر قط فى ذلك .. فقد كان وجود ايفلين متعة لاحد لها بالنسبة اليه ، ولكنه حتى الامس لم يكن على بينة من ذلك ، كما لايشعر المرء بالهواء الذى يتنفسه .. وقد نزلت هذه الكلمات البسيطة على نفسه كالحجر الذى ينزل على صفحة الماء من أعلى .. كانت نفسه قبل ذلك بدقيقـة

واحدة صافية ساكنة تعكس نور الشمس وزرقة السماء ... وهاهى ذى الآن وقد انقلب عاليها سافلها من جراء الصدمة التى تلقتها .

استيقظ اليوم بنفس جديدة . وأخذ ينظر منذ الآن الى صديقة طفولته من زاوية جديدة لكل الجدة . ومثلت فى ذاكرته أحداث الامس بكل تفاصيلها ، فرأى نفسه ينصت بدهشة بالغة الى صوتها « الجديد » وهى تقول : « اذا أحبت فتاة » ... و « يالك من أحمق ! » .

ثم نهض من فراشه وثبا ، وارتدى ثيابه على عجل ، واندفع فى مسارب الحديقة المغطاة بالندى متجها نحو الطاحونة العتيقة ، حيث الماء يتابع خريره كالامس وكالامس أيضا تواصل أغصان الكرز حفيفها . ولكن الظلام كان يخيم بالامس على المكان ، أما الآن فان شمس الصباح تملأ الارجاء بصوتها الفتان . ولم يكن قد تأتى لبطرس من قبل أن يحس الضوء بالوضوح الذى يحسه الآن . فكان يبدو أن أشعة النهار البهية تنفذ فى جسمه مع رطوبة الصباح الشذية ونسماته اللذيذة ، فتداعب أعصابه وتهزها هزا خفيفا رضيا .

كان يبدو أن القصر كله قد أصبح أكثر بهجة ونورا من ذى قبل . وبدت أنا ميخايلوفنا وكأن السن قد رجعت بها سنين وسنين الى الوراء . وازداد مزاح العم مكسيم ، وان ظل عارفوه يسمعونه من حين لحين يبعث من بين سحائب الدخان المحيطة به بزمجرة خفيفة كأنها هزيم بعيد من عاصفة عابرة . وكان

يقول أن بعض الناس يعتبرون الحياة قصـــة رديئة التأليف تنتهى بالزواج ، ولكن الحياة فيها أشياء كثيرة لايصـح لبعض الافراد أن ينسوها .

أما السيد بوبلسكى الذى أصبح رجلا ضخما تام الاستدارة بشعره الاشيب الجميل ووجهه الاحمر الرضى ، فـكان يسلم بكل مايسمعه من صهره ويتلقى أحكامه كلها على أنها موجهـة اليه شخصيا ، ثم يسارع بالذهاب الى أعماله التى كانت تسير على خير حال . وكان الشبان يبتسمون ابتسامات غامضة ، وهم يقومون بوضع خططهم . كما كان على بطرس أن يفـكر بصورة جدية فى استكمال تعليمه الموسيقى .

ولما انتهى الحصاد انتهز آل بوبلسكى فرصة يوم من أيام الخريف تمتاز بالصحو والهواء العليل الذى تجول فيه خيوط ذهبية لاعداد لها ، وذهبوا لزيارة آل ستاوروتشنكو فى ضيعتهم التى تبعد حوالى سبعين فرسخا من قصر بوبلسكى . وكانت مناظر هذه البقعة تختلف تمام الاختلاف عن مناظر البقـــاع الاخرى .. ففيها تختفى الدعائم الاخيرة من سلسلة جبـــال الكربات التى لا تزال تظهر فى اقليم فولهينى والاقاليم الاخرى التى فى حوض نهر البوج ، وتبدأ المراعى الاوكرانية الواسعة . وفى تلك السهول التى تغطيها من حين لحين بعض الاخاديد تتناثر قرى لاعداد لها تحيط ببيوتها الحدائق وحقول الخضر . وترى على امتداد الافق البعيد أضرحة عالية شيدت منـــذ زمن طويل وحولها حقول صفراء .

ولم يكن آل بوبلسكى قد ألفوا هذا النوع من السفر الطويل نسبيا .. ولذلك كان بطرس اذا ابتعد عن قريته وعن الحقول المجاورة التى يعرفها تمام المعرفة تعثرت قدمه وازداد شعوره بوطأة عاهته ، وصار قلقا عصبى المزاج . ولكنه فى هذه المرة رحب بدعوة آل ستاوروتشنكو . وذلك لانه منذ ذلك المساء الخالد الذى عرف فيه مقدار القوة الساحقة التى أنبأت عنها مواهبه ،

أصبح أكثر ثقة بنفسه أمام ذلك المجهول المقيم الغامض ، الذى هو العالم الخارجى بالنسبة اليه . بل لقد بدأ هذا البعيد يجذبه اليه ويحتل خياله شيئا فشيئا .

قضى الضيوف بضعة أيام مرحة صاخبة ، استطاع بطرس أن يكون خلالها على تمام راحته بين الشباب . فكان ينصت باهتمام بالغ الى عزف الشاب ستاوروتشنكو العلمى والى أحاديثه عن العاصمة ومعهدها الموسيقى والحفلات الموسيقية التى تقام فيها . وكان وجهه يصطبغ بالحمرة كلما سمع الفنان الشاب يغدق مدائحه الحماسية على مايتمتع به الاعمى من حس موسيقى بارع بالرغم من أنه لم يتلق الا القليل من الدراسة حتى الان . ولم يعد ينزوى وحده فى الاركان النائية بل أخذ يشارك فى الاحاديث العامة مشاركة الند للند بلطف ومهارة غير عاديين . وكذلك تخلت ايفلين عن تحفظها الشديد وحذرها المحكم . وأصبحت بادية المرح ، بعيدة عن كل تكلف ، تشيع البهجة بين الجميع بمفاجآتها المرحة غير المتوقعة .

وكان هناك على مسيرة سبعين فرسخا دير قديم معروف فى تاريخ الاقليم كله لعب فيه دورا هاما فيما مضى . فكثيرا ماحاصرته جحافل من التتار كأنها سحب الجراد وأمطرته بوابل سهامها ، ولم تنج أسواره العاتية من تسلق الكتائب البولونية المختلفة الالوان . وفى بعض الاحيان كان القوازق هم الذين يوجهون اليه هجومهم ليخلصوه من أيدى جيوش ملك بولونيا بعد أن استولت عليه . أما اليوم فقد انهارت قلاعه العتيقة واستعيض عن الكثير من أسواره بمجرد أسيجة من الشجيرات الشوكية لكى تحمى حدائق الدير من مواشى الفلاحين ، وامتلأت خنادقه بأنواع النباتات الطفيلية .

وفى يوم صحو معتدل الطقس من أيام الخريف خرج سادة المنزل وضيوفهم لزيارة هذا الدير . فركب العم مكسيم ومعه

النساء عربة كبيرة من الطراز العتيق راحت تتراقص بهم على عجلاتها العالية كما يتراقص الزورق على سطح الامواج . أما الشبان ومن بينهم بطرس فقد امتطى كل منهم صهوة جواد .

وكان الاعمى يجيد الركوب لاعتياده منذ طفولته على الاصغاء الى وقع أقدام الخيل الاخرى والى دوران عجلات العربة التى تسير أمامه . فكان من يلمح اطمئنانه فى جلسته فوق الجواد لايظن مطلقا أن هذا الفارس لايرى الطريق الذى يمتد أمامه وانه انما يعتمد على غريزة الحصان . وكانت أناميخايلوفنا فى بداية الامر لاتحيد عنه بنظرها خوفا من الحصان الجديد والطرق المجهولة ، أما العم مكسيم فكان لاينظر اليه الا من حين لحين بعين الاستاذ العجوز والرجل الذى يهزأ بمخاوف المرأة .

واقترب الطالب من العربة ثم قال : « اسمعوا . . . لقد تذكرت الآن قبرا فى غاية الغرابة كنا قد اكتشفنا تاريخه منذ عهد قريب فى سجلات الدير . وفى وسعنا أن نذهب اليه اذا أردتم ، فهو فى الطرف الآخر من القرية غير بعيد من هذا المكان .

وردت عليه ايفلين ، والمرح باد على وجهها ، ولماذا تثير بيننا هذه الذكريات الحزينة ؟

وقال الفتى ، سأجيب على سؤالك هذا بعد قليل . ثم أرشد الحوذى الى الطريق الذى يجب أن يسلكه .

وبعد ذلك رجع بجواده ، وانضم الى رفاقه من جديد .

ولم تمض دقيقة واحدة حتى كانت عجلات العربة قد غاصت فى التراب الرخو فى طريق ضيق مستعرض ، ثم لم يلبث الشبان أ تجاوزوها ، وبعد قليل ترجلوا وربطوا خيلهم فى أحد الاسيجة . وسارع الاخوان ستاوروتشنكو بالذهاب الى السيدات لمساعدتهن على النزول من العربة . أما بطرس فقد ظل فى مكانه متكئا على سرج حصانه . وأخذ ينصت ،

وهو مطرق برأسه الى الارض كعادته ، لكى يستطيع الاتجاه بقدر الامكان فى هذا المكان المجهول بالنسبة اليه .

لم يكن هذا اليوم الخريفى المشمس بالنسبة اليه الا ليلا دامس الظلام وانه لايختلف عن الليل الحقيقى الا بضوضاء النهار الصاخبة . وكان يستمع الى صوت العربة وهى تقترب والى انطلاق الشبان المرح وهم يسارعون الى لقاء من فيها . وبجانب بطرس وقفت الجياد تجلجل بشكاتمها الحديدية ولجمها وهى تمد أعناقها من فوق السياج لتصل الى العشب الذى فى الحديقة . وأقبل من مكان مجاور ، لاشك أنه الحديقة ، صوت يشدو بأغنية حزينة كانت كأنها تسبح ببطء على أجنحة النسيم . كما كان يسمع حفيف الاوراق ، واحدى البجعات تعلن عن نفسها بصوتها الغليظ ، وديك يصيح وهو يرفرف بجناحيه كما لو كان قد تذكر شيئا ما وبكرة بئر تصر صريرها الحاد ، وكل هذه الاصوات كانت تشير الى أن حياة القرية الشاقة الدائبة تدور غير بعيد من هذا المكان .

والواقع أن الركب توقف أمام السياج الذى فى طرف القرية . وكانت الريح تحمل بين ماتحمل من ضوضاء ذلك الصوت الايقاعى ذى الطابع الحاد المخلخل الذى ينبعث من أجراس الدير . وأحس بطرس ان الاقليم ينحدر فجأة نحو أحد الانهار فى مكان ما خلف الدير ، دون أن يعرف أحد على وجه التحديد من أين جاءه هذا الاحساس ، أمن صوت الاجراس هو أم من طريقة هبوب الريح أم من علاقة أخرى غير واضحة المعالم ؟ وفيما وراء هذا النهر تمتد سهول واسعة يضل فيها البصر ، معمورة بأنواع غامضة لاتكاد تدرك من الضوضاء ، ضوضاء الحياة الساكنة الهادئة . وكانت هذه الضوضاء تصل الى آذانه فى صورة بقايا خافتة وتثير فى نفسه احساسا سمعيا بالفضاء الملىء بالاصوات المختلطة المحجبة التى تشبه خطوط الاشياء البعيدة المحوطة بضباب الفلس .

وكانت الريح تحرك خصلة من شعره انفلتت من تحت قبعته ، وتصفر فى أذنه كأنها الغناء المتصل الذى ينبعث من عود يونانى قديم . وهاجت فى خاطره ذكريات غامضة ، وأحيت لحظات من لحظات الطفولة انتزعها الماضى الذى ابتلعه الزمن ، وبعثها فى صورة أنفاس ولمسات وأصوات ... وبدا له أن هذه الريح المختلطة بأصوات الاجراس البعيدة وأشلاء الاغنية تقص عليه أسطورة حزينة حول ماضى هذا الاقليم أو حول ماضيه هو ، بل ربما حول مستقبله القاتم المفعم بالشكوك .

وبعد دقيقة وصلت العربة ونزل منها جميع من كانوا فيها ، ودلفوا الى الحديقة من خلال فتحة فى السياج المحيط بها . وهناك وجدوا فى أحد الاركان المهجورة التى طفت عليها الاعشاب البرية لوحا ضخما من الحجر يكاد يغوص كله فى الارض . وكانت تترنح فى الهواء وبين أعواد العشب الكث بعض شجيرات القرطب بأوراقها العريضة وأزهارها الوردية الصارخة وبعض أعواد حبة البركة بسيقانها الدقيقة العالية . وأدرك بطرس حفيفها الغامض فوق القبر الغارق تحت الحشائش الملتفة .

وفجأة انطلق الشاب ستاوروتشنكو يقول : لم نعرف وجود هذا الاثر الا منذ وقت قصير . ومع ذلك أتعلمون من يرقد فى هذا الضريح ؟ انه الفارس الشهير والمحارب القديم اينات كارى .

فرد عليه العم مكسيم وعليه سيماء الشرود ، هل هذا هو القبر الذى ترقد فيه أيها اللص العتيق ؟ ولكن كيف انتهى بك المطاف الى هنا ؟ فقال الشاب :

ـ فى السابع عشر ... حاصر القوازق والتتار هذا الدير الذى كان يحتله البولونيون . وأنتم تعرفون جيدا أن التتار كانوا دائما حلفاء خطرين . فمن الممكن أن يكون المحاصرون قد نجحوا فى رشوة رئيس التتار ، ومهما يكن من شىء ، فاننا

نعرف أن التتار والبولونيين اجتمعوا ذات مساء على مهاجمة القوازق ... وهنا فى كولونيا ، حدثت المذبحة المروعة تحت جنح الظلام . واذا لم تخنى ذاكرتى فانى أعلم ان التتار قد ردوا على أعقابهم واسترجع القصر من أيدى المحتلين ، ولكن القوازق فقدوا رئيسهم فى المعركة .

ثم واصل الشاب كلامه ، وما زالت عليه سيماء الشرود قائلا ، وفى هذه القصة شخصية أخرى ، ولكنا نعثر فى هذا المكان على لوح آخر . وتقول الحوليات التى وجدناها فى الدير أنه قد دفن شاب لاعب بندورا بجانب الرئيس كارى .. وهو شخص أعمى كان يصحب الرئيس فى جميع حملاته ...

وتصورت أنا ميخايلو فنا وليدها فى معمعة معركة ليلية رهيبة ، ثم صاحت أعمى ... يشترك فى الحملات ؟ واستمر الشاب فى حديثه .

ـ نعم ، أعمى . ومن الواضح أنه كان مغنيا مشهورا فى أقليم زيورجيه كله . والحوليات التى كلمتكم عنها تعضد هذا الذى أسميه فرضا على الاقل . أنصتوا ، فسأتلو عليكم مضمون الصفحة الخاصة باستشهاد الاعمى ، اذ يبدو لى أنى احفظها عن ظهر قلب . « وفى الوقت نفسه قتل يوركو الشاعر القوزاقى الشهير الذى لم يكن يفارق كارى قط ، وكان كارى يكن له أصدق الود وأعمقه . فبعد أن قتل كارى هجم الوثنيون القساة بطريقة مزرية على يوركو وطعنوه بالسيف كما هى عادتهم الوضيعة دون مراعاة لعاهته ولا لموهبته العظيمة فى تأليف القصائد والعزف على البندورا . ولم يحاول الوثنيون الابقاء على حياته خلال هجومهم الليلى بالرغم من ان عزفه كان كفيلا بأسر قلوب الذئاب الهائمة فى برارى الاستبس . فهنا يرقد المغنى والفارس أحدهما بجانب الآخر بعد أن سقطا فى ميدان

القتال بطلين شجاعين . ليفدق الله عليهما مجده الابدى . آمين ! » .

وقال أحد الحاضرين : ان هذا الحجر يتسع بما فيه الكفاية . فلعلهما يرقدان كلاهما تحته .

وأجاب آخر ، ربما ، ولكن النقوش التى على الحجر قد أكلها البلى . نعم لايزال فى وسع المرء أن يميز رسم شعارات الرئيس وعصاه ، ولكن الباقى قد عدت عليه العوادى .

وكان بطرس يصغى بامعان وتأثر متزايد الى مايقال ، فصاح بهم فجأة وهو يقول انتظروا !

ثم اقترب من القبر وحنا عليه وغاص بأنامله الرقيقة بين كتل النبات الفطرى التى تغطى الحجر . وظل على هذا النحو فترة ، رافع الرأس مقطب الحاجبين . ثم بدأ يقرأ .

« ايناط الملقب كارى ... فى سنة الفضل والرحمة ... قتل بضربة سهم ... انطلق من قوس أحد التتار » .

وأجاب الطالب ونحن أيضا استطعنا أن نقرأ هذا . ولكن بطرس استمر يغوص فى النبات بأصابعه المعقوفة المشدودة الى أقصى حد ، وواصل قراءته فقال .

... « وبعد أن قتلوا ... »

وسارع الطالب يكمل قراءة الجملة وهو يقول بحماس شديد « الوثنيون القساة .. » انها الكلمات التى وجدناها فى وصف بيوت يوركو . فلا شك اذن أنه هو الاخر يرقد هنا تحت هذا الحجر .

وتابع بطرس اكتشافه ، فقال ، نعم ... « الوثنيون القساة ... » أما الباقى فقد اختفى « كلا . كلا » انتظروا ... وقد مزقته حراب التتار ... » يبدو لى أن هناك كلمة أخرى ... كلا لم يعد هناك شىء .

والحقيقة أن ذكرى لاعب البندورا كانت قد اختفت بين العوادى التى حلت بالحجر الكبير ، ذلك الحجر الذى يرجع وجوده الى أكثر من مائة وخمسين عاما .

ومضت فترة خيم فيها على المكان سكون عميق لايعكره الا حفيف الاشجار ثم قطعه فجأة شهيق طويل ملىء بالاحترام والتبجيل . وكان ذلك من قبل أستاب مالك الحديقة ، ومن ثم صاحب اخر مكان حل فيه الرئيس العتيق . فقد اقترب من الزائرين وأخذ ينظر بدهشة بالغة الى ذلك الشاب ذى العينين الجامدتين الشاخصتين الى السماء وهو يقرأ بأصابعه الكلمات التى محتها الامطار والرياح وسترها توالى القرون عن المبصرين . ثم قال الرجل وهو ينعم النظر فى بطرس بكل اجلال :

ـ لا موجود الا الله . . . الله وحده هو الذى يفتح أمام الاعمى ما لا يراه المبصرون بأعينهم .

ولما انطلقت العربة فى الطريق المترب المؤدى الى الدير ، اتجه الطالب الى الفتاة وقال :

لعلك تعرفين الآن ، يا آنستى العزيزة ، لماذا اتجهت ذاكرتى الى يوركو لاعب البندورا ؟ كانت الدهشة تستولى على أخى وعلى حين نسمع أن شخصا أعمى استطاع أن يصحب كارى وكتائبه المتحركة . فمعظم الناس يعتقدون أن لاعبى البندورا كانوا قوما من قدامى الشحاذين الذين ينتقلون بمخاليهم من قرية الى قرية ليعرضوا اغانيهم . ولكنى لما رأيت اليوم صديقك بطرس على جواده ، مثلت فى خيالى صورة يوركو الاعمى وهو يحمل البندورا بدلا من البندقية ويتبع رئيسه فى كل مكان .

ثم استمر الشاب فى حديثه يقول ، وكأنه فى حلم ، بل من الممكن أن يكون قد اشترك فى القتال . وهو على كل حال قد أسهم فى الحملات وشاطر رفاقه الاخطار . آه ، يا الهى ! ما أروع ذلك الزمن المجيد الذى عاشه وطننا العزيز أوكرانيا !

فعقبت عليه أناميخايلوفنا بقولها : يا للشناعة !

وأجابها الشاب : بل يا للجمال .

وفى هذه اللحظة كان بطرس قد لحق هو الاخر بالعربة ، فقال بلهجة حاسمة : أما الآن فقد تغير كل شىء ثم رفع عينيه الى أعلى وأرهف أذنيه مصغيا الى خطا الجياد المجاورة لكى ينسق مشية جواده مع سير العربة . وكان وجهه أكثر امتقاعا من المعتاد وتبدو عليه سيماء التأثر العميق . وبعد أن انتهى من توجيه دابته على النحو الذى أراد ، أخذ يكرر من جديد ، كل ذلك قد اختفى .

وهنا انطلق العم مكسيم يقول بنغمة غريبة فاترة : لقد زال ماكان مقضيا عليه بالزوال . انهم عاشوا على طريقتهم ، فعليكم أنتم أن توحدوا طريقتكم الخاصة بكم .

ولكن الطالب قاطعه بقوله : من أيسر الامور عليك أن تتكلم الآن ، بعد ان أخذت من الحياة كل ما كان فى وسعها أن تقدمه لك .

فابتسم الجندى الغاريبالدى العجوز ابتسامة مرة ، وراح ينظر الى عكازته ، وهو يقول : وأخذت منى الحياة أيضا كل ما استطاعت ان تأخذه . ثم أضاف وأنا أيضا كنت أتوق فيما مضى الى أن ينال القوازق حريتهم التى تغنى بها شعر هذه الفترة الصاخبة . . . بل ذهبت للقاء صادق فى تركيا (١) .

فسأله الشبان بتلهف وحينئذ ؟

ـ وحينئذ . . . شفيت من غرورى بمجرد أن رأيت القوازق الاحرار « يستخدمون فى تثبيت دعائم الطغيان التركى » . . . يا للمذبحة التاريخية ! يا للدجل ! لقد فهمت أن التاريخ

---

١ ـ تشايكوفسكى حاكم أوكرانى يعرف باسم صادق باشا . كان يحلم بتنظيم القوازق وجعلهم قوة سياسة مستقلة داخل تركيا .

قد ألقى بكل تلك الاقدار العتيقة بين المهملات ، وان الاساس ليس فى القوالب الجميلة ، بل فى الاهداف . وحينئذ ذهبت الى ايطاليا . وكنت على تمام الاستعداد للموت فى سبيل مثلها الاعلى ، وان لم أعرف كلمة واحدة من لغتها .

وكان العم مكسيم يتكلم بجد صارم واهتمام بالغ . ولم يكن من عادته أن يشترك فى المناقشات التى تدور بين ستاوروتشنكو الاب وولديه ، وكان كلما هرع اليه الشبان الذين كانوا يعتبرونه حليفا لهم ، أجابهم بابتسامته التى لاتخلو من بساطة . ولكنه الآن ، وقد تأثر بذكريات تلك الدرامة التى ثارت فجأة حول الحجر العتيق المغطى بالاعشاب شعر بان تلك الفترة من فترات الماضى تمس الحاضر الحى بصورة غريبة ، وذلك بسبب بطرس .

وفى هذه المرة لم يحاول الشبان أن يثيروا أى اعتراض . ولاندرى : هل كان ذلك بسبب الانفعالات التى عانوها فى حديقة استاب حيث يشهد حجر المقبرة بموت الماضى شهادة لا مراء فى صدقها ، أو لتسليمهم أمام نغمة الجد الصارم التى كان ينم عنها كلام المحارب القديم .

ومرت فترة صمت قصيرة تساءل الطالب بعدها : والآن ، ماذا بقى علينا نحن أن نعمل ؟

ـ مواصلة هذا الكفاح الابدى نفسه .

ـ ولكن أين ؟وفى أى صورة ؟

ـ فأجاب العم مكسيم بايجاز محير : ابحثوا !

وما دام العم مكسيم قد تخلى عن نغمته المعتادة التى تنم عن السخرية ، فقد أصبح على استعداد للكلام الجدى . ولكنه الآن لم يعد لديه الوقت الكافى لمواصلة حديثه .. فقد وقفت العربة أمام باب الدير ، ومد الطالب يده بعد أن مال على جواده

قليلا ، وأمسك بلجام حصان بطرس الذى بدا وجهه ككتاب مفتوح يعكس أعمق آيات التأثر . . .

كان زوار الدير يتجهون فى العادة الى كنيسته القديمة ويتسلقون برج ناقوسها حيث يشرفون على منظر واسع ممتد . واذا صفت السماء حاولوا رؤية البقع البيضاء التى تبدو لهم من مبانى عاصمة الاقليم ، وذلك الشريط الملتوى الذى يرسمه نهر الدينيبر على حافة الافق .

ولم تكد الجماعة الصغيرة تقترب من باب البرج المغلق حتى كانت الشمس قد آذنت بالمغيب . وكان العم مكسيم قد بقى واقفا على سلم احدى الصوامع . وكان هناك تحت قبو البرج راهب مبتدىء صغير السن نحيل الجسم يلبس المسوح ويغطى رأسه بالقلنسوة المدببة ، وقد وضع احدى يديه على قفل الباب المغلق .

وكان هناك بالقرب منه طائفة من الاطفال يتدافعون ويتزاحمون كأنهم جماعة مذعورة من الطير . فلم يكن هناك شك فى أن حادثا سيئا قد وقع بين الراهب الشاب وبين الاطفال ، اذ كان يبدو من هيئته المتحفزة ومن الطريقة التى قبض بها على الطفل أن الاطفال حاولوا صعود البرج خلف الزائرين وأن الراهب وقف فى طريقهم . وكان مضطربا شاحب الوجه ، وان اصطبغت وجنتاه وحدهما بحمرة الدم .

وبدت مقلتاه جامدتين بصورة غريبة . وكانت ناميخايلوفنا أول من لمح تعبير هذا الوجه وهاتين العينين ، فمدت يدها بحركة

عصبية وامسكت بيد ايفلين . فهمست الفتاة قائلة فى شىء من الذعر : انه أعمى !

ـ وأجابتهـــا الام : لا تهمسى بشىء ! الاحظت ذلك انت أيضا . . ؟

ـ نعم .

لم يكن من اليسير الا يلاحظ وجه الشبه الشديد الذى يجمع بين الراهب الشاب وبين بطرس . فكأن بينهما الشحوب العصبى نفسه والمقلتين الصافيتين نفسهما ، وان كانتا جامدتين ، والحركة القلقة للحاجبين اللذين يصيبهما القطوب لدى كل حركة جديدة ، ويضطربان فوق العينين ، كأنهما قرنا حشرة مذعورة .

كانت ملامحه أغلظ من ملامح بطرس وجسمه أعرض من جسمه ، ولكن ذلك كان يزيد من وجه الشبه بينهما . وحينما اخذته السعلة وضع يديه على صدره وهو يتلوى من شدتها ، وأخذت انا ميخايلوفنا تنظر اليه بعينين فاغرتين كما لو كان شبحا يظهر أمامها فجأة .

وما ان هدأت سعلته حتى فتح الباب ، ثم وقف على عتبته وسأل بصوته الاجش :

ـ أليس هناك أطفال ؟ اذهبوا أيها الملاعين !

وبعد ذلك اندفع نحوهم بكل جسمه ، وافسح الطريق لمرور الشبان ، ثم قال لهم بلهجة ذات معنى تفوح منها رائحة الشره . .

ـ الا تريدون أن تعطوا ضارب الناقوس شيئا ؟ خذوا حذركم ، فهذا السلم يخيم عليه الظلام .

وأخذ الجميع يصعدون الدرج . أما انا ميخايلوفنا التى كانت تتردد منذ قليل فى صعود السلم الضيق المتعب بالنسبة لها ، فقد تبعت أصحابها وأسلمت اليهم قيادها .

وأقبل ضارب النـــاقوس الاعمى على الباب وأغلقــه من خلفهم . فساد المكان ظلام دامس ، ولكن لم تمض لحظات قليلة حتى أدركت أنا ميخايلو ڤنا التى بقيت على الدرجات الاولى من السلم اللولبى ، فى حين سارع الشبان بتسلقه وهم يتزاحمون ويتشاطرون ، أدركت ، أن هناك بقعة مختلطة من النور آتية من كوة تخترق الجدار السميك . وكان هذا النور يلقى ضوءا خافتا على بعض الاحجار المتربة المختلفة الاحجام .

وفى هذه اللحظة سمع صوت الاطفال وهم يصرخون خارج الباب .. ياضارب الناقوس ! دعنا ندخل .. دعنا ندخـــل ياضار ب الناقوس ! ..

فاستشاط ضارب الناقوس غضبا ، ورجع الى البـــاب مندفعا وأخذ يطرقه بكلتا يديه على مصراعيه المغلقتين بقضيب من حديد ، وهو يصيح وبصوته المجنون من شدة الغضب :

ـ اذهبوا ، اذهبوا ، أيها الاطفال الملاعين ، ولتنقض عليكم صواعق السماء فتحرق أبدانكم .

فأجابه الاطفال فى صـــوت واحد ، وهم يضربون الارض بأرجلهم خارج الباب دفعة واحدة .. أيها الشيطان الاعمى .

وأرهف ضارب الناقوس أذنه وأخذ نفســه وقال رداعليهم: « هرى الطاعون أجسامكم ، أيها الملاعين . وليأخذكم الموت جميعا » .. ثم صاح بصوت مغاير لذلك الصوت ، تحس فيه آلام انسان برح به البؤس .. آه يا مولاى ، آه يامولاى ، لماذا هجرتنى ؟

ولم يكد يكمل دعاءه حتى اصطدم بأنا ميخايلو ڤنا وهى واقفة على الدرجات الاولى من السلم الحلزونى ، فصـــاح فى وجهها بخشونة العوام . « من هنا ؟ لماذا لم تغـــادر هـــذا المكان ؟ » .

فتلعثمت بعض الشىء ولم تزد على أن قالت .. ولكن ..

وواصل الاعمى كلامه بلهجة أكثر تأدبا ، آه .. عفوا ، هيا اصعدى ، اصعدى لا تخشى شيئا .. انتظرى ، اعتمدى على ثم سألها من جديد بصوت مريب كريه : ألا تريدين ، أنت أيضا أن تعطى ضاربة الناقوس شيئا ؟

فأخرجت انا ميخايلوفنا ورقة من النقود من كيسها وناولتها الاعمى فى الظلام ، فاختطفها بيد سريعة ، وحينما وصل الاثنان الى احدى لفتات السلم رأته فى الضوء الخافت الذى سقط على وجهه من الكوة يضع الورقة على خده ويتحسسها بأصابعه ثم لمع وجهه الشاحب الذى يشبه وجه بطرس بضياء غريب ، وتقلص فجأة من فرط السرور الساذج الشره ، وقال :

ـ شكرا .. شكرا جزيلا .. ان ورقتك هذه ليست زائفة .. كنت أعتقد أنك تسخرين منى . فهناك أناس تحلو لهم السخرية بالاعمى المسكين ..

انهمرت الدموع من عينى الام المسكينة لدى سماعها هذه الكلمات . فسارعت بتجفيفها .. وواصلت الصعود .. وكانت تتساقط عليها من أعلى السلم ـ كما يتساقط ماء الشلال خلف الجدران ـ ضوضاء خطا مكتومة وأصوات مختلطة منبعثة من أصحابها الذين تقدموها .

وفى احدى لفتات السلم توقف الشبان ، بعد أن أوغلوا فى الصعود ، أمام نافذة ضيقة يتدفق منها هواء طلق وخيوط متفرقة من النور ، وان كانت أصفر من السابقة . وكان الجدار فى هذا المكان مغطى بكتابات شتى معظمها توقيعات للزائرين .

ولما وقع عليها نظر الشبان أخذوا يفتشون فيها عن أسماء أصدقاء لهم ، وهم يتبادلون النكات فيما بينهم . وصاح الطالب يقول : هاهى ذى بعض الحكم ، وراح يقرأ فى شىء من الجهد : « انهم كثيرون أولئك الذين يبدءون ، ولكن لايصل

الى النهاية الا القليل .... » ثم أضاف بلهجة مازحة . من الواضح أن الكاتب يشير الى صعود هذا السلم . »

فأدار ضارب الناقوس أذنه نحو الشاب ، وقطب ما بين حاجبيه اللذين أخذا يهتزان بصورة عصبية ، ثم قال بلهجة لا تخلو من فظاظة : افهمها كما يحلو لك ان تفهمها . وهناك بعض الابيات أسفل هذا الكلام . فيجدر بك أن تقرأها ..

ـ وأين هى ؟ أنا لا أرى هناك أبياتا مطلقا .

ـ انك تزعم انه ليس هنا أبيات ، وأنا اقول لك أن هناك أبياتا .. الحقيقة أن هناك أشياء كثيرة جدا محجوبة عنكم ، يامعشر المبصرين ..

ونزل درجتين من درجات السلم ، وأخذ يتحسس الجدار بيديه فى الظلام حيث كانت آخر خيوط الضوء قد اختفت ، ثم قال :

ـ هاهى ذى .. انها أبيات جميلة ، ولكنك لن تستطيع قراءتها دون مصباح .

وهنا تقدم منه بطرس ومر بيده على الجدار حتى وجد تلك الحكمة الصارمة التى لعل من كتبها قد مات منذ أكثر من مائة عام .

فكر فى ساعة الموت ،
حيث يفارق الروح البدن ،
فكر فى اليوم الآخر ،
فكر فى العذاب الابدى !

وقال الطالب محاولا المزاح ، وهذه حكمة اخرى من جملة الحكم . ولكن مزاحه كان نصيبه الاخفاق .

ورد عليه ضارب الناقوس المشاغب .. هذا لا يعجبك ، اليس كذلك ؟ انك لا تزال فى سن الشباب .. ولكن لا تغتر بهذا .. فلا يدرى أحد ما يخبئه له غده .. والموت ينقض على صاحبه على غير انتظار منه ، كما ينقض اللص فى ظلام الليل ..

ثم أضاف بعد ان غير نغمة صوته .. انه بيت جميل على كل حال .. فكر فى ساعة الموت ...

واختتم كلامه فى شىء من التشفى : أيدرى أحد ماذاينتظره فى العالم الآخر ؟ ..

وبعد أن صعدوا جميعا بضع درجات أخرى ، خرجوا الى شرفة البرج الاولى . وهناك وجدوا انفسهم على ارتفاع كاف، ولكنهم رأوا فى الجدار فتحة تؤدى الى مستوى أعلى من ذلك عن طريق ممر أوعر من السابق .

وكانت الشرفة الاخيرة تطل على منظر شاسع رائع . وفى هذا الوقت كانت الشمس قد أوشكت أن تغيب وامتدت على أرض الوادى سحب طويلة من الظلال ، وظهرت فى السماء سحابة كثيفة نحو الشرق ، واختفت الآفاق البعيدة وراءحجب المساء ، حيث لم يبق الا بعض أشعة الغروب الملتوية التى كانت تنتزع من فكى الفسق الازرق قطعة من حائط أبيض أو زجاج شباك يلمع كالياقوت الاحمر أو ومضة متألقة على صليب جرس بعيد .

وقف الجميع صامتين . وكانت الريح فى هذا المستوى المرتفع تهب فى فتحات البروج صافية خالصة من غبار الارض ، فتحرك الجبال وتقتحم الاجراس وتثير فى بعض الاحيان اصداء متواصلة . وبدا ذلك فى صورة رنين عميق تدرك منه الاذن ما يشبه الموسيقى البعيدة غير المحددة أو أنفاس الآلات النحاسية الحزينة .. وكان المنظر الذى فى أسفل البرج يخيم عليه الهدوء النقى والسلام الخالص .

ولكن الصمت الذى خيم على الجماعة الصغيرة كان له سبب آخر غير هذا السبب . فقد اقترب الكفيفان من ركن السياج مدفوعين فى أغلب الظن بالشعور الذى يثيره فى نفسيهما ارتفاع المكان والضعف ، واستندا عليه بأيديهما ووجهاهما

للناحية التى تهب منها ريح المساء الصافية العذبة ، وظلا هكذا دون حراك ..

وهناك أدرك كل الحاضرين شدة التشابه بين الاثنين .. ولكن ضارب الناقوس كان أسن من صاحبه بقليل ، وكانت مسوحه السوداء تنسدل على جسمه النحيل العليل فى شكل ثنيات راسية طويلة .. أما ملامحه ، فكانت أشد تميزا وأقسى منظرا من ملامح بطرس ، غير أن الفحص المتأنى كان لايلبث أن يظهر مابين الشابين من اختلاف . فضارب الناقوس كان أشقر الشعر ، أقنى الانف ، وشفتاه أرق من شفتى بطرس بقليل . كما كان له شاربان وعثنون صغير أجعد على ذقنه . أما اشاراته وثنيات شفتيه العصبية وحركة حاجبيه الدائبة ، فكانت تنطق بذلك الشبه الغريب الذى يجعل الحدب أيضا يتشابهون فيما بينهم كما لو كانوا كلهم اخوة .

كان وجه بطرس أميل الى الهدوء، ويستطيع المرء أن يقرأ فيه نوعا من الحزن المعتاد الذى يمتزج على وجه ضارب الناقوس بروح الشر والسخط المر ، يجعله أكثر وضوحا وأشد ظهورا . ولكنه هو الاخر قد لاذ بالهدوء شيئا فشيئا .. اذ يبدو أن تنفس الريح الرتيب المستوى قد أزال من جبينه كل التجاعيد وملأ كيانه كله بذلك السلام الجميل الذى تشبعت به الطبيعة بأسرها ، تلك الطبيعة المحجوبة أمام عينيه . وأخذ اضطراب حاجبيه يتناقص بالتدريج ..

ولكن الخفقان تملكهما من جديد فى آن واحد ، كما لو كانا قد سمعا ضوضاء مقبلة من الوادى لا يستطيع الآخرون ادراكها .

فقال بطرس : هناك جرس يدق .

وأخذ ضارب الناقوس يبين له جلية الامر ، فقال : انه على بعد خمسة عشر فرسخا من هنا ، فى كنيسة سان جورج ،

فمن عادتهم أن يضربوا الناقوس دائما لصلاة المساء قبلنابنصف ساعة . . فهل تسمع صلصلة ؟ أنا أيضا أسمعها . أما الآخرون فلا يسمعون شيئا .

وسكت لحظة ، ثم استمر يقول ، وهو شارد الفكر :

ـ الجو صحو عندنا . . ولاسيما فيأيام الاعياد . . أتأتى لك يوما أن تسمعنى وأنا أضرب الناقوس ؟

والقى هذا السؤال بلهجة تنم عن اعتزاز ســـاذج . . ثم واصل كلامه . .

ـ تعال الينا يوما لتسمع ضربى على الناقوس . . ان الاب بمفيل . . . أتعرف الأب بمفيل ؟

على كل حال ، ان الاب بمفيل اشترى هذين الناقوسين الصغيرين من أجلى بوجه خاص .

ولم يكد ينطق بتلك العبارة حتى انسلخ عن الجدار وأخذ يمسح بحنان بالغ على ناقوسين صغيرين لم يكونا قد استقرا فى مكانهما بعد استقرار النواقيس الاخرى .

ـ انهما يصلصلان جيدا ، حتى يظن من يسمعهما أنهمـــا يغنيان . . ولا سيما فى وقفة عيد الفصح .

وتناول طرف الحبل المتدلى وقام بحركة مفاجئـــة من أصابعه ، فرن الناقوسان محدثين صوتا رنانا يشبه صوت الدف المكتوم بعض الشىء . . وكانت دقات المطرقتين ضعيفة واضحة فى آن واحد ، بحيث يسمع رنينها جميع الحاضرين دون أن يتعدى حدود قاعدة البرج .

ثم أشار بيده الى الناقوس الكبير وهو يقول : اما هـــذا فيعمل بو . . م ، بو . . م !

وظهر عليه شىء من الابتهاج الساذج أضاء وجهه ، ولكن

مسحة من الضعف والخور كانت لا تفارقه وتدعو من يراه الى الاشفاق عليه .

واستطرد يقول ، وهو يرنو كأنما يلقى من على أكتافه حملا ثقيلا .. « لقد أمر الاب بمفيل باحضار الناقوسين .. أما اذا تعلق الامر بشراء عباءة جديدة لى ، فانه ينسى أن يفكر فيه على الاطلاق ، هذا البخيل . ومع ذلك فان هواء البرج شديد البرودة ، ولا سيما فى فصل الخريف .. أوه ، ياله من برد ترتعد منه الاجسام .

ثم توقف عن الكلام برهة ، وراح يرهف اذنيه ، وقال :

الاعرج يناديكم .. هيا بنا ، فقد حان الوقت .

وكانت ايفلين أسبق الحاضرين الى النهوض . وكانت حتى هذه اللحظة مستغرقة فى تأمل ضارب الناقوس وكأنها تحت تأثير سحرى استولى عليها . وقد اتجهت الى الحاضرين وهى تنهض ، وقالت : هيا .

وشرع الشبان فى النزول .. أما ضارب الناقوس ، فقد بقى مكانه .. وبعد أن خطا بطرس خلف أمه بضع خطوات ، توقف عن المسير فجأة وقال بلهجة الآمر : أنزلوا أنتم وسألحق بكم بعد قليل .

خفتت الخطا . وكانت ايفلين تسير أمام ميخايلوفنا ، فأفسحت لها طريق العبور . أما هى فقد التصقت بالجدار وكتمت أنفاسها . واستقرت فى مكانها .

واعتقد الكفيفان أنهما أصبحا وحيدين فى البرج . وبقيا جامدين بضع لحظات يخيم عليهما نوع من الحرج ، ويصغيان الى شىء ما .

وأخيرا انطلق ضارب الناقوس يسأل : من هنا ؟

ـ أنا ؟

ـ هل أنت أيضا أعمى ؟

ـ نعم ، أعمى . وأنت ، هل فقدت بصرك منذ زمن طويل ؟

ـ وكان رد ضارب الناقوس على سؤال بطرس : لقد ولدت أعمى . ولدينا هنا أعمى آخر ، وهو رومان .. رومان الذى فقد بصره فى السابعة من عمره . وأنت ، أتعرف كيف تميز بين النهار والليل ؟

ـ نعم أعرف .

ـ وأنا أيضا ، أستطيع ذلك . أشعر به حينما يبزغ . أما رومان فلا يعرف ، ومع ذلك فهو أسهل عليه .

ـ وسأله بطرس بلهفة : لماذا ؟

ـ لماذا ؟ ألا تعرف لماذا ؟ انه رأى النهار ، وفى وسعه أن يتذكر أمه .. أتفهمنى ؟ فمثلا ماعليه الا أن ينام لكى يرى أمه فى الحلم .. غير أنها قد تقدم بها العمر ، وهو يراها شابة دائما. وأنت ، أترى فى منامك بعض الاحلام ؟ فأجابه بطرس بصوت مكتوم . كلا .

حق ما تقول .. هذه هى حال الذين فقدوا أبصارهم . أما نحن الذين ولدنا هكذا ..

وظل بطرس حزينا مكتئبا ، كما لو كانت سحابة قد نزلت على وجهه فغطته . وارتفع حاجبا ضارب الناقوس فجأة فوق عينيه اللتين رأت فيهما ايفلين آلام العميان ، تلك الآلام التى تعرفها جيدا .

وفجأة صاح ضارب الناقوس .. آه يا الهى .. آه ياسيدتى العذراء .. أنيرا بصرى لكى أرى النور ، ولو مرة واحدة .

قال ذلك وقد تقلص وجهه وبدت عليه روح المرارة السوداء التى رأيناها عليه منذ قليل ، ثم استدرك قائلا :

كلا ، انهما لا يريدان ان يحلم الواحد منا بشىء ما ، ويبدأ الامر فى البزوغ ، ولكن هذا ما يحدث ، لا يكاد المرء يستيقظ حتى يكون قد نسى كل شىء .

وهنا توقف عن الكلام فجأة وأرهف أذنه ، وشحب لونه ،

واعترته هزة قلصت ملامحه . ثم قال بلهجة كلهـــا سخط وغضب :

ـ لقد تركوا الشياطين الصغار يدخلون .

والحقيقة أن صيحات صبيانية تشبه ضوضاء الفيضان أخذت تصعد من أسفل مخترقة الممر الضيق . وبعد لحظة صغيرة خيم السكون ، وكان معنى ذلك أن جحافل الاطفال قد وصلت الى الشرفة السفلى وصار ضجيجهم ينتشر خارج البرج . ولكن لم تمض لحظة أخرى حتى بدأ السلم المظلم يعج من جديد عجيج انبوبة الارغن ، ثم ظهرت غمامة مرحة من الاطفال يتسابقون فى العدو ومروا أمام ايفلين مرور البرق .. وعلى الدرجة الاخيرة توقف الاطفال قليلا ، ثم أخذوا يتسللون أمام ضارب الناقوس الذى اكفهر وجهه من فرط الغضب ، وراح يضرب بلكمته فى الهواء محاولا بقـــدر امكانه أن يصيب المغيرين .

وفجأة انشق ظلام السلم عن شخص جديد ، وهو رومان . كان ذا وجه عريض مسالم ترك فيه الجـدرى ندوبا وأخاديد وكان جفناه المسدلان يستران فراغ عينيه . وتتراقص على شفتيه ابتسامة ساذجة ، وقد مر أمام الفتـــاة التى لا زالت لاصقة بالجدار ، ثم صعد الى الشرفة ، ولم يكد يضع فيها قدميه حتى هوى على قفاه ذراع زميله ، وهو يحاول ضرب الاطفال . فصاح به فى صوت رضى حنون خارج من صدره : أيها الاخ .

وظل بيجور منهمكا فى صراخه حتى اصطدم احـــدهما بالاخر وراح كل منهما يتحسس صاحبه .

وعندئذ سأل بيجور زميله بصوت يكاد يحبسه الغضب : لماذا سمحت لهؤلاء الشياطين بالدخول ؟

وأجابه رومان بثبات وطيبة قلب : ولم لا ؟ انهم أحبابه

الله . الا ترى انك قد اخفتهم ؟ أين أنتم أيها الصغار الخبثاء . ؟

ارتج على الاطفال ، وراحوا يتزاحمون فى أركان الشرفة ، وبدأ عليهم الذعر وان ظلت أعينهم تومض بالخبث .

واخذت ايفلين طريق النزول فى الظلام دون ضوضاء ، وكانت قد وصلت الى منتصف السلم الاول حين سمعت الكفيفين يسيران خلفها بخطا ثابتة . أما الشرفة فكان ينبعث منها صياح الاطفال المرح وقد اقبلوا جميعا على رومان يمازحونه بعد أن بقى وحده معهم .

كان الزائرون يغادرون الدير حين دوت فى الفضاء أول ضربة منبعثة من الناقوس حيث بدأ يصلصل لصلاة المساء .

وكانت الشمس قد اختفت وراء الافق . وراحت العربة تتهادى بحذاء الحقول المظلمة تشيعها دقات الناقوس الحزينة التى تنطلق على مدد متساوية لتتلاشى فى ظلال الفسق الزرقاء .

لزم الجميع الصمت المطلق وهم فى طريقهم الى العودة . وفى المساء اختفى بطرس عن انظار الحاضرين وقتا طويلا ، حيث جلس فى ركن مظلم من أركان الحديقة ، وأبى أن يرد على أى نداء ، حتى نداء ايفلين . وبعد أن أوى الجميع الى فراشهم تحسس الطريق حتى دخل غرفته .

𝄞

قضى آل بوبلسكى بضعة أيام اخر فى ضيافة آل ستاوروتشنكو ، وكان بطرس يبدو معتدل المزاج فى بعض

الاحيان ، فظهر عليه المرح والنشاط ، ويلعب على بعض الآلات التى كان لدى الشاب ستاورتشنكو منها مجموعة هائلة . وكان الكفيف يعجب بها كثيرا ، لان كلا منها تستطيع بصوتها أن تعبر عن ناحية ما من نواحى العاطفة .

ولكن الجميع كانوا يشعرون بأنه مثقل بالاحزان ، وأن لحظات ابتهاجه لم تكن الا ومضات قصيرة فى حالته العامة التى أصبحت لاتزداد الا سوادا .

ولم يحاول أحد من الجماعة أن يشير الى حادث الدير ، كما لو كان قد وقع بينهم اتفاق ضمنى على ذلك ، وكأن هذا النصيب من متعتهم قد انمحى من ذاكرتهم الى الابد . ومع ذلك لم يكن من العسير على أى انسان أن يلاحظ رسوخ هذه الذكرى فى قلب الاعمى ، فكان كلما خلا الى نفسه أو خيم السكون على الجميع لسبب ما أو انصرف من ذات نفسه الى الانصات الى حديث الآخرين ، غرق فى تأملاته وبدأ على وجهه شعور عميق بالمرارة ، وكان الجميع يلاحظون عليه هذه الظاهرة من قبل ، ولكنها الآن أخذت فى الاستفحال المطرد حتى صارت تذكرهم بمظهر ضارب الناقوس .

فكان اذا جلس أمام البيانو واستوحى الهامه الخاص ، عمل فى غالب الاحيان على تضمين عزفه بعض الانغام الشدية والزفرات المديدة التى سمعها من أجراس البرج المختلفة . وأصبح ما اتفق الجميع ضمنا على عدم الكلام فيه يقرع خيال كل واحد منهم بكل وضوح . السلم المظلم ووجه ضارب الناقوس المعروق ذو اللون الشاحب العليل وغضبه الجارف وشكواه المرة ضد مصيره المحتوم ثم الكفيفان فوق شرفة البرج ، وهما يحتفظان كلاهما بنفس الوضع ونفس تعبير البرج ، وهما يحتفظان كلاهما بالوضع نفسه وتعبير الوجه نفسه والحركة القلقة التى لاتفارق الحاجبين . وهكذا

ظهر لاقارب بطرس وأصدقائه أن تلك السمة التى ظنوها من مميزاته الفردية ليست الا طابع الحكم المشترك الذى يباشر تأثيره العجيب على كل ضحاياه بصورة واحدة . عاد الجميع الى منزلهم ، وفى ذات يوم انفرد العم مكسيم بأخته وسألها قائلا : اسمعى يا آنيا ، ألا تعرفين ماذا حدث أثناء رحلتنا ، فأنا اعتقد أن غلامنا قد تغير منذ هذا اليوم بالذات ؟

فأطلقت أنا ميخايلوفنا زفرة حارة من صدرها ، وقالت كل هذا بسبب التقائه بالاعمى .

وكانت أنا ميخايلوفنا قد أرسلت الى الدير منذ أيام قليلة عباءتين من صوف الغنم وبعض النقود وخطابا الى الاب بمفيل ترجوه فيه ان يعنى بحال الكفيفين بقدر الامكان . والواقع ان أنا كانت تتمتع بقلب حنون ونفس سخية ، ولكنهاحينمافكرت فى ارسال هذه الرسالة نسيت وجود رومان بادىء ذى بدء لولا ايفلين التى ذكرتها بوجوب العناية بالمنكوبين معا .

وحينئذ أجابتها بقولها « نعم ، نعم ، لابدمن ذلك » . ولكن من الواضح أن عقلها لم يكن مشغولا الا بواحد فقط . وكان عطفها الحار هذا يمتزج بنوع من الاحساس الخرافى . اذ بدا لها أن تقديم هذا الاحسان قد يساعدها على تهدئة قوة خفية رأت انها تحوم حول رأس وليدها كالغمامة السوداء .

وسألها العم مكسيم وهو كالمذهول مع أى اعمى تريدين ؟

ــ مع ذلك ... الذى يضرب الناقوس ...

لم يكد العم مكسيم يسمع هذه الجملة حتى ظهر عليه الاضطراب ، وضرب الارض بعصاه ، وقال :

ــ ما أتعس أن يصبح الانسان كتلة ثقيلة محرومة من نعمة السيقان ! لعلك قد نسيت أنى لم أعد أتسلق الابراج ، اما النساء فمن المستحيل على الانسان أن يستطيع التفاهم معهن . أتستطيعين ، ياعـــزيزتى ايفلين ، ان تقصى على كل ماحدث فى البرج بصورة مفهومة ؟

وردت الفتاة التى شحب لونها هى الاخرى منذ بضعة أيام بقولها : هناك ... هناك ضارب ناقوس أعمى . . وضارب الناقوس هذا ...

ثم توقفت الفتاة عن الكلام ، أما أنا ميخايلوفنا فقد وضعت راحتيها على وجهها الملتهب الفارق فى الدموع .

ـ وضارب الناقوس هذا يشبه بطرس شبها كبيرا .

فقال العم مكسيم بلهجة عتاب رحيم : ولكنكم لم تحدثونى عن شىء من هذا القبيل .

ولست أرى فى ذلك حتى الآن سببا لحدوث مأساة يا أنا

ـ وأجابت انا ميخايلوفنا بصوت تخنقه العبرات « آه » ياللهول .. ياللهول ..

ـ وأين هو هذا الهول ؟ ، انه يشبه ابنك ؟

فنظرت ايفلين الى الكهل نظرة ذات مغزى ، ثم لاذت بالصمت . وبعد دقائق خرجت انا ميخايلوفنا وبقيت ايفلين وشغلها فى يدها كالمعتاد .

وحينئذ سألها العم مكسيم بعد فترة صمت قصيرة : انك لم تقولى لى كل شىء يا ايفلين ؟

ـ كلا ... فحينما نزل الجميع بقى بطرس فى أعلى البرج ... ورجا العمة آنيا ( هكذا كانت ايفلين تدعو السيدة بوبلسكا منذ طفولتها ) أن تلحق بالجماعة ليبقى وحده مع الاعمى . ولكنى ... ولكنى بقيت أنا أيضا .

وأجاب المربى العجوز بطريقة شبه آلية : لكى تسترقى السمع ؟

ـ فقالت الفتاة بصوت خافت : لم استطع الذهاب ، وأخذا يتكلمان باعتبارهما ...

ـ باعتبارهما رفيقين فى الشقاء؟

ـ هذا ما أردت أن أقوله .. باعتبارهما أعميين . ثم أخذ بيجور يسأل بطرس : هـــل كان يرى أمه فى الحلم ؟ فأجابه بطرس بالنفى . وكذلك بيجور لايرى أمه هـــو الآخر ولكن هنـــاك أعمى آخر ، وهو رومان الذى يرى أمـــه فى سن الشبا ب بالرغم من أنها أصبحت عجوزا ..

ـ مفهوم . ثم ماذا ؟

فأطرقت ايفلين برأسها نحو الارض بضع لحظات ، ثم رفعت نحـــو الكهل عينيها الزرقاوين اللتين تنمان عن الالم والصراع فى آن واحد ، وقالت : أما رومان ، الاعمى الآخـــر فتبدو عليه الطيبة والهدوء . واذا كان وجهه ينم عن الحزن فانه لايتسم بالشر . ثم أضافت بطريقة ملفوفة ، ولكن الآخر ... يتألم كثيرا ...

فقطع العم مكسيم كلامها بعد ان نفد صبره ورجاها أن تتكلمه بكل صراحة ثم قال لها : أتريدين أن تقولى انه ساخط حانق ؟

وأجابت الفتاة بتلهف : نعم ، فقد أراد أن يضرب الاطفال ولم يكف عن شتمهم طول الوقت ، اما رومان ، فان الاطفال يحبونه ، بطبيعة الحال .

فظهر الشرود على العم مكسيم واطرق قليلا ، ثم قال كأنه يكلم نفسه : انه شرير ويشبه بطرس شبها كبيرا ، نعم لقد فهمت .

وسكتت ايفلين لحظة وبدأ عليها كما لو كانت هذه الكلمات قد أثارت فى نفسها صراعا عنيفا ، وأخيرا قال بصوت لايكـاد يسمع :

انهما لايتشابهان فى الوجـــوه .. فملامحهما مختلفة . ويبدو لى أن تعبير وجه بطرس كان أشبه بتعبير وجه رومان حتى عهد قريب ... أما الآن فانه لايزداد الا شبها بالآخر .. ومع ذلك ... فأنا أخشى .. أعتقد

ونظر اليها العم مكسيم نظرة كلها عطف ، وقال لها بحنان واضح : ماذا تخشين ؟ تعالى هنا ياعزيزتى الصغيرة العاقلة ..

وتأثرت ايفلين بهذا الحنان غير المتوقع ، فتساقطت الدموع من عينيها واقتربت منه .

فمر بيده العريضة على شعرها الحريرى ، وقال : اذن ما رأيك ياعزيزتى ؟ أرى أنك تعرفين كيف تفكرين .

ـ أرى أنه يعتقد الآن أن كل من ولدوا عميانا لابد أن يكونوا أشرارا ... بل .. يعتقد أنه الآخر لايستطيع الا ان يكون مثلهم ..

فصاح العم مكسيم آه .. هل هذه هى المسألة ؟ ثم رفع يده من فوق شعرها وطلب منها أن تحضر له غليونه مشيرا لها على مكانه فوق قاعدة الشباك .

ولم تمض لحظات حتى كانت خيوط الدخان اللولبية الزرقاء تتصاعد فوق رأسه .

ثم أخذ يقول لنفسه وكأنه يزمجر :

ـ نعم هذا أمر خطير . لقد كنت واهما ، وكانت آنيا على حق . فمن الممكن أن يألم الانسان وأن يصبو نحو شيء لم يعرفه قط . وها هو ذا الوجدان يسير وراء الفريزة . يالها من صدفة ملعونة ... ولكن لم يكن من ذلك مفر . فلا بد ان تظهر الحقيقة يوما من الايام . ولم يكن هناك مناص من أن يحدث ذلك ان عاجلا وان آجلا .

وما لبثت بعد ذلك ان اختفى تماما بين سحائب الدخان الازرق الاشهب . وجعلت الافكار تغلى فى رأس الشيخ العاجز ، والقرارات تتحدد وتسير نحو النضج .

أقبل الشتاء وتغطت الطرق والحقول والقرى بطبقة سميكة من الثلوج . ولبس القصر ثوبا ناصع البياض . وتراكمت حبيبات الثلج على الاشجار ، فأصبح يخيل للرائى ان الحديقة قد تفتحت عن أوراق بيضاء . وجعلت النيران تصطرع فى المدفأة الكبيرة ، فكان القادمون من الفناء أو الحديقة يحملون معهم رائحة البرودة الرطبة والثلج الاسن .

وكان الاعمى يحس ، على طريقته ، بشدة الايام الاولى من أيام الشتاء . وكان كلما أستيقظ من نومه ، انتابه احساس غريب من الشدة ، وشعر بقدوم الشتاء من وقع أقدام الاشخاص الذين يدخلون المطبخ ، ومن قرع الابواب لدى الدخول والخروج ، وتيارات الهواء الخافتة التى تتسلل فى جميع ارجاء المنزل ، وأزيز الثلج فى الفناء ومن تلك البرودة الفريبة التى تنبعث من جميع الاصوات الخارجية . واذا ماخرج الى الحقول فى صحبة يوخيم ، أنصت بلذة فائقة الى الثلج وهو يصيخ تحت الزحافات ، والى الاصداء التى تتجاوب بين الغابة والحقل والطريق العام .

وفى هذا العام لم يحمل له أول أيام الثلج البيضاء الا أحلك غمائم الحزن التى رآها فى حياته . فلبس حذاءه الطويل فى ساعة مبكرة من النهار وخرج وحده يسرى فى مسارب الحديقة المغطاة بالثلج ميمما شطر الطاحونة .

وكان السكون التام يخيم على الحديقة ، والارض التى جمدها البرد وغطاها بساط وثير من الثلج لاترد أى صدى .

أما الهواء فكان على العكس من ذلك فتيا رنانا يحمل معه الى مسافات شاسعة نعيق الغراب وضربات الفأس وذلك الصوت الضعيف الذى يحدثه أحد الاغصان حين ينكسر فجأة . ومن حين لحين كان يسمع صوت غريب ناشىء ، على مايبدو ، من تكسير صفائح رقيقة من الزجاج . وكانت الضوضاء تصل الى أحد نغماتها ثم تتلاشى وكأنها تموت فى الآفاق البعيدةالتى لايصل اليها حسبان . وذلك أن الصبيان كانوا يقذفون بعض الاحجار فى مستنقع القرية الذى ألقى عليه الليل غلالة رقيقة من الجليد .

تجمدت بحيرة القصر هى الاخرى ، أما الجدول الصغير القريب من الطاحونة فقد ازداد تياره بطئا ولونه سوادا ، ولكنه ظل يتسلل بين شاطئيه المغطيين بالثلوج ، ويسمع خريره بين السدود .

اقترب بطرس من الحاجز الكبير ، ثم توقف عن المسير ، وقد أصبحت ضوضاء الماء الآن غيرها فى الايام الماضية ، حيث صارت أثقل من ذى قبل ولم يعد فيها شيء من الغناء . فكان المرء يحس فيها برودة الطبيعة الغارقة فى نومها .

ولم تكن الحال فى نفس بطرس أقل من ذلك برودة واظلاما ذلك أن الاحساس الغامض الذى انبعث من اعماق كيانه عقب هذا المساء السعيد وبذر فى نفسه الخوف والشك والسخط ، قد استمر فى النماء منذ ذلك الحين واحتل فى نفسه مكان المرح والامل فى السعادة .

وكان القصر يخلو من وجود ايفلين ، حيث ذهب آل بسكولسكى لزيارة ولية نعمهم الكونتسة بوتسكا التى ألحت على الشيخين ان يحضرا ابنتهما معهما . وكانت ايفلين قد أصرت على الرفض فى بادىء الامر ، ولكنها نزلت فى النهاية على رغبة أبيها الذى عضده العم مكسيم فى طلبه هذا بكل قواه .

وقف بطرس على مقربة من الطاحونة وتذكر عواطفه القديمة ، وحاول ان يحياها بكل مافيها من جديد ، وراح يسأل نفسه : هل كان يحس غيابها بحق ؟ نعم ، من البديهى انه كان يحس هذا الغياب ، ولكنه أدرك فى الوقت نفسه ان وجود ايفلين لايوفر له السعادة ، بل على العكس من ذلك يسبب له بعض الآلام التى لولاها لخفت وطأتها الى حد كبير .

كانت كلمات ايفلين لاتزال ترن فى أذنيه ، وجميع التفاصيل التى دارت بينهما يوم أول تصريح لهما ترتسم فى ذاكرته ، وكان يحس شعرها الحريرى تحت يده ، وقلبها يخفق فوق صدره . وكان من المعتاد ان يكون هذا المشهد صورة تملأ نفسه بالبهجة ولكنه فى هذه المرة شعر بأن شيئا مانعا لاشكل له يشبه الاشباح الغامضة التى تعمر خياله القاتم قد نفخ فى هذه الصورة فحطمها ثم اختفى . فلم يعد فى مقدوره ان يجمع ذكرياته فى ذلك اللحن المؤتلف من العواطف التى كان قلبه يفيض بها فى أيامه الاولى . كان فى بداية الامر يرتاب فى وجود شىء آخر ينبت فى قاع هذه العاطفة ، أما الآن فقد أخذ هذا الشىء الآخر ينوء به كأنه سحابة عاصفة اندلعت فوق الافق .

انطفأت الانغام المنبعثة من صوت ايفلين ، وتلاشت الذكريات المضيئة لذلك المساء السعيد ليحل محلها فراغ مخيف ، وتصاعدت فى نفس الاعمى عاطفة جديدة لكى تملأ هذا الفراغ ، وكانت عاطفة ثقيلة أليمة فى آن واحد .

انه الآن يريد أن يراها .

وكان قبل ذلك انما يشعر بألم صامت يقلق نفسه بصورة غير محدودة ، ويخزه وخز السن المريضة التى لم ينكشف أمرها بعد .

ولكن لقاءه بضارب الناقوس الاعمى قد بعث فى هذا الداء نوعا من المرارة ، مرارة الالم المعروف المحدد المعالم .

انه يحبها ، ويريد أن يراها .

هكذا كانت الايام تتعاقب فى القصر ، صامتـــة غارقة فى الثلوج .

كان بطرس ينشط بعض الشيء ويشرق وجهه كلما مثلت فى خاطره ذكرياته السعيدة بكل ما فيها . من حياة وبهاء ، ولكن هذه اللحظات كانت قصيرة الاجل ، ثم أصبحت بمضى الوقت ملأى بالقلق ، كما لو كان الاعمى يتوقع مابين دقيقة وأخرى أن يراها تفلت منه الى غير رجعة . وكان من شأن هذا الخوف ان يجعله متغير المزاج غريب الاطوار . فكانت تعتريه لحظات من الحنان التلقائى العنيف والهياج العصبى الشديد لا تلبث أن تزول لتحل محلها أيام كاملة من الانهيار الاسود . وفى المساء كان البيانو يبكى وينتحب فى الصالون المظلم ، يبكى ويملأ الجو بسحائب الحزن العميق الوخاذ ، وكل نغمـــة من نغماته تثير صدى أليما فى قلب أنا ميخايلوفنا وأخيرا وقعت الكارثة . فعادت الى بطرس أحلام طفولته المروعة .

ودخلت الأم غرفة وليدها ذات صـــباح ، ولم يكن قـــد استيقظ من نومه بعد ، ولكنه كان نوما غريبا يبين عن قلـــق عميق . كانت عينـــاه نصف مفتوحتين ، ومن تحت جفنيـــه المواربين تتسلل نظرة قاتمة غريبة ، أما وجهه فكان شاحبا غائرا ينم عن القلق والاضطراب .

وتوقفت أنا ميخايلوفنا أمام وليدها ، وأخذت تفحصه وتحاول جهدها أن تجد سببا لهذا القلق الغريب ، ولكنها لم تستطع الوصول الا الى شيء واحد فقط ، وهو ان هـــذا القلق فى تزايد مستمر وان وجـــه بطرس يكشف عن توتر داخلى متزايد .

وفجأة خيل اليها ان حركة طفيفة لاتكاد تدرك قـــد ارتسمت على فراش وليدها ، ذلك ان شعاعا وهاجا من أشعة

شمس الشتاء الساطعة قد نزل على الحائط بالقرب من مضجع بطرس ، وبعد أن ارتعش ارتعاشة خفيفة انزلق الى اسفل الجدار .. حتى أصبح بقعة من الضوء أخذت تزحف ببطء مقتربة من عينى بطرس شبه المغلقتين ، وهنا زاد الاضطراب المرتسم على وجهه شدة ووضوحا .

ووقفت أنا ميخايلوفنا جامدة لاتتحرك فى حالة شبيهة بالكابوس ولم يعد فى مقدورها ان تحيد ببصرها عن تلك البقعة المضيئة التى خيل اليها أنها تنحدر على دفعات خفيفة ، ولكن واضحة ، نحو وجه ابنها . وأخذ هذا الوجه يزداد شحوبا ثم يستطيل ويجمد فى صورة قناع متوتر الملامح من اثر المجهود الداخلى . ثم وصل الشعاع الذهبى الى شعر بطرس وأضاء جبينه . وحاولت الام فى حركة غريزية أن تندفع الى الامام لتدفع عن وليدها ، ولكن ساقيها لم تطاوعاها كما لو كانت فى حلم مخيف . وانفرجت عينا الفتى المراهق ، وأخذت حدقتاه الجامدتان تبعثان بومضات متتابعة سريعة ، ونهض برأسه قليلا من فوق الوسادة لكى يستقبل الضوء . وجرت على شفتيه حركة عصبية سريعة كأنها ابتسامة او لعلها زفرة أليمة ثم لم تلبث ان اختفت ليعود وجهه الى الجمود من جديد ولكن فى صورة تحفز .

وأخيرا استطاعت الام أن تتغلب على تصلب جسمها ، واقتربت من فراش بطرس ووضعت يدها على رأسه فانتفض انتفاضة خفيفة ثم استيقظ من نومه . وتساءل قائلا :

ـ هل هى انت يا أمى ؟

ـ نعم أنا .

ونهض الفتى من فراشه ، وكان يبدو ان وجدانه لازال محوطا بضباب كثيف .

انقلب مزاج بطرس السوداوى الموحش الى نوع من ضيق الصدر العصبى . وفى الوقت نفسه استمرت حدة احاسيسه فى ازدياد مطرد ، فأرهف سمعه الى حد غريب ، وأخذ يحس النور بكل كيانه . واستطاع التفريق بين الليل المقمر والليل البهيم ، وكان يحدث له فى كثير من الاحيان أن يتنزه وحده فى فناء المنزل بعد ان ينام الجميع ، فيستسلم فى حزن وصمت الى ذلك التأثير الغريب الذى يحدثه ضوء القمر ونوره الحالم العجيب ، وفى هذه اللحظات كان وجهه الشاحب يتجه دائما نحو كرة النار السابحة فى بحر الاثير ، وعيناه تعكسان وميض الاشعة الباردة .

وكانت هذه الكرة تزداد حجما كلما زادت من الافق قربا حتى اذا تدثرت بثوب من الضباب الاحمر الكثيف وأخذت تختفى وراء الافق ، بدأ على بطرس شىء من الهدوء والطمأنينة وآوى الى غرفته . ليس من اليسير أن يعرف المرء : فيم كان يفكر بطرس خلال هذه الليالى الطوال ؟ فكل انسان عانى فى حياته الشعورية ضروبا من المباهج والآلام لابد أن يمر فى لحظة ما بين لحظات وجوده بأزمة عنيفة ان قليلا وان كثيرا . وذلك لانه حين يجد نفسه على أبواب الحياة الايجابية يحاول تحديد قيمته ومكانه فى الطبيعة وعلاقاته بالكون المحيط به . فهذا نوع من الارض الموات التى تفصل بين عالمين ، وما أسعد من تساعده قواه على اجتيازها دون أن يتحطم فى وعثاتها ! وبطبيعة الحال كانت هذه الازمة أشد على بطرس منها على غيره بكثير ،

لأنه كان عليه أن يوجه الى نفسه هذا السؤال : « لأى غاية يتشبث الاعمى بالاستمرار فى الحياة ؟ » فضلا عن ذلك السؤال العام الذى يلقيه على نفسه كل انسان صادفته هذه الازمة ، وهو « ما جدوى الحياة ؟ » ثم ينضم الى هذا العمل الفكرى الخالى من كل بهجة أمر آخر لا يخلو من غرابة ، وهو العذاب الجسماني الذى تثيره لديه حاجة لم يستطع اشباعها ، مماكان له أشد الاثر على تكوين طباعه .

ورجع آل يسكولسكى الى دارهم قبل عيد الميلاد بأيام قليلة . وكانت ايفلين تفيض بالنشاط والمرح ويشرق وجهها من فرط النضارة والشباب ، فلم تكد تدخل منزلها حتى سارعت تجرى والثلج يغطى شعرها ورائحة البرودة تفوح من ثيابها فأقبلت على أنا ميخايلوفنا والعم مكسيم وبطرس تقبلهم بحرارة وشوق . وظهرت على وجه الاعمى فى بادىء الامر اشراقة من سرور غير متوقع ، ولكنه لم يلبث أن عاد الى سيماء الحزن التى لازمته .

ولم يكد ينفرد بالفتاة فى اليوم نفسه حتى وجه اليها هذا السؤال فى نغمة حاسمة : أتظنين انى أحبك ؟

وأجابت ايفلين : انى واثقة من ذلك .

فرد عليها الاعمى وقد بدا عليه الحزن والكمد أكثر مما فى اى وقت آخر : أما أنا فلا أدرى من حقيقة الامر شيئا . نعم ، لا أدرى . فمنذ وقت قصير ، كنت أنا أيضا على تمام الثقة بأنى أحبك فوق كل ما فى هذا العالم ، أما الآن ، فقد أصبحت لا أدرى شيئا . فدعينى ، واذهبى بالاحرى الى أولئك الذين يدعونك الى الحياة الحقة ، وعجلى بذلك قبل فوات الاوان .

فقالت ايفلين فى صيغة عتاب رقيق : ماذا تريد ايلامى ؟

فتغير وجه بطرس وعادت اليه سيماء الانانية التى غطته بقناع من القسوة ، ثم قال متأملا : أأريد ايلامك ، أنا ؟ آه ، نعم ، انك على حق ، فأنا أسبب لك الالم . وسأكون مصدر ألم لك طوال حياتك ، ولا حيلة لى فى ذلك ... وهذا أمر لم أكن أعرفه من قبل ، أما الآن فقد عرفت كل شىء لست أنا المسئول عن ذلك . فان الزمن الذى حرمنى نعمة البصر من قبل أن أولد ، هو نفسه الذى طبع قلبى على حب الشر . وهكذا كل العميان الذين لم يروا النور قط .... فدعينى ، دعينى فى حالى ، فنحن جميعا على هذه الحال ، وليس فى وسعى أن أجازيك على حبك الا باغراقك فى بحر من الآلام . انى أريد أن أرى ، أتدركين مرمى ما أقول ؟ انى أريد أن أرى ، وليس فى مقدورى أن اكبت فى نفسى هذه الرغبة فلو تيسر لى مرة واحدة أن أرى أمى وأبى ، وأن أراك وأرى العم مكسيم لاعتبرت نفسى من السعداء ، ولاحتفظت الى الابد بهذه الذكرى فى ظلمات ما يتبقى من حياتى .

وأصبح يكرر هذه الفكرة باصرار غريب . وكان اذا خلا الى نفسه ، تناول بين يديه أشياء مختلفة ، وأخذ يتحسسها بعناية ، ثم يضعها جانبا ، ويفكر فى الاشكال التى درسها على هذا النحو والفروق التى بين الاجسام ذات اللون الصارخ ، حيث كان يتأتى له أن يدركها بعض الادراك عن طريق اللمس ، وذلك بفضل شدة الاحساسية التى يتمتع بها مجموعه العصبى ولكن كل هذه الاشياء كانت تنفذ الى وجدانه باعتبارها اختلافات لا أكثر ولا أقل ، أى باعتبارها نسبا متبادلة بين الاشياء دون أن تزوده بأقل فكرة محددة عن جوهرها الحقيقى . والآن صار فى وسعه أن يميز بين النهار المشمس والليل المظلم بمجرد فعل الضوء الوهاج الذى يؤثر على مخه بطرق غير شعورية فيولد فيه وثبات أليمة .

دخل العم مكسيم الصالون ذات يوم فوجد فيه ايفلين وبطرس . وكان يبدو على الفتاة الارتباك ، كما كان وجه بطرس ينم عن الاكتئاب ، حتى كان من يراه يظن أنه قد أصبح منذ زمن ما يشعر بحاجة ملحة الى البحث عن مصادر جديدة للالام والى تعذيب نفسه وتعذيب كل من يحيطون به .

فاتجه العم مكسيم نحو بطرس ، وسأله باختصار : ما المسألة ؟

واكتفى بطرس اول الامر بهز كتفيه ، ثم عقب قائلا :

ـ لاشيء ذا بال . ولكن مادامت الاصوات لها ألوان لا أستطيع أن أراها ، فمعنى ذلك أن وجدانى عاجز عن ادراك الاصوات نفسها لكمالها . هذا كل مافى الامر .

ورد عليه العم مكسيم بلهجته الحاسمة فقال : صبيانيات وترهات ، لاشيء غير هذا وأنت نفسك تعرف أن ذلك ليس صحيحا ، فادراك الاصوات بالنسبة لك أتم وأكمل منه بالنسبة لنا ، نحن المبصرين .

فقال بطرس : واذن فما معنى هذا الوصف الذى يجرى على ألسنة الناس ؟ لابد أنه يعنى شيئا ما ، أليس كذلك ؟

فأطرق العم مكسيم برهة كأنه يفكر فى أمر خطير ، ثم قال هذا مجرد تشبيه . فما دام الصوت والضوء كلاهما أثرا من آثار الحركة ، فلا بد أن يكون بينهما كثير من الصفات المشتركة .

ولكن هذا الجواب لم يرو غلة الاعمى ، فاستمر يطلب

المزيد من الايضاح ، وقال : نعم ، هذا حسن . ولكن ماتلك الصفات الطبيعية التى يعنونها فى هذه الحالة ؟ ماكنه « الصلصلة الحمراء » على وجه التحديد ؟

فشرع العم مكسيم فى « التروى والتفكير » .

وطرأ على ذهنه تفسير يقوم على عدد الذبذبات ، ولكنه أدرك من فوره أن مثل هـــذا التفسير لايناسب الاعمى بأية حال ، ولا سيما انه لاشك فى أن أول شخص استخدم صفة بصرية بحتة فى مجال السمع لم يكن يعرف علم الطبيعة ، ولم يمنعه ذلك من ادراك شىء من وجه الشبه بين الامرين . ففيم ينحصر هذا الشبه ياترى ؟ .

وهنا بدأ يتكون فى ذهن العجوز تفسير آخر . فأخـــذ يشرحه للفتى قائلا : انتظر ! ولكنى لا أدرى : هل فى استطاعتى أن أشرحه لك كما يجب ؟ أنت تعرف مثلى دائما تماما ما « الصلصلة الحمراء » . فقد سمعتها فى المدينة أكثر من مرة فى أيام الاعياد ، ولكن هذه العبارة ليست من العبارات المتداولة فى ريفنا .

فقاطعه بطرس يقول : آه ، نعم ، نعم ، لحظة واحـــدة ، وسارع الى البيانو يكشف عنـــه الغطاء وراح يضرب الازرار بيده الحاذقة محاكيا صلصلة الاعياد التقليدية . وقد أجاد المحاكاة : اذ عزف لحنا مكونا من نغمات « وسطى » جعله بطانة شفعها بنغمات خفيفة نشيطة أسرع من الاولى وأحد وأزهى منها . فنتج عن كل هذا تلك الضوضاء المرحة الرنانة الحيـــة التى تميز جو الاعياد فى العادة .

وقال العم مكسيم ، نعم ، أن هذا كبير الشبه بها . ونحن معاشر المبصرين لانستطيع ادراك هـــذا الشبه ادراكك أنت اياه . وأنت تفهم ذلك جيدا . . . فاذا نظرت الى بقعة حمراء

كبيرة ، أحدثت فى بصرى الاثر المقلق نفسه والتموج المطاط . ويبدو أن هذه الحمرة تتغير . فتعلو هنا وهناك على سطح البطانة الداكنة أمواج أزهى منها تنتج بسرعة فائقة ثم لاتلبث أن تهبط بهذه السرعة نفسها . وهذا النوع من النبض ، اذا جاز لنا هذا التعبير يحدث أثرا قويا على العين ، أو على عينى أنا على الاقل .

ـ وصاحت ايفلين تقول : هذا حق ، هذا عين الحق . فأنا أيضا أحس هذا الاحساس ، ولا أستطيع اطالة النظر الى بساط من النسيج الاحمر مثلا .

وأجاب العم مكسيم : بالضبط ، كما أن بعض الناس لايتحملون صلصلة أجراس العيد . وقد يكون التشبيه الذى ذكرته الآن كافيا ، ولكن يحضرنى الآن تشبيه آخر : فنحن نعرف أن هناك عبارة تقول « الصلصلة الارجوانية » قياسا على « اللون الارجوانى » . وكلاهما يقربان من الحمرة ، ولكنهما أعمق وأهدأ وأكثر تجانسا . ويؤكد العارفون ان الاجراس يحسن ايقاعها بطول الاستعمال . وذلك لان نغمتها تتخلص شيئا فشيئا من ضروب النشاز التى تخدش الاذن فى بداية الامر ، وحينئذ يصل الناقوس الى اصدار الصوت الذى يسمى « بالصوت الارجوانى » ويمكن الوصول الى هذه النتيجة نفسها بضم مجموعة متوافقة من أجراس الكنائس الصغيرة .

ولم يكد العم مكسيم يتم كلامه حتى أخذ بطرس يوقع على مشط البيانو حشدا مركزا من الاصوات التى تشبه أجراس البريد .

ولكن العم مكسيم اعترض على ذلك بقوله : كلا ، فقد يكون ذلك بالاحرى ، مفرطا فى الحمرة .

فاستدرك بطرس قائلا ، آه . هذا حق ، لقد تذكرت .. وبدأت الآلة تصدر ذبذبات أكثر انتظاما من سابقتها . وكانت

الاصوات فى بداية الامر حادة نشيطة زاهية ثم صارت تتحول بالتدريج الى العمق والهدوء ، حتى كان يخيل للسامع أنها صادرة عن سلم من الجلاجل المعلقة فى قوس زحافة روسية تسير فى طريق مترب نحو آفاق بعيدة مجهولة . وأخذ الرنين المنتظم يخفت شيئا فشيئا بهدوء وعذوبة دون انفجارات مفاجئة حتى تلاشت آخر انغامه فى صمت الحقول الوادعة .

فرفع العم مكسيم صوته صائحا ، هذه هى الحقيقة . لقد فهمت الفرق . وفيما مضى ، حينما كنت فى سن الطفولة كانت أمك تحاول أن تشرح لك الالوان عن طريق الاصوات .

وقاطعه بطرس قائلا : نعم ، أتذكر ذلك . فلماذا حرمت علينا مواصلة التجربة لعل ذلك كان يمكننى من الفهم .

فأجابه الرجل العجوز وهو ساهم مطرق الرأس : كلا ، ليس الامر كما تتصور . هذا الى أنى أعتقد أن الخواطر التى تثيرها الاصوات تتجانس لدى وصول النفس الى مرحلة معينة من مراحل العمق . وكثيرا ما نقول عن شخص ما « ... أن هذا الرجل يرى الحياة فى لون الورد . » ومعنى ذلك انه خفيف القلب . ومن الممكن خلق مثل هذا الاستعداد فى النفس بتأليف بعض الاصوات المعينة . فالواقع ان الالوان والاصوات ليست الا رموزا لحركات واحدة بعينها من حركات النفس .

وأشعل العم مكسيم غليونه ، وراح ينظر الى بطرس باهتمام شديد . وجلس أمام الاعمى جامدا صامتا يصغى الى كل مايقوله بنهم متزايد .

وراح العم مكسيم يسائل نفسه : هل كان يصح له أن يستمر فى الطريق الذى سار فيه ؟ ولكن لم تمر لحظة حتى كان قد استسلم على الرغم منه ، لتيار أفكاره الغريبة فبدأ يقول :

نعم ، نعم ، هذه هى المسألة ... كثيرا ما تطرأ على ذهنى أفكار غريبة . أحقا أن حمرة الدم أمر عرضى ؟ فلتعلم ...

انه اذا انبعثت فى رأسك فكرة ما ، أو اذا حلمت أحلاماجعلتك ترتعد وتبكى حين تستيقظ من النوم أو اذا اتقدت شهوة ما فى قلب انسان ، فمعنى ذلكأن الدم قد فاض من قلبه وانهمر كالطوفان على مخه ... ونحن دمنا أحمر اللون .

فقال الشاب وكأنه يحلم . أحمر ... وحار .

وعلق العم مكسيم قائلا بالضبط : أحمر وحار . فاللون الاحمر كالاصوات الحمراء ، يرتبط فى تصـــوراتنا بالضوء والنشاط المرح والعاطفة التى تسمى بالعاطفة « الملتهبـة أو الثائرة أو التى تغلى ... ومن الملاحظ أن الفنـانين يسمون الالوان الحمراء أو المائلة للحمرة « بالالوان الحارة » .

وأقبل العم مكسيم على غليونه يجذب دخانه بقوة حتى أحاطت به السحب الزرق من كل جانب ، ثم واصل كلامه : واذا حركت ذراعك فوق رأسك ، رسمت نصف دائرة . واذا فرضنا أن طول ذراعك يبلغ حـــد اللانهاية ، واستطعت أن تحرك هذه الذراع ، فانك ترسم نصف دائرة فى الفضـــاء اللانهائى ، وعلى مثل هذا البعد ترى نصف الدائرة السماوية التى يتميز باللانهائية والزرقة والصفاء . فاذا مارأيناها على هذا النحو امتلأت نفوسنا باحساس الصفاء والهدوء . ولكن اذا تلبدت السماء تعكر هذا الصفاء وشـــعر المرء بشىء من الانفعال الغامض . وأنت أيضا تحس اقتراب العاصفة ، أليس كذلك ؟ .

فأجاب الشاب : نعم ، وحينئذ أحس احساسا غريبا ، كما لو كان هناك شىء ما يقبض على قلبى .

ـ هذا حق . ونحن ننتظر بفروغ صبر ظهور الزرقة الداكنة من خلف السحب . وبمجرد انتهاء العاصفة تعـود السماء فورا الى ألوانها . نحن نعرف هذا جيدا . وذلك هو السبب فى أننا ننتظر نهاية العاصفة بكل ســـكون . فالســـماء

اذن زرقاء . والبحر أزرق اللون أيضـــا حين يكون هادئا . وعينا أمك زرقاوان . وكذلك عينا ايفلين ...

ـ فسأل الاعمى ، بحنان عذب ، وقد استيقظ من تأملاته فجأة . كالسماء ؟

ـ كالسماء بالضبط ، وزرقة العينين دليـل على صفاء النفس . والآن أتريد أن أقول لك بضـــع كلمات عن اللون الاخضر ؟ فالارض سوداء وجذوع الاشجار فى فصل الربيـع سوداء أو شهباء ، ولكن لاتكاد أشعة الشمس الحارة الزاهية تبعث حرارتها فى الاجسام المعتمة حتى ينبت العشب الاخضر والاوراق الخضر . فالخضرة فى حاجـة الى الضوء والحرارة ، ولكن بمقادير معتـــدلة . ولذلك كان منظـر الخضرة يبهج الابصار . فهى كالحرارة الممزوجة بشىء من البرودة الرطبة تثير صور البهجة الهادئة والصحة ، ولكنهـا لاتثـير صـور العواطف الملتهبة ـ ولا ما يسميـه الناس بالسعادة ، فهـل فهمت ؟ .

ـ كلا . فهذا الامر غير واضـح تماما . ولـكن لابأس ، استمر .

ـ نعم ، سأستمر . يبدو أنه اذا اشتدت حرارة الصيف ، انهارت الخضرة تحت وطأة القوى الحيوية الساحقة ، فترى الاوراق معلقة خائرة ، فالحرارة اذا لم تلطفها رطوبة المطر ، فربما أدت بالخضرة الى الذبول التام . وحينما يقبل الخريف نرى الثمار الكامنة فى الاوراق المكدودة تنضج وتصطبغ باللون القرمزى . وتحمر بالذات من الناحية التى تتعرض للضوء أكثر من غيرها حتى يخيل للمرء أن هـذا هو الوضـع الذى تتركز فيه قوة الحياة كلها وجميع الحرارة النباتية . فأنت ترى أن الحمرة هنا هى لون العاطفة المتأججة التى هى رمز لها .. وهى لون الثمل والخطيئة والجنون والغضب والانتقام .

ولذا يسعى الشعب فى ثوراته الى التعبير عن العاطفة الجماعية بالعلم الاحمر الذى يخفق فوق الرءوس كأنه شعلة من نار..
يبدو أنك لاتفهمنى أيضا ، أليس كذلك ؟

ـ لابأس استمر .

ـ ولكن هاهى ذى آخر أيام الخريف . وقد ثقلت الثمرة ، وأخذت تنفصل من غصنها وتسقط ناضجة فوق الارض . ثم تموت ، ولكن بذرة الحياة تظل حية فيها وهذه البذرة تحتوى بالقوة على النبات المستقبل بأسره ، بكل أوراقه الكثة وثمرته الجديدة . وتسقط البذرة على الارض. وترسل الشمس أشعتها المائلة الخالية من الحرارة الى الارض ، وتهب عليها ريح باردة ، وتتراكم السحب الباردة فى السماء الباردة . وتخمد العاطفة الحادة . بل الحياة نفسها بصورة بطيئة غير محسوسة . وتبدو الارض من تحت الخضرة سوداء حالكة ، وتظل الالوان الباردة هى المسيطرة فى السماء ، الى أن يأتى يوم نرى فيه هذه الارض المستسلمة الحزينة كالمرأة التى فقدت بعلها ، نراها وقد تغطت بملايين الكرات الثلجية ، وحينئذ تصير رتيبة باردة ... بيضاء . فالبياض من لون الثلج البارد ولون السحب المفرطة فى بعدها عن الارض ، والتى تسبح فى برودة السموات القصية التى لايصل اليها الادراك ـ لون القمم الجبلية القاحلة . وهو رمز البراءة والقداسة الباردة التى لامطمع فيها لكائن ، أنها بالاختصار رمز الحياة الغيبية . أما اللون الاسود ...

وهنا قاطعه الاعمى قائلا : أعرف ذلك جيدا . انه ... عدم الاصوات والحركة . انه الليل .

ـ نعم يابنى ، نعم ، انه رمز الحزن والموت .

ـ فارتعدت فرائس بطرس ، وقال بصوت أصم .

ـ أنت نفسك تقول : انه الموت . أما بالنسبة الى ، فكل شىء أسود ... أسود دائما وفى كل مكان .

فانتفض العم مكسيم وبدت عليه سيماء الغلظة وقال : هذا غير صحيح . فهناك أشياء كثيرة توجد وجودا حقيقيا بالنسبة لك : الاصوات والحرارة والحركة ... وأنت محوط بالحب من كل جانب . ولا شك أن كثيرين من الناس يتمنون ان يضحوا بنور أعينهم فى سبيل هذا الذى تحتقره أنت ، أيها المجنون . انك تعرض على الاشهاد شقوتك فى أنانية لاحد لها .

وصاح بطرس يقول بحماس شديد : نعم انى أعرض شقوتى على النحو الذى تصفه ، ولكن بالرغم منى . كيف أستطيع الفرار منها ، وهى ماثلة أمامى دائما ؟

ـ آه لو فهمت فقط أن الحياة تفص بالكوارث التى تفوق فى شناعتها كارثتك هذه مائة مرة ، بل ألف مرة ، وانك أمامها بمنأى عن الهموم والمشاغل وموضع للحنان العام ، لاعتبرت اذن نفسك سعيدا ...

فقاطعه الاعمى فى غضب ، وقد بدت فى صوته تلك الحدة المحمومة نفسها ، وقال : هذا غير صحيح ، هذا غير صحيح . أنا أريد أن أتبادل حالى وأتعس الشحاذين ، لانه أسعد منى بمراحل لاتعد ولا تحصى . هذا ومن جهة أخرى ، لايصح احاطة العميان بالعناية فهذا خطأ فادح . بل يكفى استدراجهم الى الطريق العام ثم تركهم هناك يطلبون الاحسان . ولو كنت مجرد شحاذ لكنت بلا أدنى شك ، أسعد حالا مما أنا فيه . فلن يكون أمامى فى الصباح غير هم التفكير فى الغذاء حيث أعمد الى كيس أعد ما فيه من ملاليم دون أن يعترينى أى خوف غير الخوف من ألا أجد فيه مايكفى . وحينئذ ألجأ الى الاستجداء لاحصل على عدد ما من الملاليم أجد فيه متعتى وابتهاجى . أما فى فترة العصر فأحصر همى فى استجداء ما أصلح به حالى طوال ليلتى المقبلة . سأعانى آلام الجوع والبرد ولن تكون أمامى دقيقة واحدة من الفراغ ... وستكون آلام الحرمان أخف وقعا على نفسى من آلامى الحالية .

فسأله العم مكسيم فى لهجة فاترة ، وهو يوجه نظره نحو ايفلين : أتظن ذلك ؟ وكانت نظرته الى الفتاة تنم عن عاطفة من الحنان والاشفاق . أما هى فكانت تبدو شاحبة مهمومة.

وأجاب بطرس فى قسوة وعناد : نعم ، أعتقد ذلك . وانا الآن أحسد بيجور وهو هنالك فى برج الناقوس . وكثيرا ماكنت أستيقظ فى الفجر ، ولا سيما فى الايام التى تنهمر فيها عواصف الثلج خارج المنازل ، فأتذكره ، وأراه يصعد فى برجه .

وتمتم العم مكسيم بقوله : نعم ، انه يتجمد من شدة البرد .

ـ نعم ... انه يتجمد ، ويكح . ويرسل اللعنات الى الاب بمفيل الذى لايريد أن يشترى له عباءة . ثم يقبض على الحبال بأصابع خدرتها البرودة ويدق الناقوس لصلاة الصباح فلعله فى هذه اللحظة ينسى أنه أعمى ، لان أى انسان فى مكانه يشعر بالبرد ، وليس الاعمى فقط . . . أما انا ، فلا أنسى أبدا و . . .

ـ وأنت لاتجد أمامك من تصب عليه لعناتك .

ـ نعم هذه هى الحقيقة . لست أجد أمامى من أصب عليه لعناتى ... فحياتى مفعمة بعمى عينى . ولا ذنب لاحد فى هذا العمى ، ولكنى أشقى من أى شحاذ على سطح الارض.

فقال العجوز بفتور شديد : أنا لا أريد أن أناقشك . فمن الممكن أن تكون على حق . وعلى أية حال ، قد تصير أحسن حالا مما أنت ، لو أصبحت حياتك أسوأ مما هى عليه الآن .

ثم ألقى على الفتاة نظرة أخرى مفعمة بالحنان ، وخرج من الغرفة تصحبه ضوضاء عكازتيه .

وبعد هذه الحادثة ساءت حالة بطرس اكثر مما كانت وتهافت على تحليل موقفه الاليم أكثر من ذى قبل .

وفى بعض الاحيان كان يصل الى مايصبو اليه ، فيجد فى بعض لحظاته تلك الاحاسيس التى كلمه عنها العم مكسيم . وكانت هذه الاحاسيس تنضم الى مالديه من أفكار عن الفضاء ، فيرى الارض حزينة معتمة تهيم فى مكان ما من الفضاء البعيد . وكان يود أن يقدر ابعادها ، ولكنه لايستطيع ، ويشعر بشىء آخر من فوقها ... الرعد الذى يصم الآذان يتدافع فى ذاكرته ويملؤه احساسا بالفضاء ، بأفاق السماء الشاسعة . ثم يصمت الرعد ، ولكن يبقى شىء آخر فى أبراج السماء العليا يبعث فى نفسه خواطر العظمة والصفاء . وكانت هذه الخواطر تتخذ لها فى بعض الاحيان كيانا محددا . اذ يختلط بها صوت أمه وصوت ايفلين « اللتين عيونهما كالسماء » . وحينئذ كان يرى الصورة النابتة من أعماق خياله والتى تكاد تبدو له محددة تحديدا كاملا تختفى لتنتقل الى ميادين أخرى .

كانت كل هذه التصورات الغامضة تضنيه ولا ترضيه ، لانها كانت تتطلب منه جهودا هائلة ، وبالاختصار كانت من الغموض بحيث تثير تذمره المتواصل وتبعث فيه ألما صامتا يصحب جهود نفسه المريضة التى تسعى عبثا لاستكمال أحاسيسها جميعا .

أقبل الربيع .

وكان هناك على بعد حوالى ستين فرسخا من القصر وفى الطريق المضاد لمزرعة آل ستاوروتشنكو قرية صغيرة بها

أيقونة كاثوليكية شهيرة . وكان الخبيرون بهذه المسائل يعرفون بالضبط مقدار مالهذه الايقونة المقدسة من خصائص الاعجاز . فكل من كان يأتى لرؤيتها راجلا فى يوم عيدها ينتفع « بأيام الغفران العشرين » ، أى لاتحسب عليه فى اليوم الاخر جميع الخطايا التى ارتكبها خلال هذه الفترة . ولذلك كان من المعتاد فى أوائل الربيع من كل عام وفى يوم معين يعرفه أهل الاقليم جميعا أن تصبح هذه المدينة الريفية الصغيرة مجالا لنشاط عظيم يكسوها مظهرا جديدا كل الجدة . فتزين الكنيسة الكاثوليكية العتيقة لمناسبة هذا العيد بزهور الربيع وباكورة الاغصان الخضر . ويمتلىء جو المدينة بدقات النواقيس البهيجة . وترى عربات الملاك تخترق الشوارع بضوضائها الصاخبة ، وجماهير الحجاج يجتمعون فى الميادين والشوارع ، بل فى الحقول التى تحيط بالمدينة . ولم يكن الكاثوليكيون وحدهم هم الذين يحجون الى هذا المكان ، اذ أن صيت الايقونة الذى طبق الاقليم كله كان يجذب اليها عددا كبيرا من الارثوذكس المرضى والمكروبين ، ومعظمهم من سكان المدن .

وفى يوم العيد كان الزائرون من جميع الالوان يقفون على جانبى الكنيسة فى صف لاينتهى . فكان يخيل لمن يتأمل هذا المنظر العجيب من فوق أحد التلال المحيطة بالمدينة أنه يرى ثعبانا ضخما ممددا على الطريق القريب من الكنيسة وانه ثابت فى مكانه لايتحرك وأنه كان يهز قشوره المختلفة مابين حين وآخر . ويقف على جانبى الطريق الذى يحتله الحجيج صفان من الشحاذين مادين أيديهم طلبا للاحسان .

وسار العم مكسيم ببطء على عكازتيه وبجانبيه بطرس ويوخيم متشابكى الاذرع ، وراحوا يقطعون الشارع الذى يخترق المدينة من أحد طرفيها الى الاخر . ثم يواصلون امتداده حتى الحقول . وكانوا قد تركوا خلفهم ضجيج

الجماهير وصياح التجار اليهود وقرقعة العربات ، وكان كل ذلك يكون عجيجا مختلطا متواصلا يمتد فى الفضاء كالموجة الضخمة . ولم تكن الجماهير فى هذا المكان بالكثرة التى كانوا عليها فى غيره . ولكن ذلك لم يمنع من سماع وقع أقدام المارة وصرير العجلات وضوضاء الاحاديث . ففى هذا الحين وصلت من الريف قافلة من العربات التى تحمـــل بعض الفلاحين ، وأخذت تدور فى تثاقل شديد لتدخل احدى الحارات محدثة قعقعة تصم الاذان .

راح بطرس يتبع العم مكسيم دون أن يعير الحركة التى تسيطر من حوله كبير اهتمام . وكان لا ينفك عن ضم حافتى معطفه ما بين لحظة وأخرى . لان الجو كان باردا ، كما لم يكف طوال الطريق عن بعث أفكاره السوداء فى رأسه .

وبينما هو غارق فى عزلته الانانية ، وصل الى أذنه صوت ما فصدمه صدمة جعلته يرتعد ويتـــوقف فى مكانه ، وكأنه تحجر فيه .

فى هذا المكان تنتهى اخر منازل المدينة . ويبدأ طريق عريض تحف به من الجانبين بعض الاسوار والارض الفضاء . وقد قام أحد الاتقياء ببناء عمود من الحجر على حافة الحقول وجعل عليه أيقونة وفانوسا ، وان كان الفانوس يقتصر على الصرير تحت مداعبة الرياح ولا يوقد مطلقا . وحول هـــذا العمود اجتمع عدد غير قليل من الشحاذين العميان الذين طفى عليهم منافسوهم من المبصرين وأجلوهم عن الامكنة الرائجة . فكانوا هناك جالسين وبيد كل منهم علبته الخشبية يمدها للقادمين والرائحين ، ومن حين لحين يسمع أحدهم وهو يتغنى بهذه الانشودة الشاكية الباكية .

احسان « ياموحسنين » للعميان المساكين ...

من أجل المسيح ...

وكان اليوم باردا ، والشحاذون يحتلون أماكنهم منـــذ

الصباح الباكر معرضين للريح العاتيـــة التى تهب عليهم من الحقول . ولم يكن فى استطاعتهم أن يسيروا بين الجماهير ويختلطوا بهم ليدفئوا أجسامهم بعض الشىء ، وكان على كل واحد منهم أن يترنم بدوره باحدى الانشيد الباكية الرتيبة ، فتنم أصواتهم عن آلامهم الجسمانية والنسيان التام الذى حكم عليهم به مجتمعهم . كانت المقاطع الاولى من الانشـودة تسمع بوضوح ، ولكنها لاتلبث أن تصبح نوعا من الحشرجـة الباكية التى تخرج تلقائيا من صدور قلصتها قسوة الجو ، ثم تتلاشى فى رعدة البرد فى أجسام المساكين . ومع ذلك فان آخر انغام الانشودة وأضعفها . تلك التى تكاد تتلاشى تمـاما بين ضجيج الشارع وعجيجه ، كانت اذا وصلت الى أذن بشرية صدمتها بشدة الالم المنبعث من طياتها .

توقف بطرس عن المسير وتقلصت عضلات وجهه فجأة ، كما لو كان قد اعترض طريقه شبح سمعى فى صورة هـذا الانين الملىء بقلق لا يمكن للكلمات أن تعبر عنه .

فسـأله العم مكسيم . ماذا يروعك ؟ أليس هؤلاء الا أولئك المحظوظين الذين كنت تغبطهم منذ زمن قصـير ، الا الشحاذين العميان الذين يطلبون الاحسان ؟ . نعم لاشك أنهم يشعرون بشىء من البرد .. ولكن ليس ذلك فى رأيك الا من النعم التى خصوا بها دون سواهم ..

وصاح بطرس وهو يمسك بيد الكهل . هيا بنا .

فانفجر العم مكسيم قائلا : آه هذه هى المسألة .. تريد أن تمر بهم مر الكرام هاأنت ذا لا تشـعر أمام آلام الاخرين الا بالرغبة فى الفرار من وجوههم . ولكن انتظر قليلا .. انتظر من فضلك .. فانى اريد أن أحدثك بلهجة الجد ، ويسعدنى أن أفعل ذلك هنا ، فى هذا المكان نفسـه . انك لا تكف عن الشكوى من ان الزمن قد تغير وأن الناس لم يعودوا يقتلون

العميان فى قتال ليلى كما حدث ليوركو لاعب البندورا . وتثور لانك لا تجد هدفا توجه اليه اتهامك وتصب عليه جام سخطك ، كما يفعل بيجور ضارب الناقوس ، وفى الوقت نفسه تلعن أقرباءك فى قرارة نفسك وتتهمهم بحرمانك من المزايا التى يتمتع بها هؤلاء العميان . وأنا شخصيا لا انكر أنك قد تكون على حق .. نعم ، وأقسم لك بشرفى ، شرف الجندى العجوز ، أن لكل شخص مطلق الحق فى ان يقرر المصير الذى يريده . أنت رشيد أليس كذلك ؟ .. أنصت اذن الى ماسأقوله لك .. اذا اردت أن تصلح أخطاءنا ، واذا أردت أن تقذف بكل المزايا التى حاطتك بها الحياة منذ طفولتك الاولى ، فقل لى ذلك بصراحة ، وحينئذ فانى ، أنا مكسيم باتسنكو ، أعدك باحترامى التام ومساعدتى وتعضيدى .. أتصغى الى جيدا يابطرس ؟ لقد كنت أسن منك بقليل حين ألقيت بنفسى فى جحيم المعمعة .. وقد بكت أمى بدموع حارة حين تركتها ، كما ستفعل أمك الان . ولكن ماذا ، لقد كنت أعتقد فى ذلك الحين ، أنى لا أفعل غير ما يخوله لى حقى بالضبط كما تفعل أنت الان . والحقيقة أن القدر يقترب من كل انسان مرة واحدة فى حياته ، ويقول له . اختر لنفسك ما يحلو .. فما عليك الان الا ان تلفظ بكلمة واحدة .

قال العم مكسيم ذلك ثم التفت فى اتجاه العميان وصاح قائلا :

ـ أنت هنا يافيدور كندابا ؟

فانبرى صوت من بين جماعة الترنيم ، وقال :

ـ نعم أنا هنا .. هل هو أنت الذى تنادينى يا مكسيم ميخايلوفتش .؟

ـ نعم ، أنا .. أتسمح أن تأتى الى فى المكان الذى حددته لك ، بعد ثمانية أيام ؟

ـ سآتى ياسيدى ... سآتى دون أى تأخير .

وبعد ذلك استأنف الاعمى الترنيم الجماعى مع زملائه .

وقال العم مكسيم ، وعيناه تشعـان ببريق عجيب .. حسن جدا .. سترى رجلا له كل الحق فى أن يشكو من المقادير ومن الناس على السواء . فتعلم منه كيف يجب على الانسان أن يتحمل مصيره ..

أما أنت ...

وألقى يوخيم نظرة سخط على المشوه العجوز ، ثم قال : هيا ياسيدى الشاب ..

فصاح العم مكسيم صيحة كلها غضب ، وأجاب قائلا : قف مكانك .. لا يجوز لكائن من كان أن يمر أمام العميان دون أن يقدم لهم بعض الاحسان . أفى وسعك أن تفر من هنا دون أن تقوم بهذه الاشارة التافهة ؟ لو فعلت ذلك لكفرت ، أنت أيها الرجل المتخم الذى يحسد الجياع .

فرفع بطرس رأسه ، كما لو كان قد تلقى ضربة من سوط ، وأخرج كيسه من جيبه ، واتجه نحو العميان . وأخذ يتحسس بعصاه أول عاجز قابله ، ثم بحث عن الصندوق الخشبى بيده ، وكان يحتوى على بضع قطع برنزية ، فأفرغ فيه نقوده بكل عناية . ورآه بعض المارة فتوقفوا وراحوا ينظرون مشدوهين الى هذا الشاب النبيل الجميل ذى الثياب الفاخرة الذى يقدم الاحسان لاحد العميان عن طريق التحسس ، ويقبله منه هذا الاخير عن طريق التحسس أيضا .

وفى هذه الاثناء أدار العم مكسيم ظهره فجأة ، ثم انطلق يمشى فى الشارع وهو يتحامل على نفسه . وكان وجهه ملتهبا كالنار ، واللهب يشع من عينيه .. ومن الواضح أنه كان يعانى نوبة غضب من تلك النوبات التى يعرفها كل من رآه فى شبابه . وفى هذه اللحظة لم يكن ذلك المربى الذى يزن كل كلمة من كلماته

بل كان رجلا ثائرا يرخى لغضبه العنان . ولكنه هدأ بعض الشيء بعد أن ألقى نظرة خفيـــة على بطرس . وكان بطرس شاحب اللون كالثلج ، مقبوض الحاجبين ينم وجهه المضطرب عن انفعال عميق .

وهبت ريح باردة أثارت الغبار فى كل مكان . وارتفع من خلف القافلين ضجيج وصياح شنيع بين العميـــان بسبب اختلافهم على النقود التى قدمها بطرس ..

لم يصبح صباح الغد حتى كان بطرس طريح الفراش تتكفكفه حمى عصبية حادة ، ولا ندرى : هل كان بســـبب تعرضه للبرودة أو نتيجة لأزمة نفسية ، أو لكلا الامرين معا ؟ كان متشنج الوجه يضطرب فى فراشه ، ويرهف أذنه من حين لحين ، ويبدو كما لو كان يريد الفرار الى مكان ما . وبعـــد قليل أقبل طبيب البلدة العجوز لعيادته ، فجس نبضه ثم راح يتكلم عن ريح الخريف الباردة .. أما العم مكسيم فكان مقطب الحاجبين دائما ، ويحاول جهده ألا ينظر فى وجه أخته .

أقبل المرض بشدة معدومة النظير . فلم يكد يداهم المريض حتى فقد هذا الاخير كل حركة وظل على هذا النحو بضعة أيام بأسرها .. وفى النهاية انتصر الجسم الشاب على المرض .

وفى ضحى يوم من أيام الخريف اخترق نافذة الحجرة شـــعاع متوهج وسقط بجانب بطرس ، وما ان لمحته أنا ميخايلوفنا حتى قالت لايفلين :

ـ ارخى الستارة فانى أخشى هذا الضوء أكثر مما اخشى أى شيء آخر . فنهضت الفتاة لكى تنفذ هذا الامر ، ولكنها

توقفت عن المسير حيثما سمعت صوت المريض يرتفع لاول مرة منذ انتابه المرض يقول لها :

ـ كلا ، كلا ، هذا حسن ... أرجوك ... دعيه كما هو ....

وانحنت المرأتان فوق فراشه ، ووجهاهما يطفحان بالبشر ثم قالت الام :

ـ أتسمعنى ؟ اننى هنا بجانبك !

فأجابها بطرس : « نعم .. ثم سكت كما لو كان يحاول أن يتذكر شيئا ما .

وبعد فترة وجيزة بدا يقول ببطء شديد : « آه .. نعم ، ثم اضاف وهو يحاول النهوض من مرقده .. أخبرينى . هذا الرجل فيدور .. ألم يجىء حتى الان ؟ »

فتبادلت المرأتان النظرات فيما بينهما ، وغطت الام بيدها وجه ابنها ، وهى تقول : « هس .. هس .. لا تتكلم فى هذا الموضوع ، فانه يؤذيك .. »

وضغط بطرس يد أمه فوق شفتيه وانهال عليها تقبيلا . ثم انهمرت الدموع من عينيه واستمر يبكى وقتا طويلا . وبعد ذلك عاد اليه شىء من الاطمئنان .

وظل عدة أيام فى حالة تامل وهدوء ، ولكنه كان كلما رأى العم مكسيم يمر أمام غرفته بدت عليه سيماء القلق . ولما لاحظت المرأتان ذلك رجتا العجوز الاعرج أن يبتعد مؤقتا عن هذا المكان . ولكن بطرس نفسه طلب ذات يوم أن يدعى اليه العم مكسيم ، وأن يتركا بعد ذلك وحدهما .

فدخل العم مكسيم الغرفة وتناول يد المريض وأخذ يمسح عليها بحنان شديد . ثم قال : يبدو لى يابنى المسكين أن هذه هى المرة الاولى التى يجب على فيها أن أطلب منك الغفران .

فقال الفتى بصوت خفيض ، وهو يشعر بحلاوة ضغط

يد العجوز على يده : لقد فهمت أنك أعطيتنى درسا . ولن أنسى لك هذا الجميل .

وصاح العم مكسيم ، وقد فرغ صبره « درس » أى درس ؟ ان انسانا يظل يشغل وظيفة المربى وقتا طويلا ، لابد ان يصبح معتوها من الدرجة الاولى . كلا ، لم يخطر ببالى أى درس فى هذه المرة ، ولكنى كنت ، بكل بســـاطة ، ساخطا عليك وعلى نفسى .

وقال بطرس فى شىء من الاستسلام :

ــ اذن فقد كنت تريد منى ، بكل جد ، أن . . .

ــ كنت أريد . كنت أريد . من هــذا الذى يستطيع ان يعرف مايريده الرجل وهو فى ثورة غضبه . لقـــد أردت أن تحس بآلام الآخرين ، وأن تكف عن الطنطنة بآلامك فى كل مكان . . . هذا كل ما فى الامر .

ثم سكت الاثنان .

وبعد فترة قصيرة استأنف بطرس الكلام ، فقال : هــه الاغنية كنت أتذكرها ، حتى فى أشد حالات الهذيان . ولــكن قل لى : من فيدور هذا الذى دعوته الى المجىء هنا فى بيتنا ؟

ــ فيدور كنديبا أحد معارفى القدماء

ــ هل هو أيضا ولد أعمى ؟

ــ أسوأ من ذلك . . . فقد احترقت عيناه أثناء الحرب .

ــ وهو يتجول بين الناس ، ويغنى هذه الاغنية ؟

ــ نعم . ويعول مجموعة بأسرها من أولاد اخوته اليتامى . ثم هو مع ذلك لاينسى أن يجد لكل منهم كلمة تضحكه وتدخل على نفسه السرور .

فقال بطرس ، وقد بدا عليه الاستغراق فى التفكير : أصحيح هذا ؟ قل ماتريد ، ولكن لابد اننا أمام سر من أسرار الطبيعة . وأنا أيضا أريد . . .

ـ ماذا تريد يابنى ؟

وبعـــد ربع ساعة سمع وقع أقدام مقبلة ، ثم لم تلبث اناميخايلو فنا أن دخلت الغرفة . وشرعت تحملق ، بقلق شديد ، فى وجه الرجلين اللذين بدا عليهما الانفعـــال من جراء المحادثة التى قطعاها فجأة بمجرد وصولها .

ولم يكد الجسم الشاب يتغلب على علته حتى تخلص دفعة واحدة من كل ماتبقى منها . وبعد ذلك بخمسة عشر يوما كان الشاب قد غادر الفراش .

لقد تغير بطرس كثيرا . حتى ملامحه نفسها تغيرت . فلم تعد تلك النوبات القاسية من الالم تظهر مرتسمة على وجهه . ولكنه بعد هذه الهزة النفسية العنيفة أخلد الى نوع من التأمل الهادىء الحالم والحزن الذى لاسخط فيه .

وكان العم مكسيم يخشى أن يكون هـــذا التغير مؤقتا ، وان يكون مجرد نتيجة لضعف التوتر العصبى الذى جره عليه المرض . وذات يوم قام بطرس فى وقت الغســق وذهب الى البيانو للمرة الاولى منذ مرضه ثم جلس أمامه يرتجل الالحـــان كعادته . وكانت ألحانه هادئة حزينة كمزاجه . وبينمـــا هو غارق فى خضم الاصوات المشربة بشىء من السوداوية الخفيفة . اذا بالنغمات الاولى لانشودة العميان تنفجر فجأة من بين أوتار البيانو ومطارقه . ثم توقف اللحن دفعة واحـــدة . ونهض بطرس فجأة من أمام البيانو وعيناه مفعمتان بالدموع . وكان وجهه مضطربا . وقد بدا من الواضح أنه لم يستطع التخلص من الاثر القوى الذى أحدثه فى نفســه جور الحياة ، ذلك الجور الذى تجلى له فى صورة تلك الشكوى الرتيبة المؤسية .

وفى المساء نفسه انفرد العم مكسيم وبطرس من جـــديد وقضيا معا وقتا طويلا . ومرت عدة أسابيع وظلت حال الاعمى المعنوية على ماهى عليه .. فيبدو ان شعور الكفيف بتعاسته

الفردية ، ذلك الشعور المفرط الانانى الذى وسمه بالسلبية وكبل نشاطه الفطرى ، قد أخذ الآن ينقشع ويحل محله شىء آخر . فبدأ الشاب يضع خططه من جديد ويحدد لنفسه بعض الاهداف . وأخذت الحياة تدب فيه مرة أخرى ، كما أخذت نفسه شبه المحطمة تتجه نحو الشتاء رويدا رويدا ، كالشجرة العجفاء حين تهب عليها ريح الربيع المنعشة فتبعث فيها الحياة .

وكان من بين المشروعات التى وافقت عليها الاسرة أن يذهب بطرس الى كييف فى الصيف القادم حتى اذا ظهرت بشائر الخريف بدأ دراساته الموسيقية على يد أستاذ من أشهر أساتذة البيانو فى هذه المدينة ، وقد اتفق هو والعم مكسيم أن يذهبا وحدهما .

فى مساء يوم من أيام شهر يوليه الدافئة أقبلت عربة يجرها حصانان وتوقفت بين الحقول على حافة احدى الغابات لكى تقضى ليلتها . وفى فجر اليوم التالى كان هناك شخصان كفيفان يسيران فى الطريق العام القريب من هذا المكان . وكان أحدهما يدير آلة موسيقية بدائية تتكون من اسطوانة خشبية تدور فى فتحة صندوق فارغ ، فتحتك ببعض الاوتار المشدودة شدا محكما وتحدث نوعا من الطنين الرتيب الحزين . ويصحب هذا الطنين رجل عجوز ينشد احدى صلوات الصباح بصوت مكتوم ولكنه رضى .

وكان البائعون المتجولون يمرون بهذا الطريق فوق عرباتهم المحملة بالاسماك الجافة ، فرأوا سيدين يضطجعان فوق بساط مفروش فى قلب الحقل ، ولمحوهما يدعوان اليهما الاعميين . ولما توقف أصحاب العربات ، بعد فترة ما ، بالقرب من أحد الآبار لكى يسقوا دوابهم ، رأوا العميان يمرون امامهم من جديد ولكنهم **أصبحوا ثلاثة بدلا من اثنين** . وسار على رأسهم يضرب

الارض بعصاه رجل كهل ذو شعر خفيف أشيب وشارب طويل متدل ، وجبهته مغطاة بندوب يبدو أنها ترجع الى حروق قديمة ، وفى موضع عينيه حفرتان عميقتان . ويحمل على كتفه سيرا من الجلد معلقا بحزام الاعمى الاخر الذى يسير خلفه . وكان الثانى عملاقا متين البنيان يبدو الشر على وجهه الذى أكله الجدرى . وكان الاثنان يسيران بخطوة واحدة منتظمة ووجهاهما الى السماء كأنما يبحثان فيها عن طريقهما . أما الثالث فكان شابا صغيرا يلبس ثياب فلاح جديدة . وكان شاحب الوجه يبدو عليه شيء من الذعر . ولم يكن ثابت الخطا ولذا كان يتوقف من حين لحين وينصت الى شيء ما من خلفه ويعوق صاحبيه عن المسير .

لم تحن الساعة العاشرة من الصباح حتى كان العميان الثلاثة قد ابتعدوا عن المكان وصارت الغابة وكأنها شريط ازرق غير محدد المعالم . وكانت مراعى الاستبس تحيط بهم من كل جانب ، والهواء من حولهم ملىء بذبذبة الاسلاك التلفرافية الساخنة من وهج الشمس والتى تمتد على طول الطريق الملىء بالغبار . ولم يكد العميان الثلاثة يغادرون هذا الطريق ليتجهوا فى الطريق الاخر المرصوف الذى عن يمينهم حتى سمعوا ذبذبة خيول وقرقعة عجلات جافة ترتطم بالحصى من حين لاخر فاصطفوا بجانب الطريق ، وبدأت الاسطوانة الخشبية طنينها كما أخذ صوت العميان الرتيب يغنى .

شيئا من الاحسان للعميان المساكين ...

وفى هذه المرة اختلط طنين الاسطوانة الخشبية بتفريد الاوتار العذب تحت أصابع الشاب الصغير . ورنت قطعة نقود بين قدمى كنديبا العجوز ، ومن قبل ذلك كانت عجلات العربة قد توقفت عن المسير ، وبطبيعة الحال كان قصد العابرين من ذلك التيقن من عثور العميان على قطعة النقود ، التى لم يجد

كنديبا أى عسر فى التقاطها ، مما جعل وجهـه يكاد يضىء من فرط السرور .

وقال موجها كلامه فى اتجاه العربة التى كان يجلس فيهـا سيد أشيب الرأس وبجانبه عكازتان طويلتان : بارك الله فيك .

وأخذ السيد العجوز ينظر بامعان الى الشاب الاعمى الذى ظل شاحب الوجه وان بدا عليـــه الهدوء . وما كادت تنطلق النغمات الاولى من الاغنية حتى بدأت أصابعه تجرى على الاوتار بصورة عصبية كما لو كان يحاول جهده أن يلطف من صـوت الاعمى الذى يميل نحو الاندفاع . أما العربة فقـد واصلت سيرها ، ولكن الرجل العجوز ظل وقتا طويلا ينظر خلفه .

وبعد قليل تلاشى صوت العجلات فى الآفاق البعيدة . وعاد العميان الى اصطفافهم الاول ، ثم واصلوا سيرهم .

وقال كنديبا : أتعرف ، يابورى ، أن يدك موفقة كل التوفيق وانك تجيد العزف ؟ وبعد ذلك بدقائق سأل الاعمى الذى يسير فى الوسط قائلا :

أنذرت أن تذهب الى بتشاييف ؟ . . . أهذا نذر لله ؟

وأجاب المراهق بكل هدوء : نعم .

فسأله الاخر من جديد ، وعلى شفتيه ابتسامـــة مرة : أتأمل أن يرد اليك بصرك ؟ وأجابه العجوز بصورة تدل على أنه يريد وضع حد للتمادى فى النقاش ، فقال : هذا أمر ممكن الحدوث .

فرد الاعمى الحزين قائلا : هأنذا أجوب الاقليم منـــذ زمن طويل ، ولم أقابل حالة واحدةمن هذا القبيل . ثم واصلوا سيرهم فى صمت . وكانت الشمس تواصل ارتفاعها فى كبـد السماء ، فلم يعد أحد يرى سوى خط الطريق الابيض الذى يسير مستقيما كالسهم ، وظلال العميان الداكنة والعربة التى مرت منذ قليل كالنعامة السوداء فى الفضاء . ثم انشعب الطريق

الى شعبتين ، فأخذت العربة اتجاه كييف على حين انعطف العميان فى الطريق المؤدى الى يتشايف .

وبعد فترة قصيرة وصل خطاب من كييف الى القصر يخبر سكانه أن كل شيء على مايرام . وكتب فيه العم مكسيم أن المغتربين كليهما فى صحة جيدة وان الامور تجرى على خير حال .

وفى هذه الاثناء كان العميان يطوفون فى أماكن بعيدة . والآن أصبح ثلاثتهم يسيرون بخطوة واحدة منتظمة . وظل الاعمى كما كان من قبل يقرع الارض بعصاه ويسير على ارض المجموعة الصغيرة . وكان يعرف الطرق صغيرها وكبيرها . تمام المعرفة . ولا يخطىء فى الوصول الى المدن الكبيرة أيام الاعياد والموالد . وكانت الفرقة الموسيقية الصغيرة تجتذب اليها الجماهير . ولا تكف الملاليم عن التساقط فى قلنسوة كنديبا .

وقد اختفى الرعب والاضطراب من وجه الشاب منذ زمن طويل ، وحل محلهما تعبير آخر مختلف كل الاختلاف . ففى كل خطوة يخطوها كانت الاصوات الجديدة المنبعثة من عالم شاسع مجهول تحل محل الهمس الرقيق الحنون الذى كان يسمعه فى القصر الوديع . وأخذت عيناه تتسعان ، وصدره يتنفس بانطلاق وسمعه يزداد ارهافا . وأصبح يستطيع التعرف بين الجماهير على صاحبيه . كنديبا الدائم المرح والمزاح وكوزما المليء بالمرارة والسخط ، وكان يسير خلف عربات الملح التى لاينقطع صريرها وتبيت فى صحارى الاستبس الشاسعة بالقرب من النار التى يشعلها لكى يصطلى بدفئها ، ويصغى الى ضوضاء الاسواق التى تقام فى القرى ، ويتعلم كيف يفهم آلام المبصرين والعميان على السواء ، تلك الآلام التى كثيرا ما انفطر قلبه أمامها . ومن الغريب أنه اليوم أصبح يجد فى نفسه مكانا كافيا لكل هذه الاحاسيس . فحفظ أغنية العميان عن ظهر

قلب ، وصار طموحه الفردى نحو المستحيل ينحسر شيئا فشيئا أمام عجيج هذا البحر المتلاطم من الآلام البشرية وكانت ذاكرته الجبارة تعى كل لحن أو أغنية جديدة . حتى اذا ما انخرط فى الطريق مع زميليه وبدأت أنامله الرقيقة تداعب أوتار آلته الموسيقية انفرجت جميع الاسارير ، حتى أسارير كوزما التى أصبحت تنم عن الطمأنينة والحنان . وكانت هذه الجماعة الصغيرة من العميان تزداد عددا كلما اقتربت من يتشاربيف .

وفى يوم من أيام الخريف الاخيرة ، وقد ازدحم الطريق ببواكير الثلوج ، نظر الناس فيماحولهم ولشد ماكانت دهشتهم حين رأوا بطرس يعود الى القصر فى ملابس شحاذ حقيقى ومعه زميلان من العميان . فزعم بعضهم أنه كان قد ذهب الى يتشاييف من أجل غرض واحد فقط ، وهو استرداد بصره عن طريق الصلاة والدعاء .

ومع ذلك فقد ظلت عيناه ، كما كانتا من قبل ، صافيتين كفيفتين . ولكن الذى لاشك فيه أن نفسه قد شفيت من علتها تماما . وكأنما كان القصر واقعا تحت سطوة كابوس مروع ، ثم غادره هذا الكابوس الى الابد . أما العم مكسيم الذى استمر يبعث بخطاباته من كييف ، فقد رجع هو الاخر الى القصر فى نهاية الامر ، وما لحته أناميخايلوفنا ، حتى سارعت الى لقائه وبادرته بهذه الجملة .

لن أغفر لك هذه الفعلة ماحييت .

ولكن تعبير عينيها كان تكذيبا صارخا لهذه الكلمات .

وبقى بطرس ليالى بأسرها يقص على من حوله أخبار اغترابه ، وكان اذا أقبل الفسق قام الى البيانو فأسمع الحاضرين ألحانا جديدة لم يسمعوها منه من قبل .

وأجلت رحلة كييف الى السنة المقبلة ، وأصبح كل من فى القصر لايعيشون الا على آمال بطرس ومشروعاته .

## الفصل السابع

وفى هذا الخريف نفسه أخبرت ايفلين أبويها بعزمها الراسخ على الزواج من « أعمى القصر » .

فانفجرت الام بالبكاء . أما الشيخ يسكولسكى فقد قام من فوره يؤدى بعض الحلوات أمام صور العذراء ، ثم أعلن أنه يرى أن تلك ارادة الله .

ولم يلبث القصر أن احتفل بالزواج . وبدأت امام بطرس مرحلة من السعادة الناشئة الوادعة ، ولكنها كانت ممزوجة بنوع من القلق الذى يهز كيانه هزا . فكان فى أصفى لحظاته يبتسم ابتسامات تنم عن الشك القاتل ، كما لو كان هو نفسه يعتقد أن تلك السعادة غير شرعية وغير ثابتة . ولما أخبر أنه ربما أصبح أبا ، تلقى هذا النبأ بشىء من الرعب .

غير أن الحياة اليومية التى كانت تفرض عليه مجهودات ومشاغل هامة بالنسبة لزوجته وطفله المستقبل لم تعد تسمح له بالانطواء على تحليلاته العقيمة . ومن حين لحين كانت تسيطر على نفسه ، وهو فى وسط هذه المشاغل ، ذكرى أنين العميان المؤسى . وحينئذ كان يذهب الى القرية التى يقوم فى أحد أطرافها كوخ فيدور كنديبا الجديد ، فيجلسان معا فترة طويلة يتبادلان فيها مختلف الاحاديث ، ولا يفترقان حتى تكون أفكار بطرس قد هدأت وخططه قد اتضحت وتحددت معالمها .

أصبح بطرس الآن أقل حساسية من ذى قبل بالنسبة لتأثير الضوء ، وهدأت ثورته القديمة الى حد كبير . فقد استكنت قوى طبيعته الصاخبة ، وصار يتجنب ايقاظها ،

ويحاول الا يوجه ارادته الى جمع أحاسيسه المختلفة فى كل واحد . وحلت فى نفسه الذكريات الحية والآمال الواقعيةمحل المحاولات العقيمة . ولكن من يدرى : هل كان هذا الهدوء الظاهرى لايساعد على تقوية العمل العضوى الباطنى ؟ وهل كانت هذه الحال لاتيسر الطريق لتلك الاحاسيس الغامضة المتناثرة لكى تلتقى بعضها وبعض عن غير شعور ؟ فعلى هذا النحو نرى مخنا يرخى لنفسه العنان فى حالة الاحلام لخلق أفكار وصور لم يسبق له أن مهد لها بمجهود ارادى قط .

خيم على الغرفة نفسها التى ولد فيها بطرس سكون تام لم يكن يقطعه الا صراخ طفل حديث الميلاد . وقد مر على ولادته بضعة أيام ، وأخذت ايفلين تسترد قواها بسرعة فائقة . وعلى العكس من ذلك بطرس ، فانه كان يبدو طوال هذه الايام محطما مكدودا كمت يتوقع حلول كارثة .

وصل الطبيب وأخذ الطفل بين ذراعيه ووضعه بالقرب من النافذة . وجذب الستارة بسرعة البرق فدخل الحجرة شعاع شمس وضاء . ثم انحنى على المولود وفى يده احدى الآلاتالبصرية ، على حين جلس بطرس فى الغرفة نفسهاخافض الرأس مهموما شارد الفكر . وكان يبدو عليه أنه لايعير فحص الطبيب أى اهتمام ، كما لو كان يعرف نتيجته مقدما .

وكان لايفتأ يردد قوله « أغلب الظن انه أعمى ، كان الاولى به ألا يولد » ولم يجبه الطبيب الشاب بشىء ، واستمر فى اجراء ملاحظاته .

وأخيرا وضع الطبيب آلته البصرية جانبا ، ثم دوى فى أرجاء الغرفة صوته الهادىء الواثق قائلا :

أن الحدقة تتسع . فليس هناك أى مجال للشك . الطفل يبصر جيدا .

انتفض بطرس وسارع بالنهوض . وكان من شأن هذه الحركة أن تدل على أنه سمع كلمات الطبيب جيدا ، ولكن تعبير وجهه كان أقرب الى الدلالة على أنه لم يدرك معناها . فقد ظل واقفا فى مكانه متكئا على قاعدة النافذة بيده التى لاتفارقها الرعدة ، وملامح وجهه جامدة كالحجر .

لقد عانى حتى هذه اللحظة اضطرابا غير معهود . كان يبدو له أنه لايشعر بوجوده مجرد شعور ، ومع ذلك فقد كانت أعصابه كلها تهتز وترتعد من فرط القلق .

كان يشعر شعورا قويا بالظلام المحيط به ، ويعرفه جيد المعرفة ، ويحسه خارج نفسه بكل امتداده الشاسع الواسع . وكان هذا الظلام يقترب منه حتى يكاد يطبق عليه . وكان هو الاخر يحيط به بخياله ، كما لو كان يريد قياس نفسه عليه ، وينهض لملاقاته ، كما لو كان يريد حماية وليده ضد هذا المحيط من الظلمات الكثيفة .

لقد وجد نفسه فى هذه الحالة طوال الوقت الذى قضاه الطبيب فى اعداد فحصه . وكان قد أصبح فريسة للقلق منذ زمن طويل ، بل قبل ميلاد الطفل بفترة ما ، ولكن بعض الامل كان لايزال عالقا بنفسه . أما اليوم فقد وصل هذا القلق المخيف المضنى الى أقصى درجاته واستولى على أعصابه المتوترة تمام الاستيلاء ، على حين مات الامل الذى كان يتخبط فى أعماق نفسه ... وهاهو ذا قول الطبيب « الطفل يبصر جيدا » وقد قلب كيانه النفسى رأسا على عقب . فاختفى الخوف وأصبح الامل يقينا سما بحالة الاعمى النفسية . انه انقلاب ، بل شعاع

انبجس انبجاس البرق فى ظلمات نفسه فخيل اليه أن كلمات الطبيب قد تركت فى مخه أثرا من نار . وانفجرت فى مكان ما من كيانه شرارة أضاءت الاعماق الخفية من مجموعه العضوى ... واهتز كل مافيه ، بل صار هو نفسه يهتز كالخيط المشدود .

وبعد هذا البرق الخاطف اشتعلت أشباح غريبة أمام عينيه اللتين انطفأ نورهما حتى قبل ميلاده . ولم يستطع أن يعرف هل كانت أشعة أو أصواتا ؟ ولكنها كانت اصواتا تدب فيها الحياة وتتخذأشكال الاشعة وتتحرك حركتهاوكانت تلمع كقبة السماء ، وتدور كالشمس الساطعة فى قبو الاثير ، ويسمع لها همس وحفيف كالذى ينبعث من مراعى الاستبس الخضر ، وتتراقص كأوراق أشجار الزان .

كان ذلك فى اللحظة الاولى فقط ، ولم يثبت فى ذاكرته الا الخواطر المختلطة لهذه اللحظة وحدها . أما ماعداها فقدنسيه تباعا . ولكنه ظل يؤكد أنه استطاع ان يبصر فى هذه اللحظة .

أما مارأى وكيف رآه هل رآه حقا ، فقد ظل كل ذلك أمرامجهولا . وأكد له البعض ان ماذهب اليهمستحيل الوقوع ، ولكنه كان يؤكد ويصر على القول بأنه رأى السماء غامض خلقه خلقا آخر فى طرفة عين .

بقى بضع ثوان لايتحرك ، ورأسه مرفوع ووجهه مشرق وضاح . وبدا غريب المظهر الى حد جعل الجميع يلتفتون اليه ولا يتكلمون . وخيل الى من فى القاعة أن الشخص الذى يقف بينهم ليس هو الشخص الذى عرفوه منذ سنين طويلة ، بل هو شخص مجهول . لقد اختفى بطرس القديم وأحاط به سر والارض ، ورأى أمه وزوجته والعم مكسيم .

ولم يكن معه طوال هذه اللحظات القصيرة غير ذلك السر الغامض . وبعد أن فارقه لم يبق له منه الا الاحساس بالرضا

واليقين الغريب بأنه استطاع الابصار فى هذه اللحظة .

فهل هذا ممكن حقا ؟

هل من الممكن أن تكون أحاسيس الضوء الغامضة غير المحددة التى كانت تتخذ طريقها الى مخ الاعمى وهو يختلج أمام ضوء الشمس ، نقول هل من الممكن أن تكون هذه الاحاسيس غير المحددة التى كانت تتخذ طريقها الى مخ الاعمى وهو يختلج أمام ضوء الشمس نقول هل من الممكن أن تكون هذه الإحاسيس قد انبعثت فى مخه فى لحظة الذهول المفاجىء كالصورة السالبة التى تمّ اخراجها بطريقة مختلطة ؟

لقد رأى بعينيه الكفيفتين السماء الزرقاء والشمس الوهاجة والنهر الشفاف والتل الصغير حيث ذاق الكثير من الاحاسيس الشهية وحيث بكى كثيرا فى طفولته ... ثم الطاحون والليالى ذات النجوم والسماء الصافية التى كثيرا ماجرت عليه الآلام ... والقمر الصامت الحزين . والطريق العريض المترب ، وقوافل العربات ذات العجلات المحوطة بأطواق الحديد ، وذلك الجمهور المختلف الالوان والاشكال الذى كان يترنم فى وسطه بأغنية العميان ...

وثارت فى مخه جحافل من الصور الغريبة العجيبة . الجبال والوديان غير المعروفة والاشجار الخفية التى تتمايل فوق الانهار المجهولة ، والشمس التى تغمر بضوئها الوضاء كل هذه اللوحة ، تلك الشمس التى أعجب بها عدد لايحصى من الاجيال الخيالية .

لعل كل ذلك كان يموج ويضطرب فى صورة أحاسيس عديمة الشكل بين أعماق نفسه حيث يرى العم مكسيم أن كلا الالوان والاصوات تتحول فيها الى مرح أو انقباض الى بهجة أو قلق .

وبعد فترة من الزمن لم يعد يتذكر غير هذا اللحن المؤتلف الذى تجاوبت أصداؤه لحظة ما فى أرجاء نفسه ، نعم لم يعد

يتذكر غير ذلك اللحن الذى اجتمعت فيه كل خواطر حيـاته وأحاسيسه عن الطبيعة والحب الحى .

ومن يدرى ؟

انه لم يعد يذكر الا شيئا واحدا ، الا هذه اللحظة وكيف مسه فيها ذلك السر الخفى وكيف تركه . ففى هذه اللحظة تعانقت الصور والاصوات وذابت بعضها فى بعض وهى ترن وتتردد وتضطرب وتنطفىء ، كما يتردد الوتر ثم ينطفىء .

ليل دامس وسكون شامل .. وأشباح غامضة لا تزال تحاول الظهور فى قاع هذه الظلمات ولكنها أصبحت عديمة الشكل واللون والقوام . غير أن نبرات سلم موسيقى ترن هناك ، بعيدا بعيدا فى مكان ما فتشق الظلام الكثيف بضيائها ورنينها ثم تنحدر بدورها فى هاوية العدم . .

وحينئذ قرعت الضوضاء الخارجية مسامعه فى صورتها المعتادة . وكان يبدو عليه سيماء من يستيقظ من نوم عميق ، ولكنه ظل واقفا على قدميه ، مشرقا سعيدا ثم صافح أمه ، والعم مكسيم .

ـ وسألته أنا ميخايلوفنا بصوت ينم عن القلق الشديد . ماذا بك يابنى ؟

ـ لا شىء .. ولكن يبدو لى أنى .. أنى رأيتكم جميعا .. لا أظن أنى نائم ، أليس كذلك ؟

ـ وأعادت الام سؤاله بصوت يكاد الانفعال يحتبسه .. والآن ؟ أتتذكر ذلك الآن ؟ أتستطيع أن تتذكر ذلك ؟

فتنهد الاعمى من أعماق صـــدره ، وقال بعد مجهود عنيف :

ـ كلا .. ولـكن لا بأس ، لانى قد وهبت ذلك لك .. وللطفل ولكم جميعا .. ثم ترنح وسقط مغشـــيا عليه .. وأصبح وجهه شاحبـا ، ولكنه يظل يعكس الشعور بالرضـا والبهجة ..

وكان بعض آخر يؤكد أنه هجر أسرته بمحض ارادته
وانضم الى جماعة من الشحاذين

# خاتمـــــة

مرت ثلاثة أعوام ...

ورأى الناس الجماهير الهائلة ذهبت الى كييف من أجل « العقود » تتقاطر لحضور حفلة موسيقية يقيمها موسيقى فى غاية الغرابة والاصالة ..

كان أعمى .. ولكن الناس أجمعـــوا على أن موهبتـــه الموسيقية كانت احدى المعجزات .. وأن حياته عجيبـــة من العجائب ..

كانت تتردد بعض الاشاعات أنه ولد فى أسرة متيسرة ، وأن عصابة من العميان اختطفته ، وهو طفل ، فذهب يجوب معهم الآفاق الى أن اكتشفه أستاذ شهير من أساتذة الموسيقى واهتم بموهبته الخارقة ..

وكان بعض آخر يؤكد أنه هجر أسرته بمحض ارادته ، وانضم الى جماعة من الشحاذين بدافع الرغبة البحتة فى حيـاة المغامرة والخيال .. ومهما يكن من شيء ، فان القاعة كانت تغص بالسامعين ، كما بلغ ايراد الحفلة الذى خصص لعمـل خيرى مجهول حدا لم يسبق له مثيل .

كان السكون التام يخيم على القاعة حينما ظهر على المنصة شاب شاحب الوجه واسع المقلتين جميل العينين . ولم يكن ليدور بخلد أى انسان أنه أعمى لولا الجمود الصارخ الذى بدا على عينيه ولولا أنه دخل القاعة تقوده امرأة شابة شـــقراء ، قيل انها زوجته ..

وما ان بدا على المنصة حتى سمع صـــوت ناقـد متحيز حسود من بين الجمهور يقول لجاره : « ليس من الغريب أن يحدث هذا الشاب أثرا ساحقا على جمهوره .. ألا ترى منظره الدرامى الغريب .. ؟ »

والحقيقة أن وجهه الشاحب ذا التعبير الجاد العميق ، وعينيه الجامدتين ومظهره الخارجى الجميل ، كل ذلك كان يبشر بشيء غريب غير معتاد ..

من المعروف أن السامعين الاوكرانيين يحبون الاغانى الشعبية ويقدرونها ، ولكن جمهور « العقود » المختلف الالوان والاذواق الذى حضر هذه الحفلة بالذات لم يلبث ان سيطر عليه الانفعال أمام صدق التعبير الموسيقى العميق . الانفعال الحى بالوطن الاصلى والاحساس الدقيق الاصيل باللحن الشعبى ، كل ذلك كان يبدو واضحا فى الارتجال الذى يتفجر من تحت أنامل الموسيقى الاعمى . ارتجال مرن صداح غنى بمختلف الالوان يسيل فى صورة أمواج رنانة فيسمو الى مرتبة الترانيم السماوية ، أو ينتشر فى شكل صور تنير لواعج الاسى .. كأن تارة ينهمر مدويا فى الفضاء اللانهائى وكأنه زئير العاصفة أو هزيم الرعود ، وأحيانا يبدو كرياح الاستبس التى تثير الحفيف بين الاعشاب وفوق التل ، فتغرقك فى أحلام مملوءة بصور الماضى البعيد .

لم يكد يكف عن العزف حتى دوت فى أرجاء القاعة عاصفة من التصفيق الحماسى المحموم . وبقى الاعمى أمام البيانو ، خافض الرأس ، ينصت فى دهشة الى هذه الضجة . ولكن ها هو ذا يرفع يديه من جديد ، ويضعهما على المشط . فيصمت السامعون دفعة واحدة كأن على رءوسهم الطير .

وفى هذه اللحظة دخل العم مكسيم الى القاعة . فألقى نظرة فاحصة على الجمهور الذى استولت عليه عاطفة واحدة ، وراح ينظر الى الاعمى بعيون شرهة براقة .

أخذ المشوه العجوز ينصت وينتظر . وكان يعرف أكثر من أى فرد آخر بين الحاضرين معنى هذه الدراما الحية التى تعلن عن نفسها فى عزف بطرس .. وامتلأ قلبه فرقا من أن

يرى هذا الارتجال الجبار الذى يتدفق مرا من نفس الموسيقى ، يتوقف فجأة كما كان يحدث من قبل أمام سؤال مقلق أليم يكشف عن جرح دام جديد فى قلب تلميذه .. ولكن الاصوات ظلت تنمو وتشتد وتتخذ لها أبعادا هائلة وتزداد قوة وجبروتا وتستولى على قلوب الجمهور المسحور الذى نقله الحبور الى عالم آخر ..

وكلما ازداد العم مكسيم انصاتا ، ازداد اقتناعا بأن يسمع فى عزف بطرس لحنا مألوفا لاذنه .

نعم ، انه هو ، انه الشارع الصاخب .. انه الجحفل الصارخ الصاخب المفعم بالحياة يتدافع ويتقاطع ويتناثر فى آلاف وآلاف من الاصوات تارة يعلو ، وتارة يهبط ، باعثا فى الآذان رنينا بعيدا متواصلا ، ولكنه كان فى كل الاحوال يحتفظ بهدوء نغمته وجلالها وغموضها وبرودها .. وفجأة أحس العم مكسيم بقلبه ينقبض .. فقد انبعث من تحت يد الموسيقى نوع من الانين كالذى كان يسمع منه فيما مضى ، فجلجل فى الهواء ثم تلاشى ..

الآن لم يعد الامر مقصورا على شكايات المآسى الفردية ، على الانين المنبعث عن آلام العمى . فاغرورقت عينا العم مكسيم بالدموع ، وانهمرت الدموع أيضا على وجنات جيرانه .

وراح الرجل العجوز يقول فى نفسه : لقد استرد بصره .. نعم ، نعم ، لقد استرد بصره . ومع ذلك فقد كانت هناك نغمة وخاذة أليمة تسرى دائما ودون انقطاع فى كيان اللحن الصافى المنتعش بالحياة ، السعيد المفعم بالحرية كرياح الحقول المنسابة المنطلقة ، وبين عجيج الحياة الحافل الصاخب ، وفى طوايا الاغنية الشعبية التى تبدو تارة مجللة بمسوح الحزن السوداء وأخرى متشحة بوشاح الجلال الرصين .

وكان العم مكسيم يقول فى نفسه ، وكأنه يشجعه : أحسنت يا بنى ، أحسنت . وجه اليهم طعناتك ، وهم فى قمة المرح والسعادة ...

وبعد فترة وجيزة انفردت انشودة العميان بالسيطرة على القاعة الفسيحة والجمهور المسحور .

احـــ ســـان للعمـــ ســيان المسا ... كين ..

ولكنها الآن لم تصبح أنينا شاكيا تخنقه ضوضاء الشارع . كلا ، لقد كان فيها كل ما كان يلاحظ على بطرس من قبل ، حين يرى متشنج الوجه من فرط الانفعال الذى ثار فى كل كيانه تحت اللحن ، فيكف عن العزف حيث لم يعد لديه من القوة ما يكفى مقاومة الالم الوخاذ . أما الآن فقد انتصر على هذا الشعور فى نفسه ، وانتصر على نفوس الجمهور حين أخبره بالحقيقة التى تسيطر على الحياة بكل ما فيها من عمق وشناعة . انه الليل وقد رسم على قاع من الضوء الوهاج ، انه الى جانب ذلك تذكير بالتعس وسط وجود سعيد .

كان من يرى الجمهور فى هذه الحال يخيل اليه أن ضربة عاتية قد زلزلت أركانه ، وأن القلوب كلها ترتعد كما لو كان بطرس قد مسها بأصابعه الحية الساحرة ..

وبالرغم من أنه كف عن العزف ، فقد ظل المستمعون يلتزمون الصمت العميق .

وخفض العم مكسيم رأسه ، ثم قال فى نفسه :

« نعم ، لقد صار مبصرا .. لقد استعاض عن آلامه الفردية العمياء الجارفة بالمعنى الحقيقى النبيل لماهية الحياة ... لقد فهم الشقاء البشرى والسعادة البشرية كليهما . . . وأخيرا لقد استرد بصره .. وسيعزف منذ الآن لكى يذكر السعداء بأن هناك تعساء ... »

وأخذ الجندى العجوز يخفض رأسه أكثر من ذى قبل ..
فقد أدى واجبه هو الآخر .. نعم ، ان حياته لم تذهب هباء .. وخير شاهد على ذلك تلك الاصوات المفعمة بالقـــوة التى سيطرت على الجماهير المسحورة ..

●

وهكذا بدأ الموسيقى الاعمى .

١٨٨٧ – ١٨٩٨

● ●

## المؤلف

فلاديمير كورولينكو من رواد الفكر في روسيا ، ولد سنة ١٨٥٣ والتحق بجامعة بطرسبرج ولكنه لم يلبث أن طرد منهـا لترويجه الافكار الجديدة عن الحـرية الاجتماعيـة ونفى الى سيبريا ، ولما عاد من منفاه ظل ينشر المقالات الحماسية فى مجلة « ثروة روسيا » وكان يهدف الى تحرير الشعب الروسى من الظلم والقسوة والاضطهاد .

ورحب كورولينكو بثورة ١٩١٧ وبعد حين اعتكف فى عزبته المتواضعة فى أوكرانيا حيث قضى نحبه سنة ١٩٢١ .

ومن اشهر أعماله « فى مجتمع ردىء » و « حـلم وقصص أخرى » وقصته « الموسيقى الاعمى » التى ؛ عام ١٨٩٠ وتدل على قدرة كورولينكو فى تصوير سيكل الاعمى .

Bibliotheca Alexandrina
0547082

دار الهنا للطباعة والنشر ـ ت : ٤١١٢٧